بسم الله الرحمن الرحيم

تم رفع هذه المادة العلمية من طرف أخوكم في الله: خادم العلم والمعرفة (الأسد الجريح) بن عيسى قرمزلي. ولاية المدية

الجنسية جزائرية

الديانة مسلم

موقعي المكتبة الإلكترونية لخادم العلم والمعرفة للنشر المجاني للرسائل والبحوث على

www.Theses-dz.com

للتواصل: رقم هاتف 00213771087969

البريد الإلكتروني: benaissa.inf@gmail.com

حسابي على الفيسبوك: www.facebook.com/Theses.dz

جروبي: https://www.facebook.com/groups/Theses.dz

تويتر https://twitter.com@Theses_DZ

الخدمات المدفوعة

01- أطلب نسخة من مكتبتي

السعة: 2000 جيقا أي 2 تيرا !

فيها تقريبا كل التخصصات



أكثر من 80.000 رسالة وأطروحة وبحث علمي

أكثر من 600.000 وثيقة علمية (كتاب، مقالة، ملتقى، ومخطوطة...)

المكتبة مع الهرديسك بالدينار الجزائري 50.000.00 دج

المكتبة مع الهرديسك بالدولار: 500 دولار .

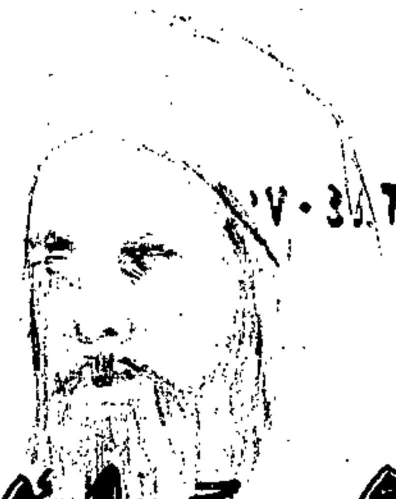
المكتبة مع الهرديسك بالأورو: 450 أورو

02-نوفر رسائل الأردن كاملة 20 دولار للرسالة الواحدة على https://jutheses.ju.edu.jo/default2.aspx

لا تنسوني بدعوة صالحة بظهر الغيب: ردد معي 10 سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم

اللهم صل وسلم على نبينا محمد .... بن عيسى قرمزلي 2016.

جامعة الجزائر
معهد التاريخ



المغرب الأقصى في عهد السلطان الحسن الأول

1873 - 1894م / 1290 - 1311

رسالة لنيل شهادة الماجيستير في التاريخ الحديث والمعاصر

إعداد : محمد العربي معريش

إشراف : الأستاذ الدكتور أبي القاسم سعد الله

بسم الله الرحمن الرحيم

- الإهداء -

إلى روح والدي الذي فقدته
أثناء التفكير في اختيار موضوع البحث ..،
إلى روح والدتي التي فقدتها
وأنا خارج الوطن، أبحث عن وثائق
هذه الرسالة ...،

- محمد العربي معريش -

ـ المقدمـــــــــــــــــة ـ

الحقيقـــة أنه لم تراودني فكرة البحث في موضوع : " المغرب الأقصـــى في عهد السلطان الحسن الأول " ولم تخطر ببالـــي الكتابة في تاريخ المغـــرب الأقصى الحديث والمعاصر قبل الشروع في تناول هذه الرسالــــة.

وعندما قمت بالتسجيــــل البيداغوجـي ، طلب مني الدكتور المشــــرف تقديم ثلاثة مواضيع بتصوراتها وخطتها ، ففعلت ، ولكنها لم تقنعه ، فأعـــددت ثلاثـــة مواضيع أخرى فلم تقنعه أيضـــا ، وعندما طلبت منــه أن يقتـــرح علي موضوعا ، فعـــرض علي البحث في تاريـخ المغرب الأقصـــى فقبلـــت .

وكان اقتراح الدكتور أبي القاسم سعد الله يقوم على اعتبارات عديدة منها :
ـ رغبته في تغطيـــة مادة تاريخ المغرب الأقصــــى الحديث والمعاصر تلبيـــة لحاجيات الجامعة الجزائريـــــة .

ـ ضـــرورة توفر متخصص في تاريخ المغرب الأقصى الحديث والمعاصـــر يمكنـــه المساهمة في تمثيـــل الجزائر في المناسبات العلميـــة والملتقيات الدولية المتخصصة والتي تتناول تاريخ المغـــرب الأقصـــى مثـــلا .

ـ تنويـــع التخصصـــات واثـــراء الأبحـــاث بالتفتـــح على تاريخ العالـــم القريب والبعيـــد .

ولقد تقبلت الموضوع عن طيب خاطـــر خاصة بعد ادراكـــي لمغـــزى هذه الاعتبارات التي تفيض بالتعبيـــر عن بعد النظـــر وعن انشغالات واهتمامات هي في صميـــم الصالح العـــــام .

لم تكن هذه الاعتبارات وحدها دافعا لي للبحث في الموضوع ولكن الارادة والاستعداد الكبيرين لتناول أي موضوع من المواضيع التاريخية وعلى أية رقعة جغرافية كانت أيضا من وراء استقراري على الموضوع وقبول تناوله .

المهم أنه بعد الاتفاق على الموضوع ،قدمت تصورا له وخطة مبدئية و شرعت في العمل .

واذا كان البعض يرى أنه من الصعوبة البحث في موضوع لم يتم اختياره بمحض الارادة فان الذى جرى هو أن دافع البحث العلمي الذى كنت أشعر به كان أقوى من كون الموضوع غريبا أو بعيدا عن اهتماماتي . وازداد ارتباطي بالموضوع بمجرد الشروع في القراءة التمهيدية ،حين بدأت ملامح الموضوع ترتسم في ذهني وبدأ تصوري له على أنه حلقة في سلسلة تاريخ الأمة الاسلامية التي دب في أوصالها الانحطاط منذ أمد بعيد فتفتتت الى دويلات منها المغرب الأقصى الذى تكالبت عليه الدول خاصة في عهد السلطان الحسن الأول فأشرف على مرحلة لم يعرف مثلها منذ ثلاثة عشر قرنا خلت .

بدا المغرب الأقصى في/خضم الصراع الحضارى والتنافس الدولي والتوسع الاستعمارى وكأنه " يتيم " أو " قاصر " في حاجة الى من يقوم برعاية شؤونه في وقت كثر فيه المرشحون لاسناد أمر " الحضانة " اليهم . وربما يجوز لنا ان نقول بانه عرف في هذه الفترة وصاية دولية في انتظار اسناد الوصاية النهائية الى أقوى الدول أو أدهاها . وقد استهدف الصراع عليه ابقاءه في حالة قصور أبدى لتبرير أمر الحماية التي كانت عام 1912 م .

ان الفترة المدروسة تعتبر فترة تحد واستجابة في آن واحد . وقد امتازت في العالم المتحدى ، بالقوة وقانون الغاب وبصراع أملته نزوات وشهوات الدول المتنافسة . انه عهد التوسع الاستعمارى في أبشع صوره ، وهو التوسع الذى صار وكأنه ضرورة حتمية كقانون ملء الفراغ أو توازن قوتين متجاورتين . هذا فيما حاول المغرب الأقصى

الاستجابة منذ البداية وفي عصر(موضة) الاصلاح والتحديث التي تزامنت ، أو كادت ، مع الاصلاح الديني والاجتماعي ·

وكان احتلال مدينة الجزائر مؤشرا لبداية التحدى الذى لم يهز المغاربة الا في حرب " ايسلي " (1844م) · وقد امتازت الفترة التي هي موضوع دراستنا بمحاولات الاصلاح ،ولكن اعترضتها صعوبات ذاتية وأخرى مفروضة عليها ، مما أثقل كاهل الاصلاحات وجعلها تخرج في نهاية المطاف بلا نتيجة أو تكاد ·

انصب اهتمامي منذ البداية ،وبطريقة منهجية في البحث عن مادة الموضوع بدءا من مطالعة البيبليوغرافيات التي تتناول تاريخ المغرب الأقصى في عمومه وتاريخه الحديث والمعاصر على الخصوص· وقد كشفت لي تلك البيبليوغرافيات على المادة المطبوعة من كتب ودوريات وصحف وغيرها ، وفي مرحلة ثانية رحت أبحث عنها في المكتبات وأجمع وأصنف وأرتب اعتمادا على الخطة · وكان ميدان البحث المكتبة الوطنية والجامعية والمكتبات العمومية (اسواق الكتب) في الجزائر وكذلك المكتبة الوطنية بباريس التي زرتها مرتين ، علاوة على مكتبات الرباط (بالمغرب) ·

كما أن تلمس مادة البحث في مصادرها الأساسية ساقتني الى زيارة بعض دور المحفوظات في فرنسا ،كزيارتي لدار المحفوظات " بقصر فانسن " بباريس، ودار المحفوظات لما وراء البحار" باكس آن بروفانس" ، وأما الزيارة الثالثة فكانت الى المغرب الأقصى نفسه (يعود الفضل في هذه الزيارة الى استاذى وذلك بالحاحه علي في البداية ثم بسعيه أيضا بعد ما أضناني انتظار التأشيرة طيلة عام ونصف) وهو ما مكنني من زيارة الخزانة العامة بجامعة محمد الخامس وخاصة الخزانة الحسنية بالقصر الملكي بالرباط·

ولقد ثبّت أرقام المحافظ مما استعملته في الأطروحة وذلك في بيبليوغرافية البحث مع المصادر الأساسية والبيبليوغرافية العامة باللغتين العربية والفرنسية ·

وقد تطرقت لموضوع " المغرب الأقصى في عهد السلطان الحسن الأول " متبعا

الخطة الآتية :

ـ أولا ـ مدخل : وحاولت فيه أن أطرح الموضوع طرحا حضاريا متخذا فيه أسلوب التدرج والانتقال من العام الى الخاص، ايمانا مني بضرورة الارتفاع بالموضوع الى هذا المستوى وأن أعالج القضية على انها قضية تدخل في سياق عام وحضاري،قبل الوصول بها الى سياقها الخاص ومن هنا فقد اعتبرت المدخل اطارا عاما للموضوع ·

ـ ثانيا ـ الفصل الأول : رأيت أن أخصصه لحالة المغرب عشية اعتلاء الحسن الأول العرش المغربي ، واعتبرته المنطلق الضروري للموضوع · وسلكت في هذا الفصل مسلك التدرج بالانطلاق من الظروف العامة التي تحيط بالمغرب الأقصى الى الظروف الخاصة بناء على أن المغرب لا يعيش ككتلة منعزلة عن محيطه الخارجي ولكنه يتأثر بظروف دولية سواء على مستوى المغرب العربي أو محيطه الأوسع نظرا لما تربطه به من علاقات مع عالمه الاسلامي والعالم الغربي · ثم عالجت ظروف المغرب الداخلية منتهيا بتقديم نبذة أولية عن شخصية الحسن الأول قبل مبايعته للوقوف على العناصر المكونة لهذه الشخصية التي ستحكم المغرب خلال الفترة الممتدة بين 1873م و1894م/1290هـ ـ 1311هـ·

ـ ثالثا ـ الفصل الثاني : دخلت به في صميم الموضوع وتطرقت فيه الى أجهزة الحكم من جهاز مخزني وسياسته ثم الجهاز الاقليمي · ولما كان العهد قد سمّي بعهد الاصلاح فقد خصصت للاصلاح الاداري مبحثا بينت فيه مجالاته التي لم تغير في الواقع من الأمر الا قليلا وهو ما اضطرني الى التركيز على عوامل فشل الاصلاح في هذا الميدان ·

أما تنظيم الجيش فقد عرف بدوره اصلاحا أخذ فيه حظا فاق سواه من الميادين ، ولذا أفردت له قسما خاصا من هذا الفصل ·

ـ رابعا ـ الفصل الثالث : تناولت فيه المجتمع المغربي من خلال البيئة الاجتماعية والحياة الاقتصادية والتطور الثقافي ·

أما البيئة الاجتماعية فتعرضت فيها لسكان الريف والمدن وكذلك الى الطرق الصوفية

وعلاقتها بالمخزن منتهيا بتقييم للمجتمع المغربي ·

أما الحياة الاقتصادية فعرضت فيها للزراعة والصناعة والتجارة · وأما التطور الثقافي فتعرضت فيه لوضعية المؤسسات التعليمية والبعثات العلمية الى الخارج في اطار الاصلاح ، ثم الوسائل التثقيفية الأخرى من مكتبات وطباعة وصحف وغيرها · وقد أنهيت العنصر باعطاء نظرة قصيرة عن الحركة الفكرية واتجاهاتها آنذاك ·

ـ خامسا ـ الفصل الرابع ،والأخير : عالجت فيه العلاقات الخارجية للمغرب الأقصى وقسمتها الى عنصرين رئيسيين ، تطرقت في الأول الى علاقات المغرب بالعالم الاسلامي والتي لم تكن في حقيقة الأمر تتعدى عاطفة الأخوة بعيدة عن مجال التمثيل الدبلوماسي والتعاون الميداني سواء فيما يتعلق بالتجارة أو بتنسيق المواقف والقوى لمواجهة الأعداء ·

أما المبحث الثاني في هذا الفصل فتعرضت فيه الى علاقات المغرب بالدول الأوربية وقسمتها الى مرحلتين ،تنتهي الاولى عام 1880 أى بعقد مؤتمر مدريد مركزا فيها على نظام الحماية باعتباره موضوعا كاد أن يطغى على سواه من المواضيع المثارة في اطار هذه العلاقات · وتنتهي المرحلة الثانية بوفاة السلطان الحسن الأول عام 1894م · وقد رأيت أن أركز فيها على علاقات المغرب منفردة مع أكثر الدول الأوربية مصالح في المغرب وأشدها اهتماما به وهي : فرنسا وانكلترا واسبانيا وألمانيا ·

حاولت معالجة الرسالة بروح موضوعية سالكا في ذلك مسلكا وسطا بين أحكام واتجاهات المؤرخين الأوربيين من جهة والمغاربة من جهة ثانية ، اذ في الوقت الذى حاول فيه الأولون تناول تاريخ المنطقة والفترة بالتهجم على أنظمة الدولة والحط من قيمتها تارة وتعظيم شخص السلطان الحسن الأول للقول بأنهم غلبوه في النهاية ونهكوا قواه تارة أخرى ، فقد عالج المغاربة تاريخهم بنوع من التحيز أو على الأصح بالمدح (للأسرة الحاكمة) وتبرير مواقفها ·

ومهما كانت النتائج التي توصلت اليها فانها لم تضع حدا لتطور البحث وهي

ليست نهائية ،اذ ما تزال وثائق كثيرة لم تستغل في البحث ، لذلك فاننا نعتبر ما قمنا به من بحث وما توصلنا اليه من نتائج لا يعدو أن يكون مساهمة محدودة وبداية لبحث علمي لا يزال يحتاج الى مجهودات كبيرة اعتمادا على المادة الخام الخاصة بعهد السلطان الحسن الأول (1873-1894م) • ولذلك فأملي كبير في العودة لهذه الدراسة ان شاء الله بتوسع واستقصاء •

ولا يفوتني في ختام هذه المقدمة أن أتوجه بالشكر الجزيل والامتنان الكبير الى أستاذي الدكتور أبي القاسم سعد الله الذى بذل جهدا كبيرا وصبرا طويلا في اشرافه على سير هذه الأطروحة من خلال اللقاءات المتكررة والتقارير السنوية وأخيرا قراءة ومراجعة الأطروحة أثناء تحريرها • كل ذلك جرى بأستاذية عالية وتواضع كبير مما شجعني على المضي قدما رغم الظروف القاسية أحيانا والتي لا أريد ذكرها حتى لا يحرمني الله أجرها ان شاء الله •

وأشكر أيضا الدكتور جمال قنان الذى تفضل بمراجعة الفصل الأخير وأفادني بنصائح وتوجيهات قيمة •

كما أشكر كل الذين ساعدوني من قريب أو بعيد في انجاز هذه الأطروحة كالدكتور محمد العربي الزبيرى ،والاستاذ الشريف مريبعي ،والاستاذ عقاب ،وعمال المكتبتين الجامعية والوطنية وكذلك الاساتذة الذين قابلتهم في المغرب الأقصى وأخص بالذكر الاستاذ المنوني الذى سمح لي بمقابلته والتحاور معه في الموضوع ببيته أكثر من مرة ،وكذلك الاستاذ ابراهيم حركات والاستاذ عبد الوهاب بن منصور•

ولا يفوتني في النهاية ان أشكر كل الاساتذة الذين تفضلوا بقراءة رسالتي ،ومناقشتها •

أخيرا سدد الله خطانا ووفقنا الى ما فيه خير الأمة ، والسلام •

الجزائر ،في5ربيع الثاني 1406هـ
الموافق لـ17 ديسمبر 1985م

محمد العربي معريش

- المختصرات -

د ٠ ت : دون تاريخ
د ٠ م : دون مكان
و : وثيقة

A.M.G.: Archives du Ministère de la guerre. (Château de Vinceinnes).

A.O.M.: Archives d'Outres Mer (Aïx-En-Provence).

A.M.: Archives Marocaines

J.A.: Jeune Afrique.

Micro D. 45: Microfilm D 45-58 (Le Temps).

N.R.: La Nouvelle Revue.

R.A.A.: Revue de l'Armée d'Afrique.

R.D.M.: Revue des Deux Mondes.

R.P.L.: Revue Politique et Litteraire.

لكل أمة من الأمم انتماء حضاري . ولعل التعايش فيما بين الحضارات ميتة كانت أم ذابلة أم زاهرة وسهيمنة هو الذي يخلف الصراع بين المنتمين لهذه الحضارات ككل . فأصحاب الحضارة الذابلة مثلا لهم رصيد لا يستطيعون التخلص منه لأنه منهم ، ولأن أي انسلاخ عنه يؤدي الى الذوبان الحتمي في الحضارة القائمة ، أو على الأقل تقمصا أو حياة مفتعلة قد تفقد التفاعل مع الحضارتين في آن واحد .

وهكذا ينشأ الصراع ، صراع بين شخصيتين حضارتين ، احداهما واقعية قائمة والثانية شخصية مريضة تستمد قوتها أكثر من ماضيها الحضاري وتعيش عليه .

والمتتبع لسير الحضارات بدءا من عوامل نشأتها الى عناصر فنائها يستخلص علة الصراع .

ان الطبيعة الفطرية للبشر واحدة ،لذا فالاختلاف يكمن فيما اكتسبوه من معنويات روحية وثقافية وحضارية ، وهذه العوامل الثلاثة هي التي تحدد علاقة البشر فيما بينهم ، سواء أفراد الأمة الواحدة أو أفراد الأمم بانتماءاتها المختلفة . والمتمعن في طبيعة البشر يلاحظ الاختلاف في توظيف تلك العوامل الأساسية للشخصية ، شخصية الفرد والمجتمع ، فهناك من يوظفها لخدمة البشرية والمساهمة في بناء حضارة أو بعثها ، في وقت يقوم البعض الآخر بتوظيفها في اطار محدود ،فيرسم لنفسه هدفا لا يخرج عن نطاق المحافظة على البقاء . فيضع نفسه بذلك في عالم يخرج عن نطاق ما نريد الوصول اليه . ويعيش على هامش البناء الحضاري أي على هامش التاريخ .

والمتمعن في الظاهرة الأخيرة يجد أن أصحاب هذه الصفة ، أفرادا كانوا أم دولا ، يعدون من ضعاف الرصيد المعنوي أو الشخصية ، وهي الحالة التي تنطبق على مرحلتي الصبا والشيخوخة ،أو بداية الحضارة ونهايتها . وهذان الحدان ، على الرغم من اشتراكهما في عوامل معينة الا انهما متناقضان تمام التناقض . وهنا تكمن علة الصراع بين البناء والتهديم والتوفيق بينهما .

والاختلاف في توظيف عناصر الحضارتين المتناقضتين والمفاهيم عند كلا الطرفين هو عين الصراع . فهل ينطبق هذا ككل عن الموضوع الذى نحن بصدد تناوله ؟

أجل ، انه لا يخرج في نظرنا عن نطاق ما ذكرناه من صراع ، ذلك ان الرقعة الجغرافية التي تدور فوقها أحداث الموضوع ، تنتمي لعالم له ما يميزه عن رصيد فكرى وروحي وحضارى عن عالم آخر يقترب منه من حيث الرقعة الجغرافية ولكنه يختلف عنه في العوامل المذكورة ولعل أبرز ما يمكن قوله عن هذين العالمين انهما متناقضان أشد التناقض لاختلاف طبيعة العوامل ونوعيتها .

فالعالم الأول — أى الاسلامي — المنتمي اليه المغرب الأقصى في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر (نهاية الثالث عشر وبداية الرابع عشر الهجرى) تميز بجمود طاقاته الروحية والفكرية والمادية ، فلم تعد موظفة توظيفا ايجابيا ، لأن أهله دخلوا منذ أمد في نوم عميق أنساهم التراث والفكر[1] . فالطاقة الروحية ذبلت واستبدلت بأوهام الزوايا والطرقية ولم يعد المسلم تواقا الى المقام المحمود وأطلق العنان للغريزة الانسانية فيه . وكان من نتائج ذلك ، انتهاء ترابط الأشخاص وأواصر التعاون في المجتمع لأن الجهد العقلي لم يعد

---

(1) أنظر : مالك بن نبي في عدة مؤلفات له ، خاصة :
- شروط النهضة ، ترجمة عمر كامل مسقاوى ، وعبد الصبور شاهين ، ط . 3 ، دار الفكر بيروت ، 1969 .
- وجهة العالم الاسلامي ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، بيروت ، بدون تاريخ .
- تأملات ، ط . 3 ، دار الفكر ، دمشق ، 1977 .

يتجاوز حدود الحاجة الفردية [1] ،وتقطعت بذلك شبكة علاقاته الاجتماعية ،تلك العلاقات الأساسية لصنع الأحداث التاريخية الحضارية .

والعلة من وراء هذا هو ذبول الطاقة الروحية التي تدفع الانسان الى توظيف طاقاته الفكرية طبقا لمثل أعلى تنتشر مظاهره من ذوق ونمط وأسلوب حياة على رقعة جغرافية وبشرية في آن واحد ، وتلك هي الثقافة في صورتها التاريخية كما يرسمها مالك بن نبي [2] لأن الانسان من خلالها يترك بصماته على صفحة التاريخ فنا وقيما وتراثا وانجازا [3].

وقد أصيب العالم الاسلامي في رصيده الحضاري ،وصار يعيش في شكل فوضى .ولم يعد يمارس رسالته في العالم ،رسالة الحضارة وقيادة البشرية التي تجعل منه خير أمة أخرجت للناس [4].

ان الحضارة الاسلامية قابلة للازدهار ثانية لأنها تنتمي لشجرة الاسلام الضخمة تلك الشجرة التي ذبلت وسقطت بعض فروعها ،ولكن استمرار نسغها مكنها من بعث براعم جديدة بين الحين والآخر، وهي البراعم نفسها التي أعادت الثقة لأهلها فيها وعلى استمرار الحياة بها بالرغم من كثرة المعاول المنهالة عليها . وتلك حقيقة يعترف بها لها خصومها أنفسهم [5].

وبحكم تداول الأمم للحضارات ، فقد عاصرت فترة اللاحضارة في العالم الاسلامي

---

(1) عمر كامل مسقاوي ، " مالك بن نبي والدعوة للانتقال من التكديس الى البناء" ،العربي ،عدد 285 ،اوت 1982 ،ص 68 .

(2) أنظر : مشكلة الثقافة ،دار الفكر ،دمشق ، 1981 .

(3) كامل مسقاوي ،ص 71 .

(4) نفس المصدر ، ص 68-69 .

(5) G. Drague; Esquisse d'histoire religieuse du Maroc confréries et Zaouias; Peyronnet, S.D.

حضارة في رقعة جغرافية مقابلة لها ، امتازت بقدرتها على بناء ثقافتها وفق نموذج مستمد من قيمها الخاصة ،ومع ذلك فهي ثمرة الحضارة الاسلامية الى جانب الروح المسيحية والثقافة الرومانية ، ثقافة السيطرة والقهر (1) .

ونظرا لخلل في البناء انجر عنه خطأ في توظيف ما بنيت عليه ،فقد طرحت العلاقات الانسانية في عالم الحضارة المسماة بالغربية في اطار اقتصادى كمي لا مكان فيه للقيم الانسانية (2) .

كان للقرن التاسع عشر أهميته التاريخية ،لأن الحضارة الغربية بلغت ذروتها فيه فبدأت تخرج من عالمها الاوربي لتأخذ دورها القيادى في العالم ،مهما كانت الوسيلة المستعملة لأخذ هذا الدور (3) .

وهنا تكمن أهمية الموضوع المطروح على بساط البحث ،فهو يؤرخ لفترة اتصال بين حضارتين (4) ، حضارة اسلامية في اوج انحطاطها ،وحضارة اوربية في أوج ازدهارها واندفاعها . وكان لاستعمار الهند في الجزء الشرقي من العالم الاسلامي والجزائر في الجزء الغربي منه ، نتائج للتدافع والصراع العنيف المترتب عنه .

كان من ثمار هذا الاتصال والتحدى يقظة العالم الاسلامي ،ذو الرسالة التي انطفأ نورها ،أو بقي خافتا . فبرز رواد فكر وثورة ،سرعان ما تنبهوا الى ضرورة الدخول مجددا في اطار الحضارة الاسلامية وبعثها قبل فوات الأوان .

بدأت الدعوة الى الاصلاح وبناء الدول ،وكان النموذج المختار الحضارة الاوربية . لكن الاصلاح سرعان ما بدا غير مجد نظرا لما اعتراه من أخطاء في عملية

---

(1) كامل سقاوى ،ص 68 .
(2) نفس المصدر ،ص 68 .
(3) نفس المصدر ،ص 68 .
(4) سبق هذا الاتصال ، اتصالات أخرى منذ الاكتشافات الجغرافية .

تقليد الحضارة " اللامعة ". فاقتناء الأشياء حدث دون الالمام بها ،وكان الاقتناع بالحصول على الاشياء دون معرفة كيفية ابداعها ،يعود الى أن المستيقظ لم يبد له من الحضارة الا الظاهر، اما الباطن فعجز عن فهمه (1) ،ومن مظاهر ذلك تلك الاصلاحات في الدولة العثمانية والاصلاحات في تونس ومصر وفي المغرب الأقصى بالذات .

ويأتي موضوعنا في خضم من المواضيع البارزة كالتوسع الاوربي والاتصال الحضاري ، والاصلاحات وغيرها ...

كانت الحضارة التي وقع الاتصال بها حضارة وارثة لثقافة السيطرة والقهر ،فضلا عن ان علاقاتها الانسانية كانت مطروحة في اطار كمي ،لذا كانت غازية ،وقيادتها للعالم قائمة على القهر والقوة لا على الاقناع والوعي والتفاعل الايجابي . وهنا تكمن علة الصراع التي تهدف الى الطمس والتذويب والابتلاع .

ان موضوعنا يأتي في هذا الاطار التاريخي والحضاري .وهذا ما يزيد ،في نظرنا ، من أهميته ،لأن الفترة المدروسة تمتاز بالخطورة في ميدان الصراع الحضاري المصيري (2) .

وقبل الخوض في الموضوع يحسن بنا ان نعود شيئا ما الى الوراء للوقوف عند بعض الخلفيات التاريخية لأحداث فترة الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ،لأن المغرب لم يكن معزولا عن العالم ،ولكنه عنصر من المجموعة الدولية يتفاعل مع غيره من الدول في اطار ماضيه وحاضره .

ينتمي المغرب ،قبل كل شيء ،الى العالم الاسلامي ، وقد شارك كغيره من دول هذه المجموعة في بناء ذلك الرصيد الثقافي الحضاري ، اذا ما ذهبنا بعيدا ، وأما اذا اكتفينا بالفترة الحديثة فانه ينتمي للطرف الغربي من العالم الاسلامي والذي تميز بصراعه العنيف مع أوربا ،

---

(1) كامل مسقاوي ،ص 68–69 .

(2) ساهمت عوامل عديدة داخل وخارج أوربا في اعطاء نفس جديد للفكر الاستعماري والتوسع الاوربيين في النصف الثاني من القرن 19م ، وخلال الفترة المعاصرة لموضوعنا بالذات انظر : تطبيق ذلك في المغرب ضمن الفصل الاخير من هذا البحث .

بالمقارنة مع الفترتين السابقة واللاحقة لسقوط غرناطة (1492م) (1).

وقد صادف نزول العثمانيين في المغرب العربي (2) بداية حكم الاسرة السعدية للمغرب الأقصى (1524م) .وكانت ولادة هذين النظامين المتنافسين ،كرد فعل ديني لما لحق بمسلمي الاندلس من ناحية والعدوان الاسباني البرتغالي على سواحل المغرب من ناحية ثانية (3) ،ووضع حد للصراع المسيحي الاسلامي على أرض أوربا (4).

وقد ساهم العثمانيون في الجزائر في مطلع القرن السابع عشر في تجزئة المغرب الأقصى الى امارات تابعة للاشراف والزوايا والطرق الصوفية وحالت المنافسة القبلية وعداوة الامراء السعديين واتباعهم لرجال الدين ،حالت دون الوصول الى توحيد المغرب الأقصى من طرف زعماء الزوايا والطرق الصوفية (5).

في هذه الظروف بالذات ظهرت على مسرح الأحداث في المغرب الأقصى الأسرة

---

(1) كان الصراع بين الطرفين في الفترة الاولى ينحصر تقريبا في المجال الاوربي وبالتحديد في شبه جزيرة ايبيريا او الأندلس ،لينتقل في الفترة الثانية الى البحر الابيض المتوسط ،وهي الفترة التي تميزت بجهاد البحر.

(2) كانت بداية الحكم العثماني للجزائر عام 1518م لما شرع خير الدين في مباشرة مهامه باعتراف السلطان العثماني له بذلك وكذا سكان الجزائر.

(3) -Auguste Cour; L'établissement des dynasties des Chérifs du Maroc et leur rivalité avec les turcs de la Régence d'Alger, (1509-1830), Paris, Leroux, 1904, p. 242.

(4) يبرر الاوربيون ذلك العدوان على انه نتيجة لما يسمونه بالقرصنة الاسلامية ،وهو ما نسميه نحن بجهاد البحر ،الجهاد الذى بدأ مع نهاية الحروب الصليبية (نهاية القرن الثالث عشر) أى عندما فشل الصليبيون في حربهم ضد المسلمين على أرض (الاسلام) . فانتقلت فلولهم الى جزر المتوسط لتحترف القرصنة التي واجههم فيها المسلمون بجهاد اشتد على اثر طرد المسلمين من الاندلس وملاحقتهم في البحر ،فمهاجمة سواحل المغرب بين نهاية القرن 15 وبداية القرن 16م.

(5) -Cour; p. 242.

- أنظر كذلك : ابراهيم حركات ،المغرب عبر التاريخ ،ج 3 ،ط 1 ،دار الرشيد الحديثة ،الدار البيضاء ،1985 ،ص 14-15 و 20-21.

العلوية (1)، خاصة بظهور الرشيد كشخصية شريفية عرفت كيف تربط بثروتها بعض المغامرين أولا ثم عرب " أمغاد " (2). فتمكن مولاى الرشيد بمساعدتهم من السيطرة على الحكم في المغرب الأقصى (3).

وبظهور الأسرة الجديدة صارت الخلافة تتنازعها أسرة عثمانية في " اسلام بول " وأخرى علوية في مراكش أو فاس .

ويمكن القول بأن الأسرة العلوية وجدت مضايقة منذ البداية في بسط نفوذها من جانب العثمانيين في الجزائر، الذين كانوا يؤيدون منازعي السلطة بفاس، فواصلوا بذلك سياستهم القائمة على التدخل والتي يعود تاريخها الى العهد السعدى .

ومهما يكن من أمره يعد المغرب الأقصى البلد العربي الاسلامي الوحيد الذى نجح في التصدى للدولة العثمانية والاحتفاظ بوضعية خاصة وذلك منذ شملت بوجودها العالم العربي خلال القرن 16م (4).

وقد مرت العلاقات المغربية العثمانية بمراحل ثلاث، استغرقت الاولى أغلب القرن 16م وهي المرحلة التي حاول العثمانيون أثناءها بسط سيطرتهم على المغرب كغيره من الدول العربية الأخرى ولو أنهم أخفقوا في ذلك كما سلف . اما المرحلة الثانية، ففقدت فيها الدولة

---

(1) بدأ الأشراف يمارسون سلطتهم على سجلماسة منذ 1640م، ولم يعترف أهل فاس بسلطتهم سوى في عهد مولاى محمد عام 1059هـ/1649م، انظر :

ـ ابو العباس احمد بن خالد الناصرى، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج 7، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1956، ص 31ـ42 . وكذلك :

ـ حركات، ج 3، ص 20ـ21 .

ـ أنظر كذلك عن نشأة الدولة العلوية نفس المصدر، ص 17ـ20 .

(2) قبائل تقطن الحدود المغربية الجزائرية، وقد كانت ثائرة على السلطة .

(3) - *Cour*; p. 245.

(4) يونان لبيب رزق، محمد مزين، تاريخ العلاقات المغربية المصرية منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام 1912، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1982، ص 18 .

كان من أسباب اخفاق العثمانيين في السيطرة على المغرب هو نجاحهم في التصدى للهجمة الأوربية وكذلك لان السعديين استطاعوا ملء الفراغ الذى تركه انهيار الحكم الوطاسي .

العثمانية قوة اندفاعها وصارت لا تشكل خطرا كبيرا على المغرب وكان ذلك خلال القرن 17م (1) .

وقد حدثت نزاعات بين الطرفين على الحدود الشرقية في هذه المرحلة ،من ذلك أن مولاى اسماعيل قام بعدة محاولات عسكرية (2) . واذا كان قد مني بالفشل من ناحية فانه حمل السلطان العثماني الى مكاتبته طالبا منه الوقوف عند حد أسلافه (3) .

اما المرحلة الثالثة فقد اتضحت منذ النصف الثاني من القرن 18م ،حين أخذت أسباب الضعف تلم بالدولة العثمانية وصارت منذئذ تعرف بـ"المسألة الشرقية" أو " الرجل المريض " فيما بعد . فزالت بذلك دواعي التخوف ،ثم بدأت العلاقات العثمانية المغربية تأخذ شكلا من أشكال التعاطف الاسلامي . وهكذا يمثل عهد مولاى محمد بن عبد الله النموذج الأمثل لهذه المرحلة (4) .

وقد برهن السلطان محمد بن عبد الله نفسه عن واقعية لم تكن معهودة من قبل تجاه الدول الاوربية حتى لقد استعملت بعضها هذه الواقعية بخبث (5) .وهكذا فقد كان للسلطان مع هذه الدول ـ منفردة ـ عدة معاهدات ،احداها مع السويد عام 1763م (6) ،وأخرى مع فرنسا عام 1767م (7) ،وثالثة مع الدنمارك (8) ورابعة مع البرتغال عام 1773م (9) .

(1) نفس المصدر ،ص 18ـ19 .

(2) -Cour; p. 245 .

(3) الناصري ،جـ 6 ، ص 59 .

(4) لبيب رزق ،العلاقات ،ص 19

(5) حركات ،جـ 3 ،ص 107 .

(6) انظر النص العربي للمعاهدة :

ـ عبد الرحمن ابن زيدان ،اتحاف اعلام الناس بجمال حاضرة مكناس ،جـ 3 ،ط 1 ،المطبعة الوطنية ،الرباط ، 1930 ،ص 277 .

Jacques Caille; *Les accords internationaux du Sultan Sidi Mohamed Ben Abdellah (1757-1790)*; Tanger, 1960, p. 168.

(7) النص الفرنسي ،نفس المصدر ،ص 188 .

النص العربي ،الوثائق 1 ،المطبعة الملكية ،الرباط ، 1976 ، 432 ع 135 .

(8) النص العربي ،ابن زيدان ،اتحاف ،جـ 3 ،ص 283 .

النص الفرنسي ؛ -Caille; *Les accords*, p. 195

(9) النص العربي ،ابن زيدان ،اتحاف ،جـ 3 ،ص 290 .

النص الفرنسي ، : -Caille, *Les accords*, p. 201

ولعل الذى يهمنا من هذه المعاهدات هو أن المغرب منح بها عدة امتيازات صارت فيما بعد أساسا لنظام الحماية الدبلوماسية والقنصلية ،ذلك ((النظام الشاذ العجيب الذى لا يقبله طبع قويم ولا يسلم به منطق سليم، لأنه يتنافى مع سيادة الدولة وانبساط سلطاتها وقوة قوانينها وأحكامها التي يجب ان تطبق على جميع المقيمين فوق أرضها ، سواء كانوا وطنيين أصلاء أو أجانب دخلاء.)) (1)

ومن حسن حظ المغرب يومئذ ،أن النصوص التي انبنى عليها نظام الحماية لم تكن تشكل خطرا عليه لأن التبادل التجارى مع الدول الاوربية كان ضعيفا ورعاياها قليلون، ولأن الدول نفسها لم تكن تفكر بجد في اضعاف المغرب واحتلاله مثلما صارت تفكر فيه في القرن 19م (2) ،سواء بعد موتمر فينا عام 1815م أم بعد أحداث أوربا عام 1870م، وخلال الفترة التي تعنينا على الخصوص. وقد ساهمت ظروف وعوامل أوربية عديدة في كلا الفترتين المذكورتين اعطاء نفس جديد للفكر الاستعمارى والتوسع .وكان من ثمار الفترة الاولى (أى بعد موتمر فيينا) احتلال فرنسا لمدينة الجزائر عام 1830م ،وهو الحدث الذى يهمنا لما له من صدى كبير وانعكاسات خطيرة على مستقبل شمال افريقيا ككل.

وقع الاحتلال على مرأى من النظامين العثماني والعلوى المغربي ،وكان النظامان بعيدين عن التفاهم والتعاون ،معبرين عن أنهما دون مستوى الحضارة وحمل الرسالة الاسلامية وقيادة المسلمين. ويمكن القول بهذا الصدد أن النظامين كانا وجهين لعملة واحدة، وليس هذا بغريب في مجتمعات دخلت مرحلة من الظلام بدأ بسقوط بغداد والموحدين ومرورا بسقوط غرناطة ،فاحتلال مدينة الجزائر.

وقد أدخل الحدث الأخير المغرب الأقصى في دوامة من الصراع الحضارى المصيرى انتهت حلقته الاولى ،كما نعلم ،في مطلع القرن العشرين الى نتيجة خطيرة لم يعرفها المغرب منذ ثلاثة عشر قرنا. فما هي ظروف انشغالات المغرب بالتحدى الاوربي للمنطقة ؟ وماهي أوضاع المغرب الداخلية وعلاقاته الخارجية في ظل التحدى؟ ذلك ما سنحاول أن نعالجه في الفصل القادم.

---

(1) الوثائق (4) ، ص 5 .

(2) الوثائق (4) ، ص 9 .

الفصل الأول

حالة المغرب
عشية اعتلاء الحسن الأول
العرش المغربي

1 ـ المغرب الأقصى والظروف الدولية للمغرب العربي عامة .

2 ـ علاقات المغرب الخارجية وأثرها على الأوضاع الداخلية .

3 ـ الظروف الداخلية للمغرب الأقصى .

4 ـ أوليات شخصية الحسن الأول .

1 - المغرب الأقصى والظروف الدولية للمغرب العربي عامة :

كان احتلال مدينة الجزائر عام 1830م ، من أبرز الأحداث التي شهدها المغرب العربي خلال القرن 19م ، لما للحدث من اهمية في تغيير مجرى تاريخ المنطقة كلها .

لكن الدراسات التي تعالج الحدث خلال الثلاثينات والاربعينات من نفس القرن لا تزال متناقضة في رأينا ،حول مدى مسؤولية طرف من أطرف العالم الاسلامي في التسليم - بطريقة او بأخرى ،ولو عن غير قصد - باحتلال فرنسا للجزائر . و يتجلى ذلك في عدم تقديم المساعدة الكافية لزعماء المقاومة الشعبية للاحتلال الفرنسي ،ومن خلال عدم التدخل مباشرة في الصراع المصيري ،قبل تغلغل الاحتلال نحو الداخل .

واذا كان بعضهم يتفق حول تفريط الدولة العثمانية في الجزائر لعدم تحريكها أي ساكن [1] ، فان الخلاف يحتد أكثر عندما يصير الشعب في الجزائر ينظر الى سلطان المغرب نظرة عطف و يمد له يد المساعدة ،ذلك أن خصوم مستاولي هذه الأحداث يبالغون أحيانا في تصوير مسؤولية طرف دون الآخر . فكتاب الجزائر يبرؤون الجزائريين و يبالغون أحيانا - الا من رحم ربك - في مدى تقصير السلطان عبد الرحمن في مساعدة الأمير مثلا ،بينما يدافع المغاربة عن السلطان حتى في أحرج مواقفه المتخاذلة .

واذا كنا لا ندعي الاتيان بجديد في الموضوع ،فمن الانصاف أن نقول بان جميع الأطراف تقريبا لم يكن رد فعلها في مستوى التحدي ،لا من حيث توظيف القدرات المادية في الصراع ولا من حيث تصور خطورة التحدي نفسه .

وهكذا ، فلم يكن اذن ، في استطاعة فريق ان يستنجد بغريق آخر . فترى ، كيف تعاملت القوى - في المنطقة - سواء كان منها القائمة أم الناشئة في ظل التحدي الاوربي الخطير؟

---

(1) كانت الدولة العثمانية وقتذاك في وضعية حرجة بسبب المتاعب التي أحدثها لها محمد علي والي مصر .

وما هي الثمار التي جناها السلطان عبد الرحمن من الصراع الذى أقحم فيه في النهاية اقحاما ، بحكم انتمائه للعالم الاسلامي من جهة ووضعيته الجغرافية التي تدخل في دائرة الصراع الاستعمارى الذى دشنته الحملة الفرنسية على الجزائر ؟

يتفق جل المغاربة الذين تناولوا أحداث 1830م وما تلاها ،على ان السلطان عبد الرحمن لم يفرط في البرهنة عن التعاطف مع الجزائر في محنتها (1) ،ذلك التعاطف الذى بدأ منذ الحصار البحرى الفرنسي الذى ضرب على شواطئ الجزائر منذ 1827م (2) . أما اثناء الحملة فقد تعاطف السلطان أيضا ، مع العائلات الجزائرية المهاجرة الى المغرب ، كما عبر عن استعداده لاستقبال الداى حسين نفسه (3) . وكان الداى حسين قد أرسل ، منذ مطلع سنة 1830 ،الى السلطان يطلب مساعدته ،لكن بدون جدوى . واذا كان المغاربة يعزون ذلك بضعف السلطان الذى كان قد أوصى عامله بتطوان في خطاب له بتاريخ 26 ربيع الاول بمساعدة الجزائريين الذين هم ((منّا والينا ولا ندخرعنهم شيئا من المعونة ان أمكننا ...)) (4) ، فان الكتاب الفرنسيين يرون بأن السلطان قد عبر عن ارتياحه لسقوط العثمانيين في الجزائر اعتبارا من ان سقوطهم يعني انفراد السلطان بالخلافة الاسلامية في المغرب العربي (5) .

ومهما يكن الأمر، فان وجود سلطة غير اسلامية في الجزائر سببت للسلطان عبد الرحمن مضايقات كبيرة ،اذ صار مع مر الايام يخشى من موقف يجعله خائنا لدينه أو من عواصف الجهاد

---

(1) داود محمد ،تاريخ تطوان ،ج 8 ،الرباط، 1979 ،ص 170 .
وكذلك : علال الفاسي ،الحركات الاستقلالية في المغرب العربي ،دار الطباعة المغربية ،تطوان المغرب ،بدون تاريخ ،
أنظر أيضا : حركات ،ج 3 ، ص 195 .

(2) داود ،ج 8 ، ص 192 .

(3) نفس المصدر ،ص 220-225 . وكذلك : —J. Caille; La petite histoire du Maroc; t. 2, Casablanca, 1954, p. 200.

(4) حركات ، ج 3 ،ص 196 .

(5) -V. Bernard; L'affaire Marocaine; Paris, 1906, p. 55.

في سبيل الله ،الذى أعلنه محيى الدين ثم الأمير عبد القادر،الذى صار رمزا للخلافة الاسلامية المتمثلة في الدفاع عن الدين واقامته. هذا في الوقت الذى كان الشعب المغربي فيه يعاني قلقا عاما ويتابع باهتمام تطور الأوضاع في الجزائر (1).

كانت العواطف متبادلة بين السلطان عبد الرحمن من جهة ومحيى الدين من جهة ثانية ،وهو ما عبر عنه الأخير حين قدم نصيحته للمرابطين وللسلطان قائلا : ((ليس هناك حاجة الى أن نذهب بعيدا للبحث عن هذا الملك ان سلطان المغرب قد عبر عن عاطفته نحونا ،ويجب أن يعرف أن الخطر الخارجي الذى يهددنا نحن اليوم قد يهدده هو غدا ...)) (2)

ويبدو أن العاطفة بقيت كذلك ولم تترجم على أرض الواقع ،اذ بدأ السلطان منذ الوهلة الأولى يقف موقف النعامة أمام عدوها ،فلم يفكر لمدة سنوات في المواجهة المباشرة للجيش الفرنسي مفضلا مساندة المقاومة الجزائرية بكيفية غير علنية ولا رسمية (3) شعورا منه بضعف المغرب من الوجهة العسكرية وكذلك لأسباب تعود الى التزام السلطان بعدم التدخل في الصراع منذ أن أحيط علما بالغزو الفرنسي للجزائر من طرف القنصل الفرنسي بطنجة " De Laporte " (4). ولعل هذا التعهد هو الذى دفع السلطان الى رفض قبول عرض البيعة المقدم اليه من طرف وفود الغرب الجزائرى وكذلك المراسلات العديدة في هذا الشأن أيضا (5).

---

(1) -Caille; <u>La petite histoire</u>; t. 1, p. 189.
- <u>حركات</u> ،ج 3 ،ص 187.

(2) شارل هنرى تشرشل ،<u>حياة الأمير عبد القادر</u> ،ترجمة د. ابي القاسم سعد الله ،الدار التونسية للنشر ،تونس ،1974 ،ص 52-53.

(3) <u>حركات</u> ،ج 3 ،ص 187.

(4) <u>نفس المصدر</u> ،ص 187.

(5) - <u>الناصرى</u> ،ج 9 ،ص 27.
- <u>داود</u> ،ج 9 ،ص 31.
- <u>حركات</u> ،ج 3 ،ص 188.

لكن ذلك كله لم يمنع السلطان من أن يرسل نائبا عنه الى تلمسان وهو مولاى علي ابن مولاى سليمان مرفقا اياه بخمسمائة جندى [1] . وشرع المغاربة وأنصارهم يعملون على ادخال القبائل في بيعة السلطان [2] . وسرعان ما اتضح بأن السلطان ينوى بسط نفوذه على أجزاء من الغرب الجزائرى [3] اذ لم يهاجم جيش مولاى علي القوات الفرنسية ، بينما وصل الى مليانة وعين العمال وصار يجبي الضرائب واتخذ تلمسان مقرا للامارة والنيابة عن السلطان [4] .

لم يسحب السلطان قواته وادارته عام 1832 الا مضطرا أمام تغير الظروف لصالح الجهاز الاستعمارى من جهة [5] وانطلاق المقاومة الشعبية للامير عبد القادر والقائمة على أساس الاستقلال عن كل سلطة خارجية [6] .

والواقع أن صعوبات كثيرة واجهت الأمير منذ البداية ، لأن جهات عديدة كانت تعارض المقاومة ولم تكن موالية له ، وجهات أخرى بدأت ترضى بالتبعية للسلطة الفرنسية وهناك جهات أخرى لم ترض بمبايعة الأمير الا على أساس ارتباطه بالسلطان عبد الرحمن . لهذه الأسباب اذن ، ولغيرها حاول الأمير تغيير خطته وقبول التبعية للسلطان . وبالفعل بدأت الخطب في المساجد ((تلقى باسمه وسمى الأمير نفسه خليفة عنه .)) [7]

ولعل الاجراء الأخير للأمير ، هو الذى أعاد الثقة للسلطان مما دعاه الى مساندته خاصة بعد عام 1834 م ، عند تحقيق الأمير انتصارات على فرنسا . ولم يقتصر التأييد هذه المرة على مجرد المساندة ولكن بالدعم المادى ، اذ قدم السلطان الخيل والسلاح والمال [8] .

---

(1) يذكر تشرشل عوض هذا العدد عددا آخر وهو 5000 فارس ومدفعي ميدان ، أنظر : ص 53-54 .

(2) - الناصرى ، ج 9 ، ص 31 .
- حركات ، ج 3 ، ص 189 .

(3) تشرشل ، ص 52-53 .

(4) - نفس المصدر ، ص 189 .
- الناصرى ، ج 9 ، ص 31 .

(5) حركات ، ج 3 ، ص 190 .

(6) نفس المصدر ، ص 191 .

(7) نفس المصدر ، ص 191 .
وكذلك : الناصرى ، ج 9 ، ص 42 .

(8) - نفس المصدر ، ص 44 .
- حركات ، ج 3 ، ص 197 .
- داود ، ج 8 ، ص 315-318 .

وكان لاحساس الأمير بالخطر الفرنسي الداهم وتخوفه من تجميع فرنسا لقواها وتسديد ضربة قوية له ، من وراء تفكيره في الاتصال بقوى خارجية اوربية يمكنه استعمالها في الضغوط على فرنسا . وفي هذا الاطار بالذات ، كان اتصاله بالبريطانيين عام 1836م . وكان من الممكن أن يتعزز موقفه لو نجح في الحصول على معاهدة بين الطرفين (1) وكذلك الشأن بالنسبة لاتصاله بالامريكيين في نفس السنة (1836م) (2) . لكن المحاولتين فشلتا لأن الأمير لم يكن معروفا معرفة واسعة خارج فرنسا والجزائر (3) .

وعلى صعيد المغرب الأقصى ، وصل في بداية صيف سنة 1836م مبعوث الحكومة الفرنسية "البارون فريد ريك دولارو" الى طنجة ثم توجه الى مكناس لكي يحتج على المساعدة المغربية للأمير ويطلب بالحاح وقف كل تدخل من جانب المغرب ، وعلى الرغم من أن البعثة لقيت مواجهة صاخبة (4) ، الا أنها رجعت بالتزام المفاوض محمد الطيب البياز باسم السلطان بأن يتوقف عن التآمر ضد السيادة الفرنسية في الجزائر (5) ومع ذلك فقد واصل السلطان امداده للأمير بالمساعدات (6) .

---

(1) أنظر عن موضوع الاتصال :
- ابو القاسم سعد الله ، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1978 ، ص 300-306 . انظر أيضا نص الرسالتين الموجهتين احداهما الى قنصل انكلترا بتطوان (29 جمادى الاولى 1251هـ/22 سبتمبر 1835م) ، والثانية الى ملك انكلترا في نفس التاريخ :
- عبد الجليل التميمي ، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي 1816-1871 ، ط1 ، الدار التونسية للنشر ، 1872 ، ص 213-216 .

(2) انظر عن اتصال الأمير بالامريكيين وظروف فشله :
سعد الله ، أبحاث ، ص 306-309 .

(3) نفس المصدر ، ص 309 .

(4) وصلت المواجهة الى حد أن القيت على البعثة الحجارة وأطلق الرصاص على البارون حتى أصيب في احدى عينيه مع ما كان في رفقته من حراس ، انظر :
حركات ، ج 3 ، ص 197-198 .

(5) - حركات ، ج 3 ، ص 198 - Caille, *Petite Histoire*, T.2, pp. 196-197

(6) - داود ، ج 8 ، ص 297 . و حركات ، ج 3 ، ص 198 .

ثم كان اتصال الامير ،في مطلع الاربعينات ، بالسلطان العثماني — عن طريق بريطانيا — الذى يقدم الدليل على بداية ضعف مقاومته [1] . وقد برهن أيضا على بداية تقهقره منذ سنة 1842 اذ اضطر الى اللجوء مرتين الى المغرب قبل معركة ايسلى [2] .

والحق أن السلطان عبد الرحمن كان غيورا على مبادىء دينه المداس من طرف الغزاة ، ولكن احساسه هذا لا يقل عن اهتمامه باستقرار عرشه ، ومن هنا فقد وقع بين نارين ، فرأى ((أن يوازن بين ميوله الشخصية ومخاوفه السياسية انقاذا لعرشه وذلك بأن لا يعمل شيئا مع الأمير)) [3] وهكذا أوقف المساعدات العسكرية بسبب الضغط الفرنسي عليه [4] من جهة ، ولأن الامير صار يشكل خطرا عليه [5] . وفي هذا الوقت بالذات ازداد المغاربة اعجابا بالأمير الذى جعل بلادهم ملجأ لمقاومته ،وهو ما دفع الفرنسيين الى وضع فرقة عسكرية كبيرة في الجزء الذى ينطلق منه . وكان هذا الجزء غير محدد بوضوح بين الطرفين ، مما جعله محل نزاع [6] .

وحدث أن عسكر الجيش الفرنسي في " لالا معنية " وهدموا الضريح الذى كان محل احترام من المغاربة ،الامر الذى أثار ثائرتهم [7] .وسرعان ما وجد السلطان نفسه وسط أمواج من الغضب ، فقرر ارسال جيش الى عين المكان والثأر للدين والاهانة [8] .

---

(1) أنظر نص رسالة الامير الى السلطان عبد المجيد : عبد الجليل التميمي ،ص 221—226 .

(2) حركات ،ج 3 ، ص 198 .

(3) تشرشل ،ص 222 . وكذلك حركات ،ج 3 ،ص 200 .

(4) حركات ، ج 3 ، ص 211 .

(5) H. Michaux Bellaire "L'héritage de M. Hassan", Revue des deux Mondes, t. IX, 1909, pp. 413-414.

(6) مرابطة اشتهرت بورعها وتقواها . اقيم لها ضريح في المكان نفسه .

(7) تشرشل ، ص 222. وكذلك حركات ، ج 3 ، ص 199 .

(8) حركات ، ج 3 ، ص 199 .

بدأت المواجهة في 22 ماى 1844م بمطالبة الجيش المغربي على لسان علي بن القناوى (1)، الفرنسيين بالجلاء عن " لالا مغنية " . وكان الطلب محل سخرية من الفرنسيين ثم عاد المغاربة الى عين المكان بتاريخ 30 ماى 1844م وهو اليوم نفسه الذى هجم فيه بعض أفراد جيش السلطان على القوات الفرنسية . غير أن الجنود ارغموا على الانسحاب الى وجدة (2).

وفي يوم 11 جوان 1844 تطورت الأحداث بوصول " بيجو" الى " لالا مغنية " ، وحاول الطرفان الرسميان اجراء لقاء لتصفية الأجواء ، لكن القوات المغربية اندفعت بحماس الى عين المكان ، فانسحب الفرنسيون لتنظيم أنفسهم وانتظار وصول الدعم استعدادا للمعركة ، ثم رد الجيش الفرنسي بقيادة " بيجو " على الجيش المغربي ، وكانت الهزيمة واجبار هذا الأخير على الفرار (3).

ويبدو أن " بيجو " لم يحضر لهذا فقط بل قرر احتلال وجدة ، وسرعان ما ظهرت نواياه من خلال الانذار الذى قدمه لابن القناوى يدعوه فيه الى ضرورة اعادة السلام بين فرنسا والمغرب .

ودشنت بذلك مرحلة جديدة في تاريخ المغرب الأقصى وهي المرحلة التي بدأ فيها النزاع المباشر بين الطرفين .

وبدت اللعبة السياسية الفرنسية الجديدة حيث اعتبر الفرنسيون الأمير عبد القادر العقبة الوحيدة في العلاقات الثنائية وارتبط السلام والصداقة بشخص الأمير . فلا سلام ولا صداقة الا بتوفير شروط ، كعدم ايواء الأمير وتفرقة جيشه النظامي ورفض هجرة القبائل نحو المغرب واعتراف السلطان للفرنسيين بالحدود المعترف بها للعثمانيين (4).

---

(1) عامل وجدة . وكان قائد الجيش هو الأمير مولاى المأمون .
(2) تشرشل ، ص 223 .
- حركات ، ج 3 ، ص 199 .
(3) تشرشل ، ص 223 .
(4) نفس المصدر ، ص 223-224 .

وسرعان ما امتد النزاع الى مناطق جديدة من التراب المغربي حيث أرسلت قطعة من الأسطول الفرنسي الى السواحل المغربية (1) لتدعيم شروط ومطالب الفرنسيين. وأمر "بيجو" جيشه بالهجوم على المغرب عن طريق البر، وهو الهجوم الذى انتهى بموقعة "ايسلي" المشهورة يوم 4 أوت 1844م (2). وهناك التقى الجيشان المغربي بقيادة محمد بن عبد الرحمن والفرنسي بقيادة "بيجو"، وكان الانهزام الفظيع للجيش المغربي.

يذهب الكثير من المؤرخين الى ان هذه الحادثة وضعت خاتمة لقدرة المغاربة على الحفاظ على استقلالهم، ولظهور ضعف الدولة المغربية أمام الدول الأوربية (3).

ويهمنا من المعركة النتائج المترتبة عليها، وقد كانت جلها سلبية (4). فعلى الصعيد الداخلي، اعتبرت الهزيمة الأولى من نوعها منذ ما يقرب من قرنين. ومن آثار الهزيمة وضع نهاية لغرور الجيش المغربي الذى لا يهزم، وقد وقف المغاربة بأنفسهم على ضعفهم.

وقد ذهب النظام المغربي يعالج هذه النتيجة بمحاولة اصلاح الجيش، ظنا منه بأن ضعف الجيش هو عين المرض، وعجز بذلك عن الفهم الجوهرى والحقيقي للدولة ككل والتي لا يعد انهزام الجيش فيها سوى عرض من أعراض المرض الذى أصاب المغرب ـ كغيره

---

(1) هاجمت القطعة التي كانت بقيادة "De Joinville" مدينتي طنجة وموقادور (الصويرة) بالقنابل، أنظر: تشرشل، ص 224، وحركات، ج 3، ص 200، والفاسي، الحركات، ص 85.

(2) ـ نفس المصدر، ص 224. أنظر كذلك: حركات، ج 3، ص 200ـ203. والفاسي، الحركات، ص 85.

- Berard; pp. 55-56.

ـ محمد عبد السلام ابن عبود، تاريخ المغرب، ج 2، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1963، ص 70 الى 73.

—L. Arnaud; Au temps des "Mehallas" ou le Maroc de 1860 à 1912, Casablanca, 1952, p. 2.

—G. Hardy et P. Aures; Les grandes étapes de l'histoire du Maroc; Paris, 1925, pp. 81-82.

—P. Desfevilles; Les colonies françaises: Le Maroc, Paris, 1932, pp. 10-11.

(3) ابن عبود، ص 70ـ73.

(4) يمكن استثناء عامل يقظة الضمير المغربي.

من دول العالم الاسلامي - في رصيده الروحي والفكري والحضاري ،لذا فالمحاولة محكوم عليها مسبقا بالفشل ان لم نقل بأنها ستزيد في مضاعفة المرض من خلال معالجته بأدوية لا تليق به ،وسنعود لهذه القضية فيما تبقى من الفصول .

وعلى صعيد علاقات السلطان بالأمير وفرنسا فقد حددتهما الاتفاقيتان الموقعتان بين فرنسا والمغرب وهما الاتفاقيتان اللتان وضعتا حدا لعزم " بيجو " ، بعد موقعة " ايسلي " ، على المضي قدما نحو فاس لولا تهديد بريطانيا بالتدخل (1) .

(2)
أما المعاهدة الأولى فهي معاهدة طنجة الموقعة بتاريخ 10 سبتمبرعام 1844م . ويتلخص محتواها في مجموعة من القيود المفروضة على المغرب . ففي شأن القوات المغربية اتفق الطرفان على ابعادها وتحديدها ومنع تجمعها وعدم رفع عددها الا لأمن الطرفين . كما تضمنت بنودا توصى بردع المعتدين وحرمان المجاهدين وعلى رأسهم الأمير الذى اتفق الطرفان بشأنه على مطاردته الى ان يتم القبض عليه ومنعه من رفع السلاح . وتقضى الاتفاقية بانهاء العداوة والانسحاب من الصويرة وتسريح المساجين لكلا الطرفين واقامة علاقات جيدة مع منح فرنسا حق الامتياز بالمقارنة مع الدول الأوربية الأخرى .

أما المعاهدة الثانية فقد نصت على عقدها المعاهدة السالفة، وتم توقيعها بين الطرفين يوم 18 مارس 1845م (3) ، ويتلخص محتواها في تعيين وضبط المناطق والأراضي والقبائل التي تمر عليها الحدود انطلاقا من البحر الى واحة فجيج (أوفقيق) (4) .

---

(1) - *Desfevilles*; p. 10.
(2) عثرنا على نسخة من النص الفرنسي للمعاهدة في ارشيف ما وراء البحار بايكس آن بروفانس : (A.O.M. 30 H 15) ، أنظر النص العربي : الوثائق (1) ، ص 466 .
(3) عثرنا على النص الفرنسي والعربي للمعاهدة في ارشيف ما وراء البحار بايكس ،ضمن علبة تحمل رقم 15 30^H . وهي منشورة في : الوثائق (1) ، ص 473 - 484 .
(4) يعلل الفرنسيون توقفهم عند فقيق كون الاراضي الواقعة الى الجنوب منها غير صالحة للزراعة أو الحرث ،أى أنها أراض صحراوية .

ويمكن اعتبار المعاهدتين من الأهمية بمكان لأنهما تضعان أرضية جديدة لعلاقات المغرب مع الجزائر ومع فرنسا في الجزائر أيضا . والأهم من هذا أن المعاهدتين تقحمان المغرب مباشرة في احداث الجزائر وذلك من خلال :

- اعتراف المغرب بالسلطة الفرنسية في الجزائر .

- التنكر لجهاد الأمير عبد القادر وقبول أحقية مطاردته مع غيره من المجاهدين من طرف الفرنسيين وحكام المغرب (1) .

واذا كانت هذه التطورات قد حدثت على المستويات الرسمية والعليا في المغرب فان مرارة الهزيمة وجور المعاهدتين ولدت غليانا شعبيا وحماسا ارتفع الى مستوى خطير في المخزن . وكاتب الموظفون من العسكريين والاداريين الأمير عبد القادر يتوسلون اليه لانقاذ الدولة المغربية من انهيار وخراب محقق ودعوه ايضا الى تولى عرش أجداده (2) .

وكان موقف الأمير من ذلك هو الرفض بحجة معرفته لمشاكل المغرب الداخلية ، مضيفا بأن هذه المشاكل تتطلب منه الوقت الكثير لفرض القانون وتكوين حكومة محترمة (3) .

وتحت ضغط فرنسا (4) وعبء المعاهدتين ، واصل سلطان المغرب تهديده للأمير مطالبا اياه بمغادرة بلاده طوعا أو تسليم نفسه ، والا فانه سيضطر الى استعمال القوة ضده .

---

(1) يذكر حركات نقلا عن الاستقصا ،ج 9 ،ص 58 ، بأن المخزن لم يتخذ من الأمير موقفا واضحا الا بعد ما تبين أن الامير صار يدعو لنفسه .

(2) تشرشل ، ص 225 .

(3) نفس المصدر،ص 225 . يبدو أن موقف السلطان هذا يجد تفسيره في كونه منشغلا بجهاد الكفار الذين هم أعظم خطرا على المغرب الأقصى والجزائر من السلطان .

(4) اعطت فرنسا تعليمات للماريشال " بيجو " بمطاردة الأمير حتى داخل التراب المغربي ومعاقبة السكان المغاربة الذين يتعاونون معه .

بدأ تنفيذ الخطة الفرنسية ـ المغربية التي تقضي بمطاردة الامير منذ أواخر اكتوبر 1845م ، فحشدت فرنسا 12 ألف جندي فيما اسند السلطان الى شيخ قبيلة الاحلاف الشيخ بوزيان قيادة القبائل والفرق العسكرية المطاردة للأمير (1) . واضطر هذا الى الاعتصام بالريف المغربي لأن خروجه من المغرب يعني سقوطه بيد القوات الفرنسية ، ثم راسل السلطان محاولا تبصيره بالحقيقة والواقع وخطورة الموقف ، لكن بدون جدوى ، مما حمل الأمير وأتباعه على المكوث في المغرب والدفاع عن أنفسهم .

وقد ازدادت ظروف الامير تعقيدا في مطلع عام 1847م لما حرض عليه السلطان الشيخ بوزيان وزعماء بني سناسن وانقاد بل ذهب الى حد تجهيز جيش ضده ، بقيادة سيدي محمد ومحمد بن عبد الكريم الشرقي بحوض ملوية (2) . ولما أصر القائد على استعمال القوة ضد الأمير " وفاء " لاتفاق السلطان مع الجيش الفرنسي ، قرر الأمير مواجهة القائد وتمكن من ان يهزم جيش السلطان (3) .

حاول الامير في هذه الظروف الصعبة والحرجة الاتصال باسبانيا عن طريق حكامها العسكريين بمليلية بحثا عن المساعدة المادية وفك الحصار المضروب عليه (4) والتوسط له مع الفرنسيين لعقد صلح ومعاهدة مشرفة (5) .

---

(1) حركات ، ج 3 ، ص 213 .

(2) يحيى بوعزيز ، " اللقاء التاريخي بين الاميرعبد القادر وحاكم مليلية الاسباني عام 1847 " ، الثقافة (الجزائرية) ، العدد 75 ، السنة 13 ماي ـ جوان 1983 ، ص 114 ـ 115 .

ـ يرى تشرشل غير هذا اذ اتصل الامير بأمر من السلطان عبد الرحمن يقضي باستسلام الامير شخصيا اليه واما العودة الى الصحراء الجزائرية . ولما رفض ذلك زحف الجيش السلطاني ضده ، وكانت هزيمة الجيش قد ترتبت عن حادثة الجملين الحاملين للحلفاء والمطليين بالقطران .
ـ أنظر : تشرشل ، ص 242 ـ 243 .

(3) حركات ، ج 3 ، ص 214 .

(4) بوعزيز ، " اللقاء التاريخي " ، ص 112 ـ 115 .

(5) نفس المصدر ، ص 114 .

وهكذا انتهى الأمير ، في ظل تسارع الأحداث التي لم تكن في صالحه ، الى التفكير في الاستسلام وقد طرحت مسألة التسليم ، هل تكون الى أيدى المسيحيين أم الى السلطان عبد الرحمن ؟ واستشار الأمير أتباعه في ذلك ، ثم حدد لهم موقفه قائلا : ((أما أنا فانني أفضل ألف مرة أن أثق فيمن حاربني على من خانني .)) (1) وكان ذلك في يوم 23 ديسمبر عام 1847م (محرم 1264 هـ) (2) .

وقبل انهاء استعراض هذه الظروف (3) يجدر بنا أن نشير الى أن المغرب الأقصى لم يستفد كثيرا من الحملة الفرنسية على الجزائر فيما كانت هذه الأخيرة عنصرا هاما من عناصر اليقظة في تونس ، التي قام باياتها تحت تأثير الشعور بالخطر باصلاحات ، دشنها أحمد باى (تونس) مع بداية حكمه (1837-1855م) . وقد كان لهذه الاصلاحات وغيرها ، في مصر والدولة العثمانية ، دور في تحفيز سلاطين المغرب - بدءا من السلطان عبد الرحمن - على القيام باصلاحات مماثلة بعد حرب " ايسلي " عام 1844م .

ان هذه التطورات التي تناولناها على ساحة المغرب العربي لها ما يبررها لأن تأثيرها سيكون شديدا على أحداث المنطقة على العموم والمغرب الأقصى على الخصوص فيما تبقى من القرن 19 م ، والذى عرف النصف الثاني منه المزيد من التغلغل الأوربي بالمغرب الأقصى ، وهو ما جعل الكثير من المؤرخين الأوربيين يذهبون الى حد اعتبار تاريخ المغرب الأقصى في القرن 19 ، هو ((تاريخ التغلغل الاوربي .)) (4) أو تاريخ " المسألة المغربية " . قياسا على أن تاريخ المسألة الشرقية هو تاريخ الدولة العثمانية أيضا . وصادف ذلك محاولات الاصلاح التي كانت نتيجة وسببا للتغلغل في آن واحد . لكن النوم الذى طغى على الأجفان الى درجة تعذرت معها الرؤية الثاقبة والقادرة على تشخيص الداء الحقيقي واختيار الدواء الأنجع له ، كان أقوى من كل اصلاح فضلا عن أن العقل

---

(1) تشرشل ، ص 246 .   (2) حركات ، ج 3 ، ص 215 .

(3) لم يكن الأمير عبد القادر الطرف الوحيد في النزاع مع فرنسا بل هناك شخصية أحمد باى (قسنطينة) . والمعروف ان هذه الشخصية كانت من بقايا السلطة العثمانية ، لكننا لم نعثر لها على اتصالات او علاقات مع السلطة المغربية - فيما توصلنا اليه من بحث - وحسبنا في ذلك الاشارة الى الحزازات وعقدة العلاقات السيئة قبل عام 1830م .

(4) Desfeuilles, p. 6-7

المغربي كان عاجزا عن فهم الالتواءات الفكرية للممارسة الاستعمارية الاوربية . وقد سبقت الاصلاحات ، وكذلك العراقيل التي اعترضتها ، الفترة التي تعنينا (1873-1894م) ، كما استمرت خلالها . وكما سيتضح لنا ذلك من خلال تناولنا للظروف الداخلية والعلاقات الخارجية للمغرب الأقصى .

2 - علاقات المغرب الخارجية وأثرها على الأوضاع الداخلية :

بدأ اتصال أوربا بالمغرب وبشكل جديد في القرن التاسع عشر بعد أن عرف المغرب تطورات خطيرة في علاقاته مع فرنسا على الخصوص (1) .

فحرب " ايسلي " - كما أسلفنا - انتهت على اثر تهديد بريطانيا لفرنسا بالتدخل لما عزم القائد الفرنسي " بيجو " على السير قدما نحو فاس . وقد كان لهذا الموقف البريطاني أثره على سلطان المغرب الذى صار ينظر لبريطانيا نظرة عطف (2) . وهي النظرة التي استغلتها هذه الاخيرة وحاولت توطيد علاقاتها مع المغرب ، في ظل خلافاته مع فرنسا واسبانيا .

وهكذا ، شرعت بريطانيا فعلا في مفاوضة المغرب مع مطلع الخمسينات رغم أن فرنسا واسبانيا حاولتا تعكير جو المفاوضات . ولما تأكدتا من أن لهما وسائل للضغط على المغرب تفوق ما بيد بريطانيا أطلقتا أيديهما ابتداء من 1853م في المباحثات قصد الاستفادة منها . وانتهت المفاوضات بين المغرب وبريطانيا بتوقيع معاهدة بتاريخ 9 ديسمبر 1856م (1273هـ) (3) .

---

(1) يرجع تاريخ الاتصال المغربي الاوربي الى فترة أبعد من منتصف القرن 19م . وأول من اهتم بالمغرب من الدول الاوربية قبل أن تصل الى حالة الضعف المكشوف ، هي اسبانيا وفرنسا وانكلترا . انظر :
- حسن صبحي ، التنافس الاستعماري الاوربي في المغرب (1884-1904م) ، ط1 ، دار المعارف ، مصر ، 1965 ، ص 12 .
وكذلك عبد المالك خلف التميمي ، " ملامح الوضع الاقتصادى في المغرب العربي قبيل الاستعمار الغربي " ، المجلة التاريخية المغربية ، السنة 10 ، العدد 29-30 ، جويلية 1983 ، ص 122 .

(2) لم تتدخل بريطانيا في حرب " ايسلي " حبا في شعب المغرب وسلطانه ، وانما لمصالحها المهددة من طرف فرنسا في حالة سيطرتها على البلاد او مقابلتها على الضفة الجنوبية من مضيق جبل طارق .

(3) انظر : نص الاتفاقية ، الوثائق (4) ، ص 13-15 .
وكذلك نصها العربي : ابن زيدان ، اتحاف ، ج 3 ، ص 290 .

كانت هذه المعاهدة بمثابة انهزام دبلوماسي للمغرب يضاف الى معاهدتي طنجة و"لالا مغنية" . وقد تحصلت بريطانيا بموجبها على امتيازات عديدة (1) ، من شأنها أن تمس سيادة المغرب . وقد بدا للعيان ضعف المغرب وخضوعه للضغوط الخارجية ، وهو ما جعل الاوربيين ينظرون اليه نظرة رجل مريض جديد يضاف الى المسألة الشرقية .

لم يعد المخزن في صراعه مع الدول المتنافسة ، يقوى على مراقبة تسرب العنصر الاوربي بسبب الامتيازات الممنوحة لهم ، ومنها فقدانه حق محاكمة الاوربيين .

فتحت المعاهدة اذن ، باب المنافسة على مصراعيه ، ذلك أن كلا من فرنسا واسبانيا صارتا تبحثان عن امتيازات مماثلة ، لما تحصلت عليه بريطانيا في المغرب . ولعل المجابهة مع اسبانيا في حرب تطوان (2) تأتي في هذا السياق . وقد انتهى الأمر باسبانيا الى الاستيلاء على مدينة تطوان عام 1860م . وقد تدخلت بريطانيا عندئذ لتوقيع معاهدة سلام بين المغرب واسبانيا بتاريخ 26 افريل 1860م (3) .

لقد وضعت حرب تطوان الخاسرة حدا لهيبة المغرب ، وأضيفت الى هزيمة " ايسلي " العسكرية ، الأمر الذى شجع اسبانيا على فرض شروطها عام 1861م وتوقيع اتفاقية تجارية (4) .

---

(1) فتحت الاتفاقية البلاد نهائيا امام التجارة الخارجية البريطانية التي اعترف المغرب بحريتها من ذلك أيضا ، اعفاء التجار البريطانيين من الضرائب ومن القضاء المغربي ، واعتبر القنصل البريطاني وحده المسؤول على مواطنيه . أنظر :
- J. Brignon; A. Amin; B. Boutaleb; Histoire du Maroc, Paris, 1967, pp. 289-290.
- A. Ayache; Le Maroc; Paris, 1956, p. 51.

(2) وقعت الحرب اثر تجدد النزاع حول منطقتي مليلية وسبتة عام 1859 . وبدأت الحوادث قرب سبتة ثم تطورت الى حرب خسر فيها المغاربة مدينة تطوان . ولم تتوقف الحرب الا بدخول بريطانيا الى جانب المغرب . انظر :
- Berard, L'affaire, p. 56.
- Desfevilles; pp. 10-11.

(3) الوثائق (4) ، ص 15-16 .
أنظر نص المعاهدة ، داود ، ج 4 .

(4) أنظر نصها العربي ، داود ، ج 4 ، ص 281 .

اعتمادا على شروط معاهدة 1856م مع بريطانيا ، ومن بين ما تضمنته ، التأكيد على نظام حماية الأشخاص (1) . ومنع اسبانيا حق استيراد بضائع المغرب وحق صيد الأسماك على السواحل المغربية (2) .

كانت المعاهدة والاتفاقية الموقعتان آنفا مع المغرب حافزا لفرنسا على المطالبة بالمثل . ولم يمض وقت طويل حتى شرعت فرنسا في مفاوضة المغرب ووقعت معه تسوية في 19 اوت 1863م (3) ، تحصلت بموجبها على امتيازات ترعى بها مصالحها التجارية في البلاد ، وأكدت بدورها على حماية الاشخاص المغاربة (4) .

واذا كان المخزن قد تفطن لخطورة حماية الاشخاص وحاول انهاءها في بداية المفاوضات فان الاوربيين ، على العكس من ذلك فقد ركزوا عليها وتشبثوا بها ، فأصبحت القاعدة الأساسية للاتفاقيات ومحورا للتوغل الاوربي فيما بعد (5) .

ترى ما هو نظام الحماية الدبلوماسية والقنصلية ؟

انه نظام ((يمنح بمقتضاه الممثلون الدبلوماسيون والقنصليون المعتمدون في بلد مّا حماية دولهم لرعاياه ، فيصيرون وهم يحملون جنسيته ، ويقيمون باستمرار فوق أرضه ، غير خاضعين لقوانينه ، ولا ملزمين بأداء ما يجب على سائر مواطنيهم اداؤه من ضرائب ، والقيام بما

---

(1) لم يقتصر الاوربيون في حماية الأشخاص على الموظفين والعاملين بالقنصليات ولكنهم تعدوا الى التجار والحرفيين والاقطاعيين والأعيان ... وغيرهم . انظر :
- صبحي ، ص 22 - 23 .

(2) انظر نصها العربي ، داود ، ج 5 ، ص 164 .

(3) - Brignon; pp. 291-292.

(4) ينص القانون على أن لا تتجاوز حماية التاجر الاوربي الواحد مغربيين اثنين ، ويعفى المغربي المحمى من كل ضريبة كما يحمى من القانون . ونظرا للاهداف الاستغلالية البشعة ، فانهم ضمنوا الاتفاق بندا ينص على ان النشاط في الارياف لحساب الاوربيين لا يسمح باعتقال المغاربة - المحميين - من طرف المخزن الا باعلام القناصل المعنيين . انظر :
- Brignon; pp. 291-292.

(5) نفس المصدر ، ص 298 .

يقومون به من خدمات وطنية .)) (1)

والمتمعن في مثل هذا النظام يكتشف بأنه شاذ وعجيب ،لأنه يتنافى مع سيادة الدولة (2) .

وضعت معاهدة 1856 واتفاقية 1861م ،وتسوية 1863م ،الأسس القانونية للحماية الدبلوماسية ونظام التسلط على المغرب . وفتحت بذلك ـ كما سلف ـ عهدا للمنافسة الشديدة (3) ، فدخلت الميدان ايضا بلجيكا والولايات المتحدة وسردينيا والسويد ،ولو بأقل وطأة (4) .

وهكذا ، شرعت كل من فرنسا واسبانيا وبريطانيا وغيرهم ،في اقامة وسائل التأثير والاستمالة منذ توقيع المعاهدات . فانكلترا مثلا ،أقامت قناصل لها في كل الموانئ المفتوحة للتجارة (5) ،وكذلك اسبانيا التي أقامت هيئة كاملة للتمثيل وتلتها فرنسا . ثم أصبح للممثل القائم بالأعمال في طنجة مرتبة الوزير .وكان اتصال الممثلين مع المخزن والسلطان يتم بواسطة نائب أو ممثل للسلطان يقيم بطنجة أيضا (6) .

يتضح مما سبق أن علاقات المغرب مع اوربا ظلت الى منتصف الخمسينات من القرن التاسع عشر تكاد تقتصر على علاقات واتفاقيات شكلية ولكنها تقفز بعد ذلك لتمهد

---

(1) الوثائق (4) ، ص 5 .

(2) نفس المصدر ، ص 5 .
انظر دراسة وافية عن نظام الحماية القنصلية قام باعدادها مؤرخ المملكة المغربية ،عبد الوهاب بنمنصور ،نفس المصدر ،ص 5 الى 121 .

(3) — Brignon; p. 292.

(4) — H. Cambon; Histoire du Maroc; Paris, 1952, p. 92.

(5) كان ممثلها الرسمي في طنجة هو السير John Drummond Hay وهو القنصل الذى أخذ مكانه في المغرب منذ 1845 ، وسيكون له شأن في عهد مولاى الحسن .

(6) -J. Caille; La représentation diplomatique de la France au Maroc Pedone, 1951, p. 11.

الطريق لنفوذ العنصر الاوربي ، ولم يعد المغرب قادرا على ايقاف التيار الاستعماري الغازي بدون جيوش ، وكذا التدخل المباشر في شؤونه ابتداء من الستينات [1] .

فما هو السر في هذه الهجمة الشرسة ؟ وما طبيعة اهتمام الدول بالمغرب ؟ وما هي الحالة التي آل اليها المغرب في ظل العلاقات الجديدة قبيل اعتلاء مولاى الحسن العرش المغربي ؟

من الواضح ان علاقات المغرب مع الدول الاوربية جاء في فترة عرفت تطورات وتبدلات في التجارة العالمية ووسائلها مما انعكس سلبا على المغرب الذى لم يكن يفقه هذه التطورات كما أنه لا يملك وسائلها أو القدرة على مواجهتها .

لقد عرفت الليبرالية في أوربا شهرها العسلي منذ منتصف القرن التاسع عشر ، ومن مظاهر ازدهارها الاختراعات الكبرى في ميدان المواصلات ، كبناء الناقلات الضخمة وتطور السفن البخارية [2] ، وتطورت معها وسائل الاتصال البريدى . ولما كان البحر الأبيض المتوسط مجالا لصراع دولي، شنته الحملة الفرنسية على الجزائر فقد بلغ التنافس أشده بتطور الملاحة البحرية وازدياد انتشار الاساطيل الحربية . وكانت النتيجة أن زادت أهمية المضايق وهنا زاد اهتمام الدول بمصير المغرب كبلد يشرف على مضيق هام يصل الاطلسي بالمتوسط . ومما زاد في أهمية المضيق فتح قناة السويس عام 1869م [3] .

كان من مظاهر ازدهار الليبرالية أيضا وتوسعها ، ازدياد عدد الشركات التجارية المدعمة بالقناصل والأعوان ورجال الأعمال والجواسيس والأجهزة المتطورة . كل ذلك بتدعيم حكومات الدول المتنافسة وكبار الرأسماليين [4] .

---

(1) -Ch. A. Julien (et autres); "Les Africains: Hassan Ie et la crise Marocaine au XIX S."; édit. Jeune Afrique, 1977-1978, p. 236.

(2) — Brignon; p. 292 .

(3) - J. L. Miège; Le Maroc; Paris, 1962, pp. 21- 22.

(4) — Brignon; pp. 294-295 .

وكان لهذه الآلة الاستعمارية نظرة خاصة للمغرب لعوامل عديدة منها قربه من أوربا واشرافه على منفذ جبل طارق الهام ومجاورته للجزائر، وكذا اعتباره منفذا نحو قلب القارة الافريقية التي تعمل الشركات الاوربية من أجل الوصول اليها لما لها من أهمية كسوق لتصريف البضائع (1)، فضلا عن الأهمية التي توليها نفس الشركات للمغرب وتبحث عن السبل للتغلغل نحو الداخل بحثا عن الموارد التجارية (2). ويمكن القول أيضا بأن التنافس على المغرب قد اشتد لما أظهره من ضعف وقابلية للاستعمار.

ففي ظل هذه المستجدات وفي ظل الاستجابة لمتطلبات الثورة الصناعية التي كانت في أوجها، تختلق الدول الأسباب والمبررات، وتصنع لنفسها نوعا من الشرعية لتبرير نزاعها مع غيرها من الدول وتراجدها في المغرب.

فأما اهتمامات انكلترا بالمغرب فتعود لمصالحها في المتوسط. وعلى الرغم من أنها ابرمت اتفاقيات مع المغرب وصل عددها سبعا بين أوائل القرن الثامن عشر - أي منذ أن استولت على جبل طارق عام 1704م - وسنة 1856، الا أنها لم تكد تعمل شيئا لزيادة نفوذها في البلاد طيلة هذه الفترة (3)، وقد ازدادت أهمية المغرب بعد 1856م وعلى أثر حفر قناة السويس (1869) بالنسبة لبريطانيا، الحريصة على أمن تجارتها وملاحتها البحرية من والى المتوسط، لأنه الطريق نحو مستعمراتها بالهند. وهكذا ازداد حرصها على تأمين الضفة المقابلة لقاعدتها في جبل طارق. فكانت تقف في وجه كل قوة تغامر بالسيطرة عليها. وكانت تتوجس خيفة من فرنسا بالدرجة الاولى منذ أن أقدمت الأخيرة على احتلال الجزائر (4).

---

(1) يزيد عدد السكان في وسط افريقيا عن المائة مليون نسمة حسبما تذكر بعض المراجع.

(2) Brignon; pp. 294-295. —

(3) صبحي، ص 19.

(4) Brignon; p. 297. —

وأما فرنسا نفسها فقد كانت حريصة على امن مستعمرتها (الجزائر) ، على حد زعمها ، وكانت تطمح الى توطيد علاقاتها مع المغرب تحقيقا لهذا الهدف كمرحلة أولى ، فتدعيم علاقاتها التجارية معها اعتمادا على نظام حماية الأشخاص ، الذي تفطن له المغرب وحاول الغاءه ، خاصة بالنسبة لفرنسا مستغلا في ذلك متاعبها مع ألمانيا عام 1870م [1] كمرحلة ثانية . وكان هدف فرنسا البعيد هو بسط نفوذها على المغرب بعد تثبيت أقدامها في الجزائر ولو أن ذلك لم يتضح جيدا سوى غداة فرض حمايتها على تونس . وحينئذ بات من المؤكد أن فرنسا تسعى لضم المغرب اليها [2] وتحقيق وحدة الشمال الافريقي تحت رايتها [3] خدمة لأغراضها الاستعمارية .

وتأتي اسبانيا في المرتبة الثالثة لتزاحم الدولتين الأوليين ، بحجة أن لها حقوقا تاريخية في المغرب ، وتقصد بذلك امتلاكها لمليلية (1490م) [4] وسبتة (1665م) ، اللتين اعترف المغرب لها بهما في معاهدة 1797م [5] . ومن هنا فأي تمركز لفرنسا أو بريطانيا في المغرب من شأنه أن يشكل خطرا على حامياتها هناك ، لذا فهي تعمل على زيادة نفوذها في المغرب واثبات وجودها أمام غيرها من القوى الاوربية الأخرى ، محاولة اقناعها بأن أي تغيير لا يحدث في المغرب دون أن يكون لاسبانيا نصيب فيه [6] .

أصبحت المنافسة شديدة اذن مع نهاية الستينات على المضيق الذي يتشكل من تحصينات ، جبل طارق ، وسبتة و " طريفة " [7] وطنجة . وكانت الدول تتوجس خيفة من يوم يسقط فيه المضيق تحت رحمة احدى الدول المتصارعة [8] . أما والحالة الراهنة ، فلا يشكل

---

(1) *Desfeuilles; p. 11.* —

(2) نفس المصدر ، ص 10 .

(3) *Brignon; p. 297.* —

(4) اخذتها اسبانيا في غمار نزاعها مع المغرب وفي ظروف طرد الأندلسيين ومتابعتهم الى الشواطئ المغربية .

(5) صبحي ، ص 12-13 .

(6) *Brignon; p. 297.* —

(7) مدينة على الشاطئ الاسباني ، شمال المضيق .

(8) *C. De Kerdec; Un boulevard de l'Islam; Madrid, 1895, pp. 312-313.* -

يشكل خطورة كبيرة لاشراف ثلاث دول عليه ، وهي بريطانيا في جبل طارق واسبانيا فيما تبقى من الجزء الشمالي المشرف عليه ، وفي سبتة وأخيرا المغرب من الناحية الجنوبية للمضيق [1] .

وبنا على ما سبق فان حرية المضيق غدت ضرورة ملحة لبريطانيا كما لفرنسا واسبانيا ذلك أنه ذو أهمية استراتيجية في حالة قيام الحروب . فسيطرة دولة غير اسبانيا عليه من شأنها أن تقسم مياه اسبانيا وقوتها البحرية الى قسمين ان لم نقل ثلاثة أقسام (في حالة أخذ البرتغال بعين الاعتبار) ، الأمر الذى يشتت قوى اسبانيا العسكرية وموارد ها بين المتوسط والأطلسي [2] .

وقد حدثت مثل هذه التكهنات في الوقت الذى كانت فيه بريطانيا تملك قاعدة قوية في جبل طارق وكان لها نفوذ على سلطان المغرب من خلال ممثلها في طنجة [3] .

وكانت روسيا أيضا تقف ضد نفوذ الدولة الواحدة على المضيق وهي بذلك من أنصار حرية المضيق [4] .

لم تكن الانشغالات الاوربية بالمغرب تقف عند هذا الحد ولكنها اتجهت في آن واحد ومع مطلع السبعينات الى الطرف الجنوبي – أى الصحراء ومنها الى " تومبوكتو " – وكان التنافس في هذا الجزء قائما حول السيطرة على الطريق المؤدى الى السودان التي

---

(1) نفس المصدر ، ص 313 .

(2) نفس المصدر ، ص 315 .

(3) يعود هذا النفوذ الى تدخل بريطانيا الى جانب المغرب ، كما سبق ، في محنتها في ايسلي عام 1844م ، ثم في تطوان عام 1859م – 1860م . وبقيت العلاقات تتدعم الى أن أصبح قنصل بريطانيا (*Hay*) مستشارا لسلطان المغرب .

(4) *Kerdec*; pp. 317-318 —

يقطنها وتقتذاك حوالي مسائة مليون من الأفواه المستهلكة [1] . وشارك في هذا التنافس الجديد بعثات ألمانية أيضا [2] .

ترى كيف أثر التنافس وعلاقات الدول الأوربية مع المغرب على سياسته الداخلية ؟

كان السلطان ـ الى وقت قريب من هذه الأحداث ـ ينظر الى قناصل الدول الأوربية نظرة احتقار ، ويعتبر هداياهم نوعا من الجزية ، ولم يكن يجيز لهم التوغل داخل البلاد لذا فهم يتخذون الموانئ مقرات لرعاياهم [3] ، لكن سرعان ما تغير مركزهم في الستينات ومطلع السبعينات كنتيجة للشعور بالهزيمة الذى أفقد المغاربة الثقة بالنفس فغيروا نظرتهم للاوربيين ، وفي وقت أصبح الأخيرون مزودين بالآلة الاستعمارية المعقدة من قناصل وبعثات وجواسيس وشركات وحقوق حماية الأشخاص وغيرها [4] . وهي الوسائل التي عملوا على تطويرها فتمسكوا من خلالها من " ترويض " الشعب المغربي بتطبيع علاقاته معهم ، وقد صار الأجنبي يحمي نفسه من القوانين ، بل أصبح يتمتع بامتيازات ((ما كان ليحلم بها في وطنه)) [5] ، وانتهزوا في ذلك ضعف أداة المخزن ، وكان حق الاتجار أول وأهم الحقوق التي حصلوا عليها ، ثم حق الاقامة والتنقل وعدم تفتيش المسكن

---

(1) J. L. Miége, Le Maroc et l'Europe 1830-1894, t. III, P.U.F., 1961, pp. 293-294.

(2) حققت ألمانيا وحدتها عام 1870م ، وكان الثمن غاليا بالنسبة لفرنسا . وما يهمنا من هذا الحدث هو أن زعيم الوحدة الألمانية بسمارك كان يشجع فرنسا على السير قدما نحو امتلاك المزيد من المستعمرات التي يجني منها بسمارك ابعاد الجيوش الفرنسية عن حدوده ، واثارة المتاعب لها مع باقي الدول ، فيما يتفرغ هو وفي ظل الأمن الخارجي لبناء ألمانيا على أسس متينة تجعلها في صف الدول الكبرى القادرة على تلقين دروس أخرى لفرنسا نفسها كما هو الشأن بالنسبة لأحداث الحرب العالمية الأولى .

(3) صبحي ، ص 9 . وكذلك : -Mohamed Lahbabi; Le gouvernement marocain à l'aube du XXe siècle, Casablanca, 1975.

(4) محمد المنوني ، مظاهر يقظة المغرب الحديث ، ج 1 ، مطبعة الرباط ، 1973 ، ص 10 .

(5) صبحي ، ص 10 .

الآ باذن من القنصل ، الى جانب اعفائهم من الضرائب العامة ... وغيرها [1] . وصار التمييز بين مغربي وآخر لمجرد الحاقه بخدمة أجنبي ،لأن ذلك من شأنه أن يخرج المغربي المحمي عن سلطة وقانون بلاده على الرغم من محافظته على الجنسية المغربية [2].

وقد عمل القناصل على زيادة عدد المحميين من المغاربة خدمة لأغراضهم وعملا على التأثير واكتساب ميول وعطف المغاربة [3] . وكان المفاوضون الأوربيون يختارون ذوى الثروة [4] .

كان لنظام الحماية نتائجه الخطيرة على البلاد حيث أصبح المغاربة يعرضون خدماتهم على القناصل ويقدمون لهم الهدايا [5] . وكان لنظام الحماية أثره السيء على المخزن أيضا لأن سياسة الاصلاح التي بدأ يتجه نحوها بدت غير ممكنة ومحكوما عليها بالفشل لسببين :

الأول هو أن العناصر المحمية والتي يفقدها المخزن يوميا أدت الى اضعاف مدخوله من الضرائب ،لأن العناصر المحمية كانت من ذوى الثروة والملك وهو ما أضعف مدخول قواد النواحي الذين أصبحوا يحتجون على اتساع فكرة الحماية ويشتكون من انخفاض المداخيل قاصدين بذلك تخفيض مدفوعاتهم للمخزن . وهذا في وقت كان المخزن فيه يشكو بدوره من زيادة النفقات التي يقدمها للعناصر الأوربية والمحمية [6] .

أما السبب الثاني ،فيعود الى أن المخزن استفاد من احداث الماضي القريب .

---

(1) نفس المصدر، ص 10 . أنظر المعاهدات وضمنها البنود المتعلقة بالحماية القنصلية : الوثائق (4) ، ص 9-10 .

(2) صبحي ، ص 10-11 .

(3) _Miege; Le Maroc, t. III, pp. 263-264.

(4) نفس المصدر، ص 265 .

(5) _Caille; Le milieu; p. 43 .

(6) _Miege; Le Maroc, t. III, p. 266.

وهو ما جعله يخشى من تزايد خروج العناصر السحبية عن سلطته وافلاتها من مداخيل الضرائب بتزايد التسهيلات الممنوحة للشركات والتجار الاوربيين ،أو على الأقل زيادة نفوذ المستشارين والتقنيين الذين يقتضي الاصلاح تواجدهم (1) .

ان موقف المخزن وخشيته من تزايد العنصر الاجنبي لدليل على تفطنه وتناقض سياسة الاصلاح القائمة على منطق غير سليم والمتمثلة في محاولة اصلاح حالة المخزن اعتماداً على الاوربيين . لكنه في نفس الوقت عجز عن وضع حد لحالة تزداد تفاقماً يوماً بعد يوم ،وتتمثل في أن الأوربيين كانوا يوهمون المخزن بالعمل باسم المدنية وادخال الاصلاحات الحديثة ، لكنهم في حقيقة الأمر زادوا في قبضتهم وبسط نفوذهم على المغرب مما دفع بالبلاد سريعا الى الهاوية (2) . فهذا " والترهاريس " الصحفي الانكليزي يعترف بحقيقة الاستدمار الذي جاء الأوربيون من أجله فيقول :

((في الحقيقة اننا بادخالنا المسيحية الى المغرب ... فاننا ندفع بأمة متداعية الى قبرها بسرعة أكبر)) ،ويعلل ذلك بأنه حيثما تذهب الارساليات يذهب الخمر معها (3) . وفعلا فقد زاد نشاط البعثات " التكفيرية " بتشجيع من الحكومات الأوربية (4) . وهذه شهادة أخرى للمؤرخ الفرنسي " ميج " ،يذكر أن ((التجار الأوربيين ،وباستثناءات قليلة ، لؤماء ، بما فيهم المفوضون الذين يقضون جل أوقاتهم في الاحتجاجات الكاذبة عوضا عن المطالبة بالحقوق المعترف لهم بها .)) ويستشهد في ذلك بالقنصل البريطاني " هاي " ، الذي لاحظ بدوره : ((أن التجار كانوا يظنون أن المغرب ما هو الآ منجم لذا يجب على القناصل الوقوف ضد القوانين والعدالة المغربية لمساعدتهم على استغلاله .)) (5)

---

(1) نفس المصدر، ص 266 .

(2) صبحي ، ص 11.

(3) نفس المصدر، ص 11.

(4) نفس المصدر، ص 8.

(5) Miege; Le Maroc, t.III, p. 266.

واذا كان المخزن وعلى رأسه السلطان ،قد وقف في وجه التغلغل الاقتصادى الأوربي [1]، فانه من الناحية الواقعية استحسنه ورحب به ، ظنا منه بأن الارتباط بالتجارة الأوربية تزيد في دخله [2].

ومما زاد في تعقيد الأمور،أن فئات كثيرة في المجتمع المغربي أصبحت مؤهلة للسقوط في فخ الحماية ، الأمر الذى شغل السلطان محمد بن عبد الرحمن ،خاصة بعد النتائج السلبية التي لحقت بالمخزن ، وشعر السلطان بالخطأ في اصدار هذا الحق للأوربيين . وفعلا شرع في التفكير في مفاوضة الأوربيين ، واعتمد على الوزير البريطاني " هاى " ،كما فكر في اصدار مرسوم للقناصل يقترح فيه تنظيم وضبط حماية الأشخاص . لكن الحرب الفرنسية الألمانية جعلت المساعي تتعثر ،ولو أن السلطان وجد فيها الفرصة التي لا تعوض ،فحاول الضغط على فرنسا ولكن بدون جدوى [3].

هذه هي العلاقات المغربية الأوربية وأثرها على الأوضاع الداخلية ، بدءا من أحداث ايسلي وانتهاء مع مطلع السبعينات ،وهي الفترة التي شهد المغرب في نهايتها صعود سلطان جديد على كرسي العرش ، وهو السلطان الحسن الأول .

ان فترة حكم هذه الشخصية هي التي ستشغلنا بالبحث ،على أنه يجدر بنا قبل ذلك أن نقف على الأوضاع الداخلية للمغرب ،وقت كان السلطان الحسن ولي عهد أبيه قصد ضبط خلفيات السياسة الداخلية التي سيرثها مولاى الحسن .

---

(1) نفس المصدر ، ص 266 .
(2) خلف التميمي ، ص 122 .
(3) _ *Desfeuilles*; p. 11 .
وكذلك : _*Miege*; Le Maroc, t.III, p 267
—Kerdec; p. 163 .

3 - الظروف الداخلية للمغرب الأقصى :

لعل أبرز ما يمكن تسجيله في ظروف المغرب الأقصى الداخلية لفترة ما قبل حكم الحسن الأول هي الاستجابة أو رد الفعل المترتب عن الخطر الخارجي والتحدي الأوربي .

وكانت محاولات الاصلاح والتجديد والتحديث - التي شرع فيها نظير الواقع في الدولة العثمانية ومصر - تشكل القاعدة لما قام به الحسن الأول في هذا الميدان . واذا جاز لنا أن نقول مسبقا بأن هذه المحاولات فشلت مع تزايد حدة التنافس الذى آل الى الحماية عام 1912م ، فان المهم أن نقف على تطور الاصلاحات لاستخلاص العلة الكامنة وراء فشلها .

ان البحث في أسباب فشل الاصلاحات ، له ما يبرره ، ذلك أن نظرة الى العالم الاسلامي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر من شأنها أن تبرز تلك الصيحات الداعية للاصلاح هنا وهناك ، من المغرب الأقصى الى الهند ، مرورا بتونس ومصر والدولة العثمانية وايران وغيرها . وقد صدرت هذه الصيحات من أصحابها بعد ادراكهم لواقع شعوبهم ولما يحدق بهم من أخطار وفي تلك الظروف التاريخية بالذات . ثم اننا نجد محاولات مماثلة في بلدان كاليابان مثلا . لكن ما يزيدنا الحاحا في استنباط علة الفشل في العالم الاسلامي ، هو أن اليابان استطاعت فرض وجودها مع مطلع القرن العشرين (1) ، فيما آلت حركة التجديد في العالم الاسلامي الى طريق مسدود . فكان الاستعمار هنا وكانت الحماية والانتداب هناك ، وغيرها من أشكال الهيمنة الأوربية قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها .

ان موضوع الاصلاح شائك جدا ويحمل التناقضات العديدة خاصة في العالم

---

(1) استطاعت اليابان مع نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين أن تواجه بأساطيلها ، أساطيل الصين (1894-1895) وروسيا (1904-1905) وتتغلب عليها ، فيما انطلقت في نهاية الخمسينات من القرن 19م ضعيفة متخلفة ، وفي الظروف نفسها التي تحرك فيها العالم الاسلامي .

الاسلامي الذى يملك من المبررات والمقومات ما يفوق به الكثير من الأمم . ولعل أبرز صعوبة واجهها الاصلاح في العالم الاسلامي تكمن في طبيعة التحدى والاستجابة التي تغلبت عليها العاطفة ، وسيطر عليها ركام الأجيال الأخيرة أى منذ سقوط الحضارة الاسلامية . وهكذا فاليقظة الاسلامية التي بدأت في القرن الثامن عشر سرعان ما واجهت عقبات أقوى منها وأقوى مما واجهته غيرها من الدول كاليابان مثلا ، وتعود الأسباب لما تملكه الشعوب الاسلامية من مقومات يخشى الأوربيون من استفاقتها واحيائها ، ولذا كانوا يعملون على قتلها في الشعوب الاسلامية بأساليبهم الخاصة . وفي هذا الاطار يأتي الخطأ المنهجي في الاصلاح الاسلامي المعتمد في نهضته على ما يقدمه له خصمه من مساعدة .

ليس هذا فقط ، فهناك التركة الموروثة عن القرون الأخيرة ، من ذبول في العقيدة وانحطاط في الفكر وتشوه في المفاهيم وما الى ذلك . وهكذا ، لم يعد الفرد المسلم صحيح العقيدة ولكنه كان على ما وجد عليه آباءه ، فلم يعد يفكر ولكن يلوك فكرا ، ولم يعد يسأل أو يفهم بل قابلا لتلقي أى شيء ، ولم تكن له أفكار يتفاعل معها ولكن عادات في التفكير قائمة على التلقي دون مناقشة ، والحفظ دون الفهم كالمريد الذى لا يجرؤ على مناقشة شيخه .

والواقع أنه في هذه الظروف بالذات ، دعا الكثيرون من الرواد الى الاصلاح ، وكانت الدعوة ربما سابقة لعامل التحدى الاوربي ، ولو أن الاصلاح وقتذاك أخذ مفهوما ضيقا ، وتلك هي طبيعة الحركات في بدايتها ، تكون ناقصة ، كما هو الشأن بالنسبة لدعوة محمد بن عبد الوهاب (1) التي اقتصرت على اصلاح العقيدة دون مس الراقع المعاش من السلطة الزمنية في العالم الاسلامي ولو أن ذلك لن ينال من شأن حركته لأن اصلاح العقيدة أساس اصلاح الفرد وتصوره .

---

(1) كانت دعوته اصلاحية دينية سلفية ، قامت كرد فعل على مفاسد المجتمع الاسلامي ، فحاربت البدع وفي مقدمتها الطرقية .

وأخطر ما في اصلاحات القرن التاسع عشر هو نصيب العنصر الأوربي فيها سواء من حيث التحدى المولد للشعور بضرورة الاصلاح ،أو الاقتراحات الاوربية على سلاطين العالم الاسلامي "الغيورين" على بعثه !!

ففي ظل هذه الدعوات نشأت التناقضات حول كيفية الاصلاح ، وماهيته ،وحدوده وطرقه ،ونموذجه . وفي ظل هذه التساؤلات والنداءات ،ضاع الاصلاح والاصلاحات .واستغل الغرب الفرصة للانقضاض على العالم الاسلامي ماديا وفكريا ، محدثا الهوة بين رواد الاصلاح ومفوتا عليهم فرصة كل تقارب وتحاور وتفاهم .

ولابراز ذلك سنحاول من خلال هذا العنصر الوقوف على حقيقة الاصلاح — وتليه عناصر أخرى في الموضوع — من خلال التجربة الاصلاحية وفشلها في المغرب الأقصى .

تعود فكرة الاصلاح في المغرب الى الاربعينات من القرن التاسع عشر(1) . اما مصادرها فتنحصر في عناصر خارجية وأخرى داخلية . أما الاولى فقد أملتها عناصر دبلوماسية وتجار ورحالة(2) ،وأما الثانية — أي الداخلية — فمن تلقاء الاستجابة والشعور بالضعف الذاتي .

فمحمد علي(3) — مثلا — بعث الى السلطان عبد الرحمن كتابا تناول فيه فكرة الاصلاحات العسكرية ،عن طريق قنصل المغرب بجبل طارق . كما وصلت مجهودات محمود الثاني(4) الاصلاحية الى سلطان المغرب من خلال وزيره ابن ادريس وبواسطة

---

(1) هذا في حالة ما اذا استثنينا حركة محمد عبد الوهاب التي وجدت صدى لها في الأوساط المغربية والمخزنية ،وفي عهد محمد بن عبد الله بالذات .

(2) -Abdallah Laroui; <u>Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain (1830-1912)</u>; Paris, 1977, p. 255.

(3) والي مصر ثم حاكمها بين 1805و1849، قامت في عهده اصلاحات الدولة .

(4) — <u>Laroui</u>, p. 272 .

قنصل بريطانيا " هـاى " . وقد كان للقنصل الأخير دور بارزفي هذا المـيدان حيث سيصبح ،ليس ممثلا لبريطانيا فحسب ولكن وزيرا للاصلاح - ان صح التعبير - لـدى سلطان المغرب .

لم تكن اذن حرب " ايسلي " تقـف وحدها وراء مـحاولات الاصلاح ولكنها جاءت لتدعمها ،ذلك أن الأصوات الداعـية لتحديث الجـيش المغربي سبقت المعركة نفسهـا . وكان من بين المـنادين بها ، شهود العيان الذين ساهموا في المـقاومة ضد الفرنسيين في الجزائر ،والذين رأوا من واجـبهم لفت انـتباه سلطان المغرب لما يحدق به من أخطار . ولعل كـتاب ابن عزوز (1) يأتي في هذا المـقام .

ثم هناك عـناصر أخرى ممـتهنة في الجـيش جاءت الى المغرب من بلدان اسلامية كمحـمـد خوجة (2) ، الذى قدم بدوره كـتابا في تنظيم الجـيش ،وكـتاب آخر لمحمـد الكردودى (3) ، بعنوان " كشف الغمـة ببـيان حرب النظام حق على هذه الأمة " ، وقد كتب الأخير كـما يفهم من عنوانه بعد حادثة ايسلي التي اعـتبرت كارثة وعارا حل بالمغرب ،مما حـدا بالكردودى الى الدعوة الى ضرورة وضع حد للحالة الناشئة (4) .

لم يكن السلطان عـبد الرحمن مـقتنعا بضرورة الاصلاح ،ومع ذلك ترك الفرصة لابنه

---

(1) كان ابن عزوز قد شارك في التصدى للحملة الفرنسية الأولى على قسنطينة عام 1836م ، ثم انتقل الى المغرب في مـطلع الاربعينات .انتقد الجيش المغربي من ناحية التنظيم ،وكـتب كتابا بعث به الى السلطان عبد الرحمن يدعوه فيه الى ضرورة تهيئة الجيش للتصدى للفرنسيين ، وكانت الرسالة التي تقع في 11 صفحة بعنوان : " رسالة العبد الضعيف الى السلطان الشريف ". توفي ابن عزوز عام 1849 . أنظر :
- المنوني ، ص 15-16 .

(2) ضابط تونسي ،سافر الى تركيا ومـصر .وعمل كقائد في جيش السلطان عبد الرحمن . يعد كتابه مـلخصا لكتب تتناول فن العسكـر بالعربية والتركية . أنظر :
-Laroui; p. 275

(3) توفي عام 1851 ،وهو محمد بن عبد القادر بن احمد الكلالي الشهير بالكردودى . أنظر :المـنونـي ، ص 13-14 .
-Laroui; pp. 277-278 : وكذلك . 13-14 (4) نفـس المـصدر ، ص

محمد لتجربة العناصر الأولى للجيش المغربي المنظم . ولم تكن العناصر المخزنية بدورها تناصر فكرة الاصلاح لانعدام خبرتها وربما لقلة وعيها . وكان لذلك أثره على السلطان الذي تخلى عن الفكرة والتجربة معا ، وعرف الجيش بأنه ((عناصر المقاتلين الذين تقدمهم لنا القبائل في حالة ما اذا هاجمنا العدو .)) (1)

وقد جاءت حرب تطوان واعتلاء السلطان محمد للعرش المغربي لتعيدا الفكرة الى الوجود ويعطيانها نفسا جديدا لكون السلطان محمد نفسه أكثر اقتناعا من والده وأكثر تجربة في ميدان الاصلاح العسكري ، فضلا عن دخول عوامل جديدة من أهمها الدعوة المنتشرة في أوساط العلماء والفقهاء الذين اجتمع بهم السلطان وأشعرهم بالمسؤولية (2) . ومع هذا فقد كانت النتائج من الناحية الواقعية معاكسة للاصلاح فالسلطان الجديد لم يعد له نفس الاقدام والحماس الذي كان عليه وقت ولايته للعهد لأن السلطان اصطدم بالواقع ، فالتعويضات المفروضة على المغرب من طرف الدول الاوربية - اثر حرب تطوان مثلا - قللت من الاعتمادات المالية التي تفرضها الأصلاحات . كما أن حرب تطوان الخاسرة ، خلقت جوا من التوتر في أوساط القبائل الثائرة . ولم تعد الفرصة مواتية للاقناع وتوفير الجو للقيام بالاصلاحات .

ومهما يكن من أمر ، فقد تواصلت الضغوط الخارجية وازداد حماس القنصل البريطاني " هاي " الذي أصبح " صديقا كبيرا " للمخزن والسلطان . وكان رأيه يتلخص في أن مصائب المغرب كلها وادعاءات الاوربيين يمكن التخلص منها عن طريق الاصلاح واصلاح الادارة بالدرجة الاولى (3) . وراح يقدم ثلاثة مشاريع ومخططات للاصلاح في أقل من عشر سنوات (1864 ، 1868 و 1873) .

---

(1) ابن زيدان ، اتحاف ، ص 215 .
وكذلك : Laroui; p. 278 -
(2) حضر اللقاء عشرة علماء وقواد المدن وأعضاء من الأسرة الحاكمة ، وأساتذة من القرويين .
(3) Laroui; p. 255 -

وقعت السلطة المركزية وعلى رأسها السلطان ،بين نارين ، فكان عليها أن تواجه الأخطار الخارجية الناجمة عن التنافس ،وكذا مواجهة العصبية القبلية والطرقية [1] ،الأمر الذى زاد في حاجة المخزن الى تكوين جيش نظامي لتفادى كوارث جديدة ودعم الحملات الموجهة لاخضاع وتأديب القبائل الثائرة .

وكانت مهام السلطان متشعبة ، فهو رئيس السلطة التنفيذية ومطالب بالمحافظة على النظام والسهر على الادارة وحسن تسيير أملاك العروشية وصيانة الحكم الموروث [2]. وكان تعيينه لقواد المدن والقبائل استجابة لهذه الاغراض فضلا عن جباية الضرائب وهو ما جعل السلطة المركزية تقوم على نظام القواد [3].

ولم يكن نفوذ السلطان ممارسا على كامل التراب المغربي بنفس الفعالية ،لذا فاننا نجد مناطق يطلق عليها اسم " بلاد المخزن " ، وتشتمل على السهول والهضاب التابعة للمخزن وممرات الجبال الواصلة بوجدة وتافيلالت ومناطق المدن ذات النشاط التجارى [4]. وما تبقى من ذلك – اى المناطق الجبلية على الخصوص – فيطلق عليها اسم " بلاد السايبة " ،وهي المناطق التي ترفض قبائلها الامتثال للسلطة المركزية ،الأمر الذى يعني عدم تقديم الضرائب التي تعد دخلا هاما للخزينة. على أنه ليس لهذه المناطق الأخيرة حدود مستقرة لأنها تتعلق بقوة وقدرة السلطان على اخضاعها ومد نفوذه اليها . وهذا التقسيم المذكور لا يمنع من التبادل التجارى والتردد على الأسواق التابعة للمخزن ،وذكر اسم السلطان في خطبة الجمعة ، بل وأكثر من هذا ، فان قبائل " البلاد السائبة " تقدم أحيانا اعانات مالية ووحدات

---

(1) محمد عابد الجابرى : " الأصالة والتحديث في المغرب ،تطور النخبة المفكرة في المغرب الاقصى خلال القرن 19 والنصف الاول من القرن 20 " ،الثقافة ،العدد 77 ،السنة 13 ،سبتمبر – اكتوبر 1983 ،ص 58 .

(2) Ayache; *Le Maroc*; p. 45

(3) نفس المصدر ،ص 45 .

(4) نفس المصدر ، ص 47 .

مسلحة للسلطان في حالة تهديد استقلال البلاد من قوة خارجية (1) .

لم يكن السلطان يخشى تمرد القبائل والتنكر لسلطته الدنيوية قدر خشيته من المنافسين له في ميدان السلطة الروحية التي يتزعمها عادة الأشراف والزوايا والطرق الصوفية نظرا لما تملكه هذه التشكيلات من تأثير على القبائل نفسها · ومع هذا فلم تشكل سلطة الطرق خطرا على السلطة الزمنية والروحية في عهد الأسرة العلوية الّا في حالات ضعف المخزن (2) ، وقد حدث ذلك في عهد السلطان محمد بن عبد الرحمن لما بدا للعيان ضعف المخزن في التصدى للخطر الاسباني في حرب تطوان الخلرة (3) .

لم ينج المخزن نفسه من التناقضات والانقسامات وتباين وجهات النظر في عهد السلطان محمد · وقد نشأ في جو التفكير في الاصلاحات اتجاهان متعارضان :

الأول : يناصر الاصلاحات الادارية والاقتصادية ، واما الثاني : فعلى النقيض منه ، يرى بأن أى تغيير من شأنه أن يزلزل التركيبة الاجتماعية التقليدية للمجتمع المغربي ، كما أنه يرى بأن جل المصائب التي حلت بالمغرب أساسها الامتيازات والتسامح مع الاوربيين ، لذا فان أصحاب هذا الاتجاه الأخير يحلمون بقطع الصلة ثانية بالعنصر الاوربي (4) .

وقد كان للاتجاهين امتدادات في العائلات المخزنية الكبيرة · ولهذه العائلات ارتباطات مصلحية في تغلب أحد الطرفين على الآخر · ويذكر " ميج " أن الاتجاه " التقدمي " - كما يسميه - " الاصلاحي " (5) ، لم يكن متعاطفا مع الأوربيين ، ولكنه

---

(1) نفس المصدر ، ص 48 · وكذلك :
— Weisgerber; Au seuil du Maroc moderne; Rabat, 1947, p. 39

(2) - Dragua; p. 108·

(3) نفس المصدر ، ص 108·

(4) —Miege; Le Maroc; t. III, p. 109·

(5) ان ما يسميه (Miege) " بالتقدمي " نسميه نحن " اصلاحي " ·

اتجـاه مـنفعي يهدف الى الحـصول على امـتيازات (1) داخل الجهاز المـخزني . وقد انعكس التـنافس على السلطان نفسه الذى كان مـتذبذبا في مـناصرة أحد الاتجاهين .

لكنه مهما قيل عن السـلطان مـحمد في مـيدان الاصلاح ، فانه حقق بعض النـتائـج ولو كانت ضئيلـة في مـيادين مـختلفة . فالى جانب اعـتنائه بالجـيـش من تدريـب وتسليـح ، أنشأ مدرسة للطبجـية (2) ، كما أنشأ وزارة خاصة وعلى رأسها وزيـر البحر ، وتعد الأولى من نوعها في المغرب . وكان الغرض من انشائها خوض المـفاوضات مع ممـثلي الدول الأوربيـة (3) . ولذا كان وزير البحر يقـيم في طنجـة مـقر البعثات الدبلومـاسية وقناصل الدول .

كمـا أنشأ المـطبعة المـحمدية التي كان لها الفضل في نشر كـثير من الكتب (4) ، فيمـا كان اعـتقاد بعض العلمـاء أن ((الانشغال بالعلوم العصرية كـفر وخروج عن الايمـان .)) (5) .

كان الاقتصاد في المغرب قائمـا على الزراعـة والحـياة الرعوية (تربية المواشي) ، والصناعة الحرفية والنشاط التجارى (6) . وقد عمـل السلطان على احداث غراسة قصب السكر بجـنوب المغرب ، ثم دعمها بتأسيس معمـل للسكر .

امـا الصناعة الحرفية فقد اقتصرت على ورشات محدودة ذات الانتاج والاستعمال العادى (كالطرز والزرابي وغيرها . . .) ، الى جانب الصناعات التجارية التي تتم في ورشات

---

(1) - Miege; <u>Le Maroc</u>; t. III, pp. 108–109.
(2) الفاسي ، <u>الحركـات</u> ، ص 86 .
(3) - Ayache; <u>Le Maroc</u>, p. 46 .
(4) الفاسـي ، <u>الحركـات</u> ، ص 86 .
(5) ابن عـبود ، <u>تاريـخ</u> ، ص 77 .
(6) - Ayache; <u>Le Maroc</u>, p. 45.

أكبر ، ويتم الانتاج فيها بالاستعانة بمجموعة من الحرفيين ،وهي تابعة لأشخاص (كالجلود والمعادن ،والخشب ،ومواد البناء ، والمواد الغذائية ،والملابس ... وغيرها) . ويسوق الانتاج عن طريق التجار الصغار أو كبار التجار فيما يفضل البعض الانتاج والبيع في نفس المحل . ويقوم هؤلاء التجار والمنتجون بتنظيم اتحادات يرأسها " أمين " ويراقبها " المحتسب " (1) .

عرف هذا الجانب من الانتاج الاقتصادي تضررا منذ عهد السلطان محمد ، بسبب مزاحمته من طرف البضائع الاوربية ،وهي البضائع التي كانت لا تصنع الآ بعد معرفة اهتمامات السكان ، ونقل عينات - مما ينتجه المغاربة - الى أوربا من طرف تجار خاصين يصنعون وفقها وبكميات هائلة لتغرق بها أسواق المغرب وتباع بأثمان أرخص فضلا عن الجودة والاتقان (2) .

وفي هذه الفترة بالذات بدأت التجارة تعرف نشاطا واسعا في المغرب على الرغم من صعوبة المواصلات وبطئها وتكاليفها .

ومما يلاحظ أيضا ،أن أسواق المدن والأرياف الداخلية حافظت على نشاطها بالرغم من زيادة النشاط التجاري البحري وازدهار التجارة في المدن الساحلية (3) ، لما عرفه النشاط البحري والساحلي من تحسن ،ولكن على حساب تجارة الصحراء التي بدأت تعرف تضررا مع زيادة منافستها من طرف التجارة البحرية وتطور المواصلات البحرية (4) .وسرعان ما انعكس الوضع الجديد على النشاط الداخلي سلبا ،وكان له أثره على الحياة الاجتماعية لأن ازدهار المدن الساحلية ساهم في ارتقاء الميسورين من الاثرياء على حساب المدن

---

(1) Brignon; p. 305.
(2) نفس المصدر، ص 305 .
(3) نفس المصدر، ص 305 .
(4) Miege; Le Maroc, p. 22.

الداخلية ،وانفتح بذلك باب الهجرة نحو السواحل ،وامتد الى أوساط الفلاحين والفقراء تحت ضغط القحط والأزمات . فكان اثرياء المدن العتيقة يبعثون مساعديهم أو ينتقلون للاستقرار واقامة متاجرهم في مدن ساحلية ،كالدار البيضاء وطنجة خاصة ، لأسباب تعود أساسا الى تواجد التجار الأوربيين ، الذين أصبح عددهم في تزايد مستمر، بخلاف مدن أخرى كالرباط وتطوان والصويرة التي يقل فيها العنصر الأوربي (1) .

وما دمنا بصدد الأوضاع الداخلية ،لابد من الاشارة الى أن نفوذ السلطان أو الأسرة الحاكمة ذات الجذور الشعبية الشريفية ، والطبيعة المعقدة للروابط التي تجمع مختلف جهات البلاد بالسلطة المركزية ،وكذا شدة التقاليد الموروثة ،وفطنة المخزن في الاستجابة لمختلف الفئات الاجتماعية ،كل ذلك من شانه ان خلق جوا ملوءه التعقيدات والتناقضات (2) ،وهو الجو الذى خابت في ظله محاولات الاصلاح . فضلا عن تدخل الاجنبي الذى يهمه دفع البلاد نحو " الاصلاح " ، ثم المساهمة بطريقة أو بأخرى في افشاله قصد افراغ الجهاز المخزني من محتواه في نظر العامة ، لتبرير تدخله فيما بعد .

ويهمنا هنا أن نقدم رأى السلطان محمد في الاصلاح المقترح عليه من الدول الأوربية في آخر مشروع قدم له عام 1873م : ((ان رعيتي ... لا تتلاءم والسلطة التي تنشدونها .)) (3) وفي السنة الأخيرة من حكمه عبر عن تفطنه لنوايا الأوربيين وأهدافهم المرجوة من وراء الاصلاح ،حين صرح لممثل فرنسا " *Tissot* " : ((لقد أصبحت تركيا ومصر ،بعد الاصلاحات أكثر غنى ولكنها أقل استقلالا .)) (4) .

---

(1) . 312 p. ; *Brignon* -

(2) . 235 p. ; "Hassan Ier..." ; J. A., - Julien et Autres

(3) . 256 p. ; *Laroui* -

(4) نفس المصدر ، ص 256 — 257 .

— اذا كان السلطان قد أصاب في قضية الاستقلال فانه لم يصب في قضية الغنى ،ولو عمر سنوات قليلة لوقف بنفسه على غنى مصر الذى أوقعها في فخ الحماية البريطانية .

ففي ظل هذه الاوضاع والمشاكل التي يرجع بعضها الى عهود سابقة وأخرى الى ما نجم من الأوضاع الطارئة عشية حكم مولاى الحسن [1] ، تسلم الأخير الحكم في المغرب الأقصى .

فكيف تفاعل السلطان الجديد مع التطورات المستجدة في المغرب ، ومع محيطه العام والخاص ؟ أى مع جهازه المخزني قبل كل شيء الذى يقف أمام معضلة التجديد والاصلاح في جو التقاليد الموروثة كما سلف ؟ وكيف يوفق السلطان الحسن بين هذه وتلك ، وبين دول اوربية ذات منطق خاص . وهو المنطق القاضي بوجوب التقدم أو بمواجهة الاستعمار الحتمي ؟

انه التقدم الذى يوجب في نظر هذه الدول " الاصلاحات " التي تستوجب بدورها الاستعانة بالعنصر الاوربي صاحب الخبرة في هذا الميدان ، الامر الذى يمهد البلاد ويروض شعبها على تقبل الخضوع للاجنبي .

هذه التساؤلات وغيرها هي التي سنحاول أن نجيب عليها من خلال الفصول الثلاثة اللاحقة. لكن قبل ذلك ، يجدر بنا أن نخص سلطان هذه الفترة (1873ـ 1894) ، بنبذة عن حياته قبل تسلمه الحكم وذلك لضرورة تفرضها مكوناته الشخصية التي سيكون لها أثر على تصرفاته ومواقفه . اما سيرته بعد 1873 فلا نخصها بالدراسة ، ومع هذا فيمكن قراءتها في طيات سياسته الداخلية والخارجية ودوره في الأحداث منذ أن جلس على كرسي العرش المغربي الى أن لفظ أنفاسه عام 1894م .

---

(1) عبد الله كنون ، مدخل الى تاريخ المغرب ، ط 3 ، تطوان ، 1958 ، ص 122ـ123 .

4 — أوليات شخصية الحسن الأول :

ولد الحسن بن محمد بن عبد الرحمن بن هشام عام 1247 هـ ، حسبما ذكر ابن زيدان ، الذى يضيف ، أنه وجد تاريخ ميلاد الحسن مقيدا بخط قاضي الجماعة العلامة الثبت ابي العباس احمد بن الطالب بن سودة (1) .

ويبدو أن هناك اختلافا كبيرا حول تاريخ ولادته بالسنوات الميلادية ، فيذهب البعض الى أنه ولد عام 1836م وحتى عام 1843م (2) . لكن المرجح أنه ولد عام 1831م .

ينتمي الحسن الأول من حيث النسب القريب الى الأسرة العلوية ، فيما ينتهي نسبه البعيد الى الجد الخامس والثلاثين وهو علي بن ابي طالب (3) .

نشأ الحسن الاول في حجر جده عبد الرحمن ، الذى اعتنى بتربيته منذ حداثته . فكان يختار له الأساتذة . ومكث بدار خاله العربي الجامعي لاكتساب المعرفة ، وبقي هناك

---

(1) الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة ، الرباط ، 1937 ، ص 9 .

(2) للمزيد من المعلومات عن الترجمة لشخصه ، انظر :

— ابن زيدان ، اتحاف ، ج 2 .

وكذلك : - Miege; Le Maroc, t. III et IV.

- H. Terrasse; Histoire du Maroc, t. II, Casablanca, 1950, pp. 331-340.
- Julien et Autres; "Hassan Ier. ", J. A., pp. 236-237;
- B. Meakin; The Moorish empire, A historical epitome, London, 1899.
- C. F. Goss; "Moulay Hassan", In Nine tenth century.

(3)

أما عن اضافة " الأول " لاسمه فكونه اول حسن في الأسرة العلوية ، بينما يحمل رقم الثالث اذا ما ذهبنا بعيدا ، أى ابتداء من الحسن بن علي . لذلك فان بعض المصادر تسميه الحسن الثالث . أنظر مثلا : — Meakin.

مدة مع كبراء السن من الخدم الذين لهم دراية بسير عظماء الملوك ، فكانوا يحدثونه عنهم (1).

ولما شب وجهه جده الى زاوية دار الشمعة ببلاد أحمر — بين مراكش ومدينة صافي — حيث تلقى دروسه بصرامة عن رجال الدين (2) ، ثم انتقل الى جامعة فاس ودرس كغيره من اخوته ، اسماعيل وعرفة والرشيد (أكبر اخوته الستة) (3) .

كان الحسن شغوفا بتحصيل العلوم الدينية والأدبية والرياضية ، ولوعا بلقاء العلماء على العموم وأهل العلوم الرياضية على الخصوص (4) . ومن العلوم التي نبغ فيها الأدب العربي الذى راح يوظفه في المطالعة وشرح الكتب الدينية (5) .

واعتنى به والده السلطان محمد بعد وفاة جده عبد الرحمن (1859) ، واهتم بتعليمه .

وقد امتاز الحسن — فضلا عن عناصر الشخصية المعنوية — بعناصر جسدية مميزة . فهو سليم البنية ،أسمر البشرة ، ذو نظرة ثاقبة ،هادئ ووقور ، مما أكسبه هيبة الى جانب مميزات أخرى كالتقوى والتواضع وحسن التنكيت (6) .

كان أول زواج للحسن ، بابنة عمه العباس في مراكش عام 1868م . فأقام له والده محمد أفراحا دامت سبعة أيام في حدائق زينت بالزرابي ، وأكرم خلالها المستضعفين من الأرامل والأيتام والفقراء (7) .

---

(1) ابن زيدان ، اتحاف ، ص 116 .

(2) -Caille; La petite, p. 87.

(3) -Miege; Le Maroc, t. III, p. 197.

وكذلك : -Julien et Autres, "Hassan Ier ", J. A., pp. 236-237

(4) ابن زيدان ،اتحاف ، ص116 .

(5) -Caille; La petite, p. 87.

(6) - Julien et Autres; "Hassan Ier", J. A., p. 237.

(7) ابن زيدان ،اتحاف ،ص 120-124 .

ولما كان الحسن يمتاز بالصفات السالفة ، فقد أولاه والده - الذى كان يحبه - عناية خاصة ، فكان يعلمه ما يجعله قادرا على ولاية عهده . فرشح بذلك منذ السنوات الأولى للحكم بعد والده (1) .

وكان السلطان محمد يستخلف الحسن ويلقي عليه مهماته (2) ، كاستخلافه له عام 1280 هـ عند رحيله من مراكش تجاه الغرب ، قصد تفقد أحوال الرعية - قبل بداية حكم الحسن بعشر سنوات - فأظهر الكفاءة ، من حسن التدبير والقيام بأعباء الادارة (3) .

وجرت له اتصالات كثيرة بالقناصل والتجار الاوربيين (4) . كما أقحمه والده في ميدان الاصلاح ، باشراكه في المشاريع الاقتصادية الاولى ، كبناء مصنع القطن ، ومصنع السكر وطاحونة مائية ... وغيرها (5) .

وقد مرنه والده على الحملات العسكرية ، فقاد الكثير منها . وكانت أولاها تلك التي جهزها له عام 1278 هـ ، فاختار له أعيان الدولة ومهرتها من السياسيين والعلماء وقادة الجيش المحنكين ، ووجهه الى قبائل متمردة كثيرة .

كما قاد حملة أخرى عام 1280 هـ نحو السوس ، وكانت أطول الحملات ، حيث دامت عشرة أشهر . وهناك أيضا حملتان قادهما الى تادلا والشاوية . الأولى عام 1283 هـ ، والثانية عام 1289 هـ ، ودامت الأخيرة ستة أشهر ، وهي آخر حملات ولاية عهده ، قبل

---

(1) ابن زيدان ، اتحاف ، ص 116-117 .
(2) الناصري ، جـ 9 ، ص 128 .
(3) ابن زيدان ، اتحاف ، ص 118 .
(4) -*Julien et Autres; "Hassan Ier"; J. A., pp.* 236-237 .
(5) نفس المصدر ، ص 236-237 .

سنة واحدة من أخذه الحكم (1) .

وكان في هذه الحملات كلها يقوم باخضاع القبائل الثائرة ضد المخزن ويعود بواجب بيت المال المفروض عليها . وأظهر الحسن في هذه الحملات من السياسة والدهاء الشيء الكثير (2) .

وما ان حلت سنة 1873م حتى اكتمل نضج شخصية الحسن ، الذى تجاوز الاربعين من عمره ،وأصبح يملك القدرة العلمية والخبرة السياسية والادارية والعسكرية فتوفرت فيه ،بذلك شروط الامامة (3) .

وعشية يوم الخميس 11 سبتمبر من سنة 1873م (الموافق لـ18 رجب 1290 هـ) ، توفي السلطان محمد بن عبد الرحمن (4) . وكان الحسن بـ"أبي ريقي" من بلاد "حاحا" – بضواحي مدينة الصويرة – يقود جيش السوس لما وصله خبر وفاة والده من طرف "سي موسى" (5) . وكان الاخير يطلب منه أن يقترب بجيشه من مراكش .

أما في مراكش نفسها فقد كتم "سي موسى" الخبر واجتمع في القصر بكبار الأشراف والمرابطين ،وشرح لهم ظروف الوفاة ، ودعاهم الى الهتاف بحياة الحسن (6) ،فهتف البعض وامتنع البعض الآخر ، كتعبير عن معارضتهم للحسن ،لكنهم عادوا فاستسلموا للأمر

---

(1) ابن زيدان ، اتحاف ،ص 117–121 .

(2) نفس المصدر،ص 117–121 .

(3) الناصري ،ج 9 ، ص 128 .

وكذلك : - Caille, La petite, p. 87

-Julien; et Autres; "Hassan Ier", J. A., pp. 236–237

-Miege; Le Maroc; t. III, p. 199

(4) ابن زيدان ،الدرر ،ص 97 .

وكذلك : -H. Basset; "Un grand Sultan marocain: Moulay el-Hassan", Revue l'armée d'afrique, n° 36, 4eme année, Juin 1927, pp. 205-206.

(5) هو حاجب السلطان محمد .

(6) J. Erckmann; "Maladie de l'Empereur du Maroc", N.R., t. 49, Novembre-Décembre 1887, pp. 182-183.

الواقع لما رأوا بأن أبواب القصر محروسة من مسلحين . وأمضوا عقدا قدم لهم، اعترفوا فيه للحسن بسلطانه على مراكش والسوس وتافيلالت ، ثم خطبت الصلاة في جميع مساجد المدينة باسمه (1) .

وما ان اطلع الحسن على خبر الوفاة حتى جمع كبار محلته وقوادها ، وقرأ عليهم وزيره أبو عبد الله غرنيط النبأ ، فأظهروا الأسف للوفاة . ولكن سرعان ما تحول الحزن الى فرح ، فبايعوا الحسن . وتم التعبير عن فرحة المحلة ككل بطلقات من المدفعية (2) .

وفي 20 سبتمبر 1873م (الموافق لـ 27 رجب 1290 هـ) وصل الحسن الى مراكش فخرج للقائه الوزراء والقضاة والأشراف والقواد والأعيان وغيرهم ، معزين ومهنئين في نفس الوقت (3) . وما ان جلس الحسن على كرسي العرش حتى بدأت ترد عليه الوفود والبيعات والهدايا . فما كان منه الا أن فتح بيوت الأموال وجاد عليهم بالعطاء (4) .

ومما ورد عليه أيضا قصائد في التعازي والتهاني ، اخترنا منها أبياتا من قصيدة مطولة للفقيه الأديب العربي بن علي المشرفي (5) :

وإن غاب نجم لاح في الأفق بعده ∴ ببرج سعيد نجم سعد به يمن

∴ ∴ ∴ ∴ ∴

---

(1) نفس المصدر ، ص 182-183 .
لم يذكر ابن زيدان هذه الحادثة واكتفى بذكر اجتماع الشرفاء والقواد للمذاكرة في مبايعة من يقوم بأمر المسلمين — اتحاف ، ص 123 .

(2) ابن زيدان ، اتحاف ، ص 125 .

(3) الناصري ، ج 9 ، ص 128 .

(4) ابن زيدان ، اتحاف ، ص 125 .
وكذلك : -Basset; "Un grand Sultan", Revue A. A., p. 206

(5) ابن زيدان ، اتحاف ، ص 127 .
— هو العربي بن علي بن عبد القادر الحسني الغريسي ، هاجر من الجزائر الى المغرب الأقصى مفضلا المنفى على الاقامة تحت حكم الفرنسيين . وفي المغرب تقرب من الاسرة الحاكمة والسلطان الحسن الاول على الخصوص الذي خصه بديوان مدح . كما رافقه في جولاته داخل البلاد . تولى تعليم الاطفال ، وله عدة مؤلفات . انظر :
— ابو القاسم سعد الله " مؤلفات المشرفي المعاصر للامير عبد القادر " ، الثقافة ، عدد خاص ==

أنخشى وفينا من نوم خليفة ∴ هو الحسن المرضي والنجل والابن
اذا خر ركن الملك فهو يعيده ∴ ويحميه حتى لا يطغو به وهن

وقد وصلت بعد أيام قليلة عقود البيعة من نواح كثيرة ، كطنجة وتطوان والرحامنة وكذلك من بعض أقربائه كعمه العباس(1) .

ان الاقبال على مبايعة الحسن في الأوساط القبلية والرسمية من الأشراف ورجال المخزن والنواحي ، لم يمنع من احتمال مناهضة البعض الآخر له والوقوف في وجهه ، واعلان التمرد عليه في بعض النواحي ، كما هي العادة عند مبايعة سلطان جديد .

وكانت أسباب احتمالات التمرد كثيرة . فهناك اخوة الحسن السبعة ، وانقسام النواحي حول مناصرة ابناء السلطان محمد المتوفى . كما ان الدول الاوربية لم تكن تتفق على وريث عرش المغرب . بالاضافة الى بعض العائلات الشريفية المنافسة للأسرة العلوية الحاكمة ، ثم القبائل التي وجدت الفرصة مواتية للتمرد عن دفع الضرائب .

وهكذا ، اذن ، كان السلطان الحسن يقف أمام صعوبات عديدة ، تأتي في مقدمتها تعميم البيعة والاعتراف بسلطته . فكان على المخزن أن يستعد للنهب المتوقع على الأسواق ، والتمردات في شتى النواحي ، والقلاقل ، مما دفع المخزن الى اتخاذ اجراءات صارمة ضد عناصرها .

وحتى السواحل ، كانت تثير قلق المخزن مع ظهور سفن حربية اسبانية وفرنسية وايطالية وبرتغالية في ميناء طنجة . وكانت هذه الدول تدعي بأن سلامة وأمن مواطنيها في المغرب أصبحت مهددة نتيجة الفوضى . فقطعت الطرق بين طنجة وباقي نواحي المغرب(2) . لكن شدة تنافس الدول وتخوفها من بعضها البعض جعل الأمر لفائدة

** بالذكرى المئوية لوفاة الامير عبد القادر ، السنة 13 ، عدد 75 ماي — جوان 1983 ، ص 75—86 .

(1) ابن زيدان ، اتحاف ، ص 124—127 .

(2) Miege; Le Maroc, t. III, pp. 197—198 -

المغرب ،لأن اقتسام المغرب لم يكن متوقعا ، بل التنافس كان حول السباق على السيطرة الكاملة لأحد الدول على المغرب .

ومادام الأمر كذلك فيهمنا العودة الى الأوضاع الداخلية لنعرف منها كيف تمكن الحسن من تصفية خصومه ومنافسيه ، ثم بسط نفوذه على كامل التراب المغربي .

لم يواجه الحسن صعوبات كبيرة تذكر في الاسرة العلوية نفسها ، اللهم الآ من جانب اسماعيل ، ثاني أكبر اخوته ، لما وقف بجانبه أهل فاس ومكناس[1] . أما عمه العباس — وهو صهره أيضا — فقد اعترف به منذ البداية . وكذلك الاسر المنافسة للأسرة العلوية وفي مقدمتها الأشراف الوزانيون[2] ،وعلى رأسهم الشريف الحاج عبد السلام الوزاني الذى أيد السلطان الحسن[3] .

انحصرت المعارضة في الجزء الشمالي من المغرب الأقصى . ولما تم أمر البيعة في مراكش بعد الاستقرار بها مدة تزيد عن الشهر ،عزم السلطان على اخضاع الجزء الشمالي بالقوة . فانطلق يوم 4 رمضان عام1290 هـ ،متظاهرا بالتجول في اقطار البلاد والنظر في أحوال الرعية[4] .

وتوجه نحو السواحل الغربية ، فأخضع في طريقه بعض قبائل منطقة " آزمور " ، وأعاد الأمن الى قبائل " بني حسن " ، ثم قصد مكناس التي دخلها دون صعوبة كبيرة ، ثم انتهى به الأمر الى فاس .

وكان الفاسيون قد اعترفوا بسلطة الحسن منذ الوهلة الأولى ، وكتبت البيعة يوم الاثنين 29 رجب 1290 هـ ، وفق العادة المقررة ،بمسجد الجنود من طرف الأشراف

---

(1) نفس المصدر ، ص 197—198 .
(2) ينحدرون من جد واحد مع العلويين وهو محمد بن القاسم وهو الجد الخامس عشر للسلطان الحسن .
(3) -Linares; "Maladie"; La N. R., pp. 180—183.
(4) ابن زيدان ،اتحاف ، ص 130 .

والعلماء والأعيان والقواد والرؤساء بحضور الخليفة مولاى اسماعيل ، أخي الحسن ، ومولاى ادريس بن عبد الهادى وعبد القادر ، عم الحسن . وقد أدت حادثة الدباغين — المتعلقة بعدم الوفاء بشرط اشترطه الدباغون في عقد البيعة — أدت الى قلب الأوضاع في فاس والتشكيك في أمر البيعة ، والتمرد على السلطان . وانتهى الأمر بتطريق المدينة بعد أن أغلق المتمردون الأبواب في وجه السلطان . لكن السلطان استطاع في النهاية أن يقتحم المدينة وتمت له بذلك البيعة في فاس[1] . ومع ذلك فلم يستتب الأمن الكامل للسلطان الا في خريف 1874م .

ولم تعد شخصية السلطان بعد هذا التاريخ في حاجة الى تعريف ، لأنها ستتمثل بعد ذلك في مواقفه في الحكم وبناء الدولة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا بين 1873م و 1894م .

---

(1) نفس المصدر ، ص 126 .
وكذلك : p. 237 -Julien et Autres; "Hassan Ier", J.A.,

الفصل الثاني

أجهزة الحكم

1 — الجهاز المخزني .

2 — السياسة المخزنية .

3 — الجهاز الاقليمي .

4 — الاصلاح الاداري .

5 — الجيش واصلاحه .

1 ـ الجـهاز المـخزنـي :

يكاد المؤرخون الذين كتبوا عن المغرب الاقصى في القرن التاسع عشر يجمعون على أن تأخره يعود الى النظم القديمة التي ورثها عن " القرون الوسطى " والتي لم تعد قادرة على مسايرة الأوضاع والتطورات التي شهدها العالم، موجهين بذلك أصابع الاتهام بطريقة غير مباشرة الى النظم التي عرفتها الحضارة الاسلامية في عصورها الزاهية .

لكننا نختلف مع هؤلاء سواء منهم الذين حكموا بذلك عن قصد ، من ذوي الميول الاستعمارية، أو عن غير قصد ، كالتبع لهم، الناقلين عنهم بأمانة وعن غير وعي .

ان الدارس لأنظمة الحكم للدولة الاسلامية الأولى والمقارن لها بالأنظمة المنتمية للعالم الاسلامي في القرن 19، يكتشف أنه شتان بين هذه وتلك ، لأن نظام الحكم في المغرب الاقصى لم يرث منها سوى بعض الأسماء أو الأطر لا غير . ومع التدقيق يكتشف أيضا أن العجز لا يرجع سببه الى تطبيق النظم الاسلامية الأولى بقدر ما كان في عدم تطبيقها على أكمل وجه .

اننا نتفق مع أولئك وهؤلاء في عدم فعالية أجهزة الحكم في المغرب وفي الفترة التي تعنينا بالذات ، وهم في ذلك لم يأتوا بجديد ، لكننا نعارضهم في قضية انتمائها الى النظم الاسلامية . ولا نبالغ اذا قلنا بأن الدراسة المقارنة ساقتنا الى تشبيه النظام، الى حد ما ، بنظم الحكم في اوربا على العموم ، والنظام الملكي في فرنسا على الخصوص ، قبيل الثورة الفرنسية ، أي عندما لم تعد كثير من أجهزة النظام الملكي ناجعة .

ومهما يكن فاننا لا نجد اطارا لهذه التهمة سوى في اشكالية الصراع الحضاري ، وتبرير التنافس بغية فرض الحماية على المغرب ، وبعبارة أخرى فان النقد الموجه لم يكن بناء بقدر ما كان الهدف منه التهديم والتشكيك ... وما الى ذلك .

ومن الموضوعية أن نقول بأن حكم السلطان الحسن الأول ما هو الا صورة مصغرة

وصادقة عن تخلف وانحطاط العالم الاسلامي ككل بدءا بالسلاطين وانتهاء بأفراد القبيلة . كما كانت سلطتهم صورة واضحة تبرز انحرافهم عن الجادة وعن حكم خلفاء وسلاطين العهد الاسلامي الأول .

لم يكن هؤلاء في نظرنا في مستوى الحضارة الاسلامية انما كانوا يعيشون على فتاتها ، وهنا تكمن علة التخلف . ويأتي عدم القدرة على التصدى للنزعة الاستعمارية والتوسع الاوربي في هذا الاطار أيضا . والاّ فكيف يمكن تفسير صرخة رائد النهضة الاسلامية ، جمال الدين الافغاني ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ـ الداعية الى الثورة على سلاطين العالم الاسلامي ؟ ـ تلك الصخرة المستوحاة من اقتناعه بتخلفهم في حكم بلدانهم واثبات عجزهم وتخاذلهم في التصدى لأوربا الغازية .

لكن هيهات أن تجد الصخرة صدى لها وتجاوبا معها . وليس هذا بغريب ، ففي الأثر ((كيفما كنتم يولى عليكم .)) وكانت حالة الناس والحكام مصداقا لقول المتنبي :

لقد أسمعت لو ناديت حيا ∴ ولكن لا حياة لمن تنادى

ولابراز الجوانب التي أشرنا اليها سنحاول في هذا الفصل تناول مختلف المؤسسات التي كان نظام الحكم في المغرب الأقصى قائما عليها في ظل حكم السلطان الحسن الأول .

كان الحسن الأول مصدر السلطة السياسية والادارية للمخزن (1) المغربي في عهده ، وعليه تتوقف حل المسائل . لكننا نجد الى جانبه مجموعة من الموظفين يقومون بمساعدته

---

(1) المخزن في الاصطلاح المغربي يعني موظفي الحكومة من الصدر الأعظم الى أبسط عامل في القصر السلطاني .

ـ أنظر ، عبد الحميد بنشنهو ، النظام الاداري بالمغرب ، ط 4 ، الرباط ، 1963 ، ص24

_ *Morin-Barde Mireille*; Le Maroc etincellant, Paris, 1969, p 76.

_ *Arnaud*, pp. 19-52.

كل في مجال معين ممثلين ما اصطلح على تسميته بالجهاز المخزني أو المخزن (1) .

عمل الحسن الأول على المحافظة على موظفي الجهاز المخزني لعهد أبيه محمد بن عبد الرحمن (2) . وقد اختير الموظفون أو الوزراء خصيصا ليفوض السلطان لهم بعض مهامه ، دون ان يتنازل لهم عن حقه في اتخاذ القرارات النهائية (3) .

وهكذا فان الوظيفة الرئيسية للوزراء كانت تتمثل في مساعدتهم للسلطان و تقديم النصائح واستشارتهم في المهام التي هم أكثر اتصالا بها منه ، وبعبارة أخرى فهم لم يكونوا سوى كتاب مكلفين بالسهر على المراسلات و تطبيق الشؤون الأخرى المنوطة بهم (4) .

و يمكن تقسيم كبار الموظفين لعهد الحسن الأول الى قسمين :

القسم الأول أولئك الذين يتبعون البلاط أو القصر .

والقسم الثاني يشتمل فيما يعرف بالجهاز الحكومي .

فالقسم التابع للقصر نعني به الحجابة (5) وقيادة المشور (6) . وأما الجهاز الحكومي فيشتمل على الصدارة العظمى (7) ووزير البحر وأمين الأمناء وكاتب الشكايات ووزير الدفاع (8) .

---

(1) -A.M.G. 3 H 6 Fez , le 2/03/1892 .

(2) H. de la Martiniere; "Le règne de Moulay Hassan", Revue des Deux Mondes, LXIV, 4eme période, t. 125 Septembre. 1894, p. 399.

(3) - Lahbabi, p. 4 4 .

(4) نفس المصدر ، ص 32 و 135 .

(5) أي شؤون القصر الداخلية .

_ أنظر : الوثائق (3) ، 493 .

(6) تعود اليه مهمة حراسة القصر و تدبير شؤونه بصفة عامة .

_ أنظر : -H. Terrasse; Histoire du Maroc des origines à l'etablissement du protectorat français; t. II, p. 332.

وكذلك : محمد محيي الدين المشرفي ، الجديد في تاريخ المغرب ، طنجة ، 1956 ، ص 141 _ 142

(7) أي شؤون الدولة الخارجة عن القصر . أنظر : الوثائق (3) ، 493 .

(8) A.M.G. ; 3H 6 Fez le 2/03/1892

- Ayache; Le Maroc, p. 46

وقد تحولت الوزارة التي يشتمل عليها الجهاز الحكومي أو المخزن في عهد الحسن الأول الى شكل ديوان حكومي ، فتأسست ((الخارجية والعدل والحربية والمالية وغيرها . وكانت قبل ذلك بيد كتاب يرجعون الى الصدر الأعظم الذى لم يكن هو الآخر سوى مساعد للسلطان .)) (1)

والحاجب (2) بمنزلة كاتب السلطان ومستشاره السرى . كما أنه كان عينا للسلطان يخبره بما يحدث خارج القصر ويساعده في تبليغ الأوامر للوزراء ، كما يلبي طلباته ليلا ونهارا (3) . وباختصار فهو المكلف بالشؤون الداخلية للقصر (4) . وقد شغل " با أحمد " (5) منصب حاجب منذ وفاة والد الأخير في بداية عام 1879م (1296 هـ) . ويلي الحاجب قائد المشور . واذا كان لهذا الأخير مرتبة وزير فلم تكن المهام الملقاة على عاتقه حكومية بمعنى

- *Lahbabi*, p. 137 ==

- ابنشنهو ، ص 27 .

(1) الفاسي ، الحركات ، ص 86 .

(2) سمي كذلك لأنه يحجب السلطان عن الرعية التي يمنعها من المثول بين يديه بحجة حفظ النظام . - انظر : ابنشنهو ، ص 25-26 .

(3) يرعى ايضا الخاتم السلطاني . أنظر : A.M.G. 3 H 6 Fez, le 2/03/1892

(4) كان أول من يصل الى البلاط في الصباح الباكر وآخر من يغادره باذن من السلطان ، أما في حالة تنقل السلطان خارج القصر ، فيسير الحاجب على بعد خطوات من ورائه :

- A. M. G. 3 H 6 Fez, le 2/03/1892.

(5) أو الأب أحمد ، وهو ابن سي موسى بن احمد الصدر الأعظم - في عهد السلطان محمد - وهو من أم يهودية من أصل اسباني . نشأ الى جانب الحسن وقت كان الأخير ولي عهد أبيه ، ثم أصبح صديقه الملازم له في كل حين . وقد لعب " با احمد " دورا بارزا خاصة في عهد السلطان عبد العزيز حين اصبح هو الحاكم الفعلي للمغرب طيلة سبع سنوات . وتوفي حوالي سنة 1900 في قصر الباهية . أنظر :

-Jerôme Tharaud; et Jean Tharaud; Les milles et un jour de l'Islam, S.L., 1950, pp. 257-260.

-Arnaud; p. 2.

- الوثائق (3) ، ص 493 .

- J. L. Miege; Une mission française à Marrakech en 1882, S.L., 1968, p. 317.

الكلمة ولكنه كان قائد الرسميات (1) في البلاط . فهو الذى يقدم السفراء الأجانب (2) للسلطان وكذلك الوفود المغربية الواردة على القصر في مواسم الأعياد وغيرها ... ومن مهامه أيضا القاء القبض ـ بأمر من السلطان ـ على الأشخاص المتورطين في المسائل السياسية والقضايا الادارية . كما يقوم بتبليغ الرسائل الصادرة والواردة على السلطان ، ولمساعدون خاصون في هذا الشأن وهم الرقاصون (3) . وقد شغل منصب قائد المشور في عهد السلطان الحسن الاول كل من الحاج محمد بن عيش وادريس بن علام (4) .

(5) ولعل المنصب الوحيد الذى له اسم وزير بمعنى الكلمة ـ حسبما تذكر بعض الوثائق ـ هو منصب الصدارة العظمى ، أو صدر الوزراء أو الأعظم في أغلب الأحيان (6) .

كان الصدر الأعظم يلتقي بالسلطان مرتين في اليوم ، فيتشاور معه في قضايا البلاد . ويصدر أوامره للموظفين المكلفين بالشؤون الخارجية والعدل والحربية وغيرها . فهو رئيس الديوان

---

(1) كان لقائد المشور أعوان هم بمثابة أصحاب الشرطة . ويقوم هؤلاء بتبليغ أوامر السلطان ورسائله المتعلقة بالاستدعاءات الخاصة بالولائم وحفلات العيد واحياء ليلة السابع والعشرين من رمضان والمولد النبوى وغيرها . ومن مهامهم ايضا تأديب من استحق ذلك في القصر ، والقاء القبض على المجرمين والزج بهم في السجون . انظر :
ـ ابن زيدان ، العز والصولة ، ج 1 ، ص 133 .

(2) هناك فرقة الجوق الخاصة باستقبال السفراء ، وتتكون من أربعة وعشرين عضوا منهم 6 بواقين 5 عازفين على " الاوفكليد " ، 6 عازفين على الترددة ، و 4 على الناى ، 1 على الطبل وغيرهم . انظر : - *Miege; Une mission*, pp. 311—312

(3) هم بمثابة موزعي البريد .

(4) — A.M.G.,3 H6 Fez le 2/03/1892 .
— *Lahbabi*, p. 137.
— *Miege; Le Maroc*, t. III, p. 200.
— *Caille*, *La petite*, p. 93

(5) الوثائق (3) ، ص 493

(6) كان الصدر الأعظم مكلفا بشؤون المخزن الخارجة عن القصر ، ومهامه تشبه الى حد كبير مهام وزير الداخلية اليوم . أنظر :
ـ الوثائق (3) ، ص 493 .

الحكومي وعضد السلطان الأيمن (1).

وللصدر الأعظم مهمتان رئيسيتان ،احداهما سياسية ،والأخرى ادارية . فمن صلاحياته السياسية ،الاتصال بالعامة والقبائل لحملها على المشاركة العسكرية في حالة خطر خارجي أو داخلي . وفي هذا الشأن يقوم بتوجيه رسائل الى مختلف المدن والقبائل ، ويراسل العامة في مجمل الشؤون التي تربطهم بالمخزن (2).

واما من الناحية الادارية ،فكان يكلف بتنصيب الاداريين كالقواد والمحتسبين والقضاة وكذلك الكتاب والمدرسين بالقرويين وغيرهم . ثم مراسلة هؤلاء من ناحية ثانية واطلاعهم على مختلف قرارات السلطان ويطلب منهم تقديم تقارير عن مهامهم واداراتهم (3).

وفي عهد الحسن الأول وقع تقسيم اداري جديد استبدلت بمقتضاه الثماني عشرة مقاطعة التابعة للصدر الأعظم بثلاثمائة وثلاثين " دائرة " ، على رأس كل منها قائد مخزني ،الأمر الذي زاد في تضخيم المهام الادارية للصدر ،ولذلك قسم بدوره الوزارة على كاتبين ، كلفهما بالاتصال بالادارات المستحدثة . لذا نجد كاتبا خاصا بشمال البلاد وآخر بجنوبها ، يساعدهما مجموعة أخرى من الموظفين تبلغ نحو الثلاثين (4) . كما أصبح الصدر الأعظم مكلفا بتحضير الظهائر التي تبعث الى خلفاء وقواد السلطان بالمقاطعات (5).

وكان أول من شغل وظيفة الصدر للسلطان ، أبو عمران موسى بن أحمد ،والد "با أحمد "

---

(1) A. M. G. 3H 6 Fez le 2/03/1892.
(2) -<u>Lahbabi</u>, p. 144.
(3) <u>نفس المصدر</u> ،ص 144.
(4) <u>نفس المصدر</u> ، ص 145-146. وكذلك :
<u>المنوني</u> ،ص 30 .
(5) -<u>Lahbabi</u>; p. 146.

وكان الحسن يعتمد عليه في كثير من شؤونه، من ذلك أن مهمته كانت ثنائية يجمع فيها بين الحجابة والصدارة في آن واحد، وذلك الى وفاته عام 1879م كما سبق، ثم فصل أبو عمران السنصبين. وقد خلفه في الصدارة محمد بن العربي الجامعي (1). الذى أصبح يشترك مع حاجب السلطان "با أحمد" المحرك الرئيسي للمخزن (2). وظل محمد بن العربي كذلك الى أن أصيب بشلل فخلفه كاتبه محمد بن محمد بن أحمد الصنهاجي دون التمتع بمنصب الصدارة. ولما توفي محمد بن العربي عام 1309 هـ خلفه أخوه المعطي الجامعي (3).

أصبح المخزن تحت تأثير عائلة الجامعي منذ وفاة سي موسى بن أحمد (4)، ذلك أنه كان على رأس وزارة الحرب شخص آخر من العائلة وهو محمد الصغير الجامعي. أما الوزارة نفسها - وزارة الحرب - فكانت قد أحدثت لأول مرة في عهد السلطان محمد بن عبد الرحمن (5).

---

(1) هو ابن خال السلطان الحسن الأول، ظل يشغل منصب الصدارة الى أن أصيب بشلل.
- أنظر: ابن زيدان، العز والصولة، ج 1، ص 291.
- وكذلك: -Miege; Le Maroc, t. IV, p. 93

(2) — Ludovi-de Campou; Un empire qui croule, le Maroc contemporain, Paris, 1886, p. 2.

(3) - A. M. G. 3 H 6 Fez 2/03/1892
- الناصري، ج 9، ص 165.
- ابن زيدان، العز والصولة، ج 1، ص 291.
_ Caille; La petite, p. 92.
_ Julien et Autres; "Hassan Ier"; J. A., pp. 239-240.

(4) الوثائق (3)، 409.

(5) عبد الحق السريني، الجيش المغربي عبر التاريخ، بدون مكان الطبع، بدون تاريخ، ص 81.
_ Miege; Le Maroc; t. IV, p. 93 .
_ Lahbabi, p. 137.

وكان وزير الحرب يعرف أيضا بكبير العسكر أو كبير المحلاف[1]. وتتلخص مهامه في القيام بأعباء الجيش من تسمية قواده، ومعرفة عدده، ومنح مرتباته، والاعتناء بقوائمه، وبالأسلحة والألبسة. كما أنه كان يتلقى شكاوى من الجنود أو شكاوى ضدهم. وهو الذي كان يتولى ادارة الجيش النظامي وغير النظامي[2].

كان للمالية في عهد الحسن الأول نظام ووزارة خاصة، وهو الذي أولاها عنايته فأصبحت ذات أهمية واضحة. وكان على رأسها "صاحب المال" أو "أمين الأمناء" الذي أخذ لقب وزير المالية منذئذ[3].

كان وزير المالية يشرف على جهاز الأمانة ويطلع على أعمال "الامناء" وأموال المخزن، أي الاشراف على المداخيل والمصاريف العامة للدولة[4]. ويقوم بمساعدته أمناء ثلاثة وهم: أمين الداخل وأمين الخراج وأمين الحسابات.

ويتلقى الأول المداخيل الواردة على السلطان وخزائن الدولة من ضرائب عادية وضرائب مفروضة على القواد، والهدايا وغيرها... وكان القائم بأعمال هذه الأمانة وقتئذ هو الحاج العربي التطواني[5].

والثاني - أي أمين الخراج أو المدفوعات - يشرف على حاجات السلطان وادارته المرافقة له من مرتبات الموظفين وأعوان المخزن والجيش علاوة على المصروفات التي

---

(1) أنظر: المريني، ص 81.
وكذلك: A. M. G. 3H6 Fez le 2/03/1892 —

(2) A. M. G. 3H6 Fez le 2/03/1892 —
— Lahbabi; p. 137.

(3) نفس المصدر، ص 133 و 137.

(4) نعيمة هراج التوزاني، الأمناء بالمغرب في عهد السلطان مولاي الحسن، ج 1، الرباط، د. ت.، ص 26.

(5) A. M. G. 3H6 Fez le 2/03/1892. —

لها علاقة بالسلطان والقصر. وقد شغل هذا المنصب رجل يدعى سي ابن ناصر (1).

أما الأمانة الثالثة والمكلفة باصلاحات القصر ومراقبة الحسابات ومصروفات الملف والصيانة الخاصة بمختلف دواب المخزن ، فكان على رأسها سي العربي الزبدى ثم ابن موسى (2).

وقد أسند الحسن امر وزارة المالية الى السيد محمد بن الحاج محمد التازى الرباطي وذلك في صفر من عام 1296 هـ. (3)

ومن الوزارات التي أولاها السلطان عناية خاصة ، الخارجية المغربية ، التي أدخل عليها اصلاحات جوهرية وأحدث لها وزارة منفردة . وكان وزير الخارجية يعرف بوزير البحر (4) ، وهو مكلف بمراسلة سفراء الدول الأوربية والقيام بالوساطة بينهم وبين السلطان . كما كان يباشر أمر الوافدين على المغرب والنظر في شؤون المحميين وتبادل الرسائل باستمرار مع عمال العمالات في شان دعاوى أهل الحماية وغيرها .

وكان أول وزير للخارجية هو فضول غرنيط وهو ابن الوزير الصدر عندئذ (5). وكان السلطان حريصا على حل الخلافات مع الدول الأوربية في عين المكان – أى في مقر نواب الدول بطنجة – ولهذا فقد أحدث منصب النائب السلطاني ، وهو بمثابة الواسطة بين السلطان من جهة ومختلف المفوضيات الأوربية . على أنه لم يكن

---

(1) A. M. G. 3 H6 Fez le 2/03/1892 .

(2) نفس المصدر .

(3) نفس المصدر . وكذلك : الناصرى ، ج 9 ، ص 166 .

(4) ربطت المسائل البحرية بالأجانب لأن المغرب قبل هذه الفترة وخاصة قبل 1830م لم تكن له علاقات مع القوى الاجنبية سوى عن طريق البحر . أنظر : صبحي ، ص7 . وكذلك : – Lahbabi; pp. 147-148.

(5) – A.M.G. 3H6 Fez le 2/03/1892 .
– المنوني ، ص – Lahbabi; pp. 147-148A

لبركاش (1) ولا لمحمد الطريس (2) _ اللذين تداولا على المنصب _ صلاحيات خاصة (3) . ولكن كان دورهما يتوقف عند حد ارسال طلبات أو شكاوى أو مطالب التعويض أو نقل أوامر السلطان وغيرها (4) .

وكان العدل منوطا بوزير الشكايات أو كاتب الشكايات ، الذى يقوم بعملية الفحص لكل الشكايات والاحتجاجات الواردة على السلطان سواء من القواد أو الضحايا من العامة . ويحضر الحلول التي يعرضها فيما بعد على السلطان بعد تدوينها وتلخيصها (5) . أما السلطان فيعطى المظالم حقها من البحث ثم يأخذ الحق من الظالم أو يلغيها في حالة بطلان دعوى المدعى (6) .

وقد كان الحسن الأول يخصص يومي الثلاثاء والأحد للمظالم ،فيصطف أصحابها أمام باب القصر ثم يقدمون للمثول بين يديه (7) . ويبدو أن هذا الأسلوب ليس قاعدة محترمة لأن السلطان الحسن مشهور بغيابه عن القصر واهتمامه بالحملات (العسكرية) على القبائل اكثر من مكوثه في القصر وسماع المظالم .

---

(1) بقي محمد بركاش يشغل منصب نائب السلطان من 1861 الى 1884 . وفي هذه السنة الأخيرة ساءت حالته الصحية ،لكن مولاى الحسن الاول ،اعترافا منه بجميل خدمته له لم يعين خلفا له الى أن توفي في اكتوبر 1886 ،وعندئذ تم تنصيب سي الطريس . أنظر :
_ *Miège ; Le Maroc, t. IV, p. 93.*

(2) هو الحاج محمد الطريس ،من عائلة مشهورة بتطوان وقد شغل مناصب ادارية عديدة منها ، كاتب بميناء الدار البيضاء ثم عامل على نفس المدينة منذ 1879 ثم خلف بركاش كنائب للسلطان بطنجة .

(3) هناك ظهير للسلطان محمد بن عبد الرحمن يفوض فيه للسيد محمد بركاش بالفصل في القضايا التي تنشأ بين المغاربة والأجانب . انظر: الوثائق (4) ، 553 .

(4) _ A. M. G. 3 H6 Fez le 2/03/ 1892 .
وكذلك : المنوني ،ص 34 . و ابنشنهو ، ص 27 _ 28 .

(5) _ A. M. G. 3H 6 Fez le 2/03/1892 .
وكذلك : ابنشنهو ، ص 29 .

(6) نفس المصدر،ص 29 .

(7) ابن زيدان ،العز والصولة ،ج 1 ،ص 50 .

وكان الشخص الذى يشغل منصب وزير المظالم عندئذ هو علي بن حمو المسفيوى (1) .

هذه اذن ، باختصار مختلف أجهزة السلطة المخزنية ،وقبل الانتقال الى الادارة المحلية يجدر بنا أن نعاين طرق تعامل وتعاون هذه الوزارات مع السلطان من ناحية وفيما بينها من ناحية ثانية وذلك للوقوف على السياسة المخزنية ·

---

(1) كان علي بن حمو المسفيوى معلم الحسن الأول ومؤدبه قبل تولية الأخير الحكم · وقد أقصاه وأمعن في اهانته " با أحمد " عندما استبد بالحكم والادارة · وكان المسفيوى لشدة الخوف منه يحييه بتحية الملوك · أنظر :
- الوثائق (3) ، 466 ·

2 ـ السياسة المخزنية :

يبدو أنه من الصعب الحكم على الطابع السلطوي للمخزن المغربي في عهد الحسن الأول ،لأن الذين كتبوا عن المخزن اختلفوا • فهناك من يرى بأن السلطة كانت قائمة على أساس ديني شريفي ، وممثلة في شخص السلطان صاحب السلطة المطلقة والزعامة الدينية في المغرب الأقصى [1] ،بينما ينفي البعض الآخر أن يكون للمخزن المغربي أي طابع ديني ، مصرحين بأن الحكومة المغربية كانت ذات سلطة دنيوية لا غير [2] • ويذهب البعض الآخر الى أن طابع السياسة الداخلية التي سنها الحسن الأول أصبحت سياسة تقليدية ينحو نحوها الملوك من بعده ، وتهدف الى ((تكوين الدولة المغربية بالمعنى الحديث ، أي تسوية الشعب في الحقوق والواجبات دون تمييز بين دين ودين ،وعنصر وآخر ،والمحافظة على الاستقلال ازاء كل دولة أجنبية مسلمة أو مسيحية •)) [3]

ولعله من الانصاف أن نقول بأن السياسة المتبعة من طرف السلطان كانت هجينا بين هذه وتلك • فهي قائمة على أساس رجال الدين والدنيا وعلى ذوي المنفعة والاشراف وغيرهم • ولعلنا نستشف ذلك كله في السلطان الذي هو مرآة عاكسة لهذا التناقض ، فهو يدين بالولاء لبعض الطرق ويحارب البعض الآخر ، ويزور الأضرحة ، ويفرض الضرائب غير الشرعية ويوزع الأموال على المحتاجين في المناسبات ويقطع رؤوس من يمنعوه الضرائب وغير ذلك مما يوحي بهذه السياسة •

كان السلطان الحسن الأول المحرك الرئيسي للمخزن المغربي ،ينظمه حسب هواه

---

(1) A. M. G. 3 H6 Fez le 2/03/1892 • -

(2) Lahbabi; pp. 139-140 • -

(3) الفاسي ،الحركات ،ص 93 •

يمنح هذا منصب وزير أو صلاحيات أكبر وذاك سلطة أوسع[1]. ثم يتدخل تدخلا سافرا في الشؤون السياسية والادارية ،وحتى في أبسط الجزئيات[2] مديرا بذلك مختلف شؤون المخزن ومعتبرا الوزراء مجرد كتاب بسطاء أو مساعدين[3].

لكن الصلاحيات المطلقة للسلطان لم تمنع من وقوعه تحت تأثير بعض الجهات التي قد تبدو متناقضة ولكنها تعبر عن عدم اتباع سياسة واضحة ولا حكيمة. فهناك تأثير حاجبه " با أحمد " وزوجة السلطان " للارقية " ، وهناك أيضا تأثير الطرق الصوفية اذ تذكر بعض الوثائق في هذا الشأن أن الحسن الأول كان يدين بالولاء لأربع طرق منها على الأقل ، كالطيبية[4] والدرقاوية والناصرية ، والمختارية . ولكن تأثير الدرقاويين كان أشد عليه ،وكان السلطان يفضل هذه الطريقة على غيرها . وقد تلقى " ورد " الطريقة الدرقاوية وقت كان خليفة لوالده محمد بن عبد الرحمن ، وبقي الدرقاويون يقدمون له الهدايا .

واذا كان البعض يرى بأن الصلاحيات الواسعة والمطلقة هي من ايجابيات سياسة الحسن ،لأنها تبين كفاءته وقدرته ، فاننا نعتبرها من السلبيات ،لأن السلطان كغيره يصيب ويخطئ ، هذا في وقت نسجل غياب مجلس للشورى بمعنى الكلمة — في علمنا — يمكن الاعتماد عليه أو الاستعانة به في ميدان تدبير شؤون العامة[5].

وهذا في رأينا كان من الأسباب التي عجلت بدفع البلاد الى الهاوية بمجرد نهاية

---

(1) -*Lahbabi*; p. 132.

(2) - <u>*Kerdec*</u>, p. 134.

(3) - *Caille*; <u>*La petite*</u>, p. 92.

(4) أنظر تعريفا لهذه الطريقة وغيرها ضمن الفصل الثالث ، قسم البيئة الاجتماعية .

(5) اذا ما استثنينا مجلس الفقهاء الذين كان السلطان يلجأ اليه في بعض المسائل المطروحة عليه .

حكمه وخاصة بتسليمه السلطة لشاب لم يكن بعد قد وصل سن الرشد .

والسياسة الفردية التي سلكها الحسن الأول كان لها أسوأ النتائج على المدى القريب والبعيد على المغرب الأقصى ، لأنها جعلت الوزراء قاصرين عن تأدية مهامهم ومقصرين ، ولو عن غير قصد ، بفقدانهم روح المبادرة والمشاركة والتمرن على تدبير شؤون وزاراتهم بأنفسهم وبعبارة واحدة بقاؤهم تحت الوصاية الدائمة . فلم تترك تقاليد مخزنية ، لأن المخزن كان قائما على السلطان شخصيا ، سواء كان ناجحا أو فاشلا ، وهذا ما جعل السلطان يسن سياسة تتسم بطابع الارتجال والفردية . وقد ترك بذلك المؤسسة المخزنية تفتقر الى التقاليد السياسية والادارية الناجعة . وعلاوة على ذلك التنقلات المستمرة للسلطان والتي لم تكن في صالح تادية المهام المخزنية وتصفية المشاكل وحسن تدبير شؤون البلاد ، فضلا عن انها حولت المخزن الى حكومة "متنقلة".

واذن ، فان دور الوزراء لم يكن يتعدى مهمة تهيئة القرارات أو تحضير مشاريع الظهائر للسلطان وتسيير شؤون وزاراتهم في اطار محدود والاكتفاء بتقديم النصح في ميدان تسيير شؤون المخزن (1) .

وما دام الوزراء لا يملكون حق اتخاذ القرارات واصدار ما عرف فيما بعد بالمراسيم ، فهم وزراء للتنفيذ فقط ، وهو ما يترجمه خاتم السلطان ، اذ أن ما يصدره الوزراء يبقى بغير قيمة تذكر ان لم يصادق عليه السلطان بختمه (2) .

وبصدد ذكر الخاتم ، نشير الى أنه كانت له أهمية كبيرة في اصدار الظهائر ذات القيمة المتفاوتة والتي تقسم الى أنواع ثلاثة ، وذلك حسب أنواع الأختام . فهناك الكبير ، ويستعمل في الرسائل والنصوص الصادرة عن الصدر الأعظم ، والمتوسط ، معد للنصوص الصادرة عن وزير الحرب والخارجية فيما عدا المراسلات الخطيرة والتي يستعمل فيها

---

(1) . *Lahbabi*, p. 133 -

(2) نفس المصدر ، ص 134 .

الختم الكبير . وأما الختم الصغير فيستعمل في المراسلات ذات القضايا البسيطة كالرسائل الصادرة عن وزير الشكايات أو وزير الحرب أو غيرهما [1].

ويقوم بمساعدة موظفي المخزن السامين (الوزراء) مجموعة من الكتبة [2] ، يتم تعيينهم من طرف السلطان ، وكذلك مجموعة من المساعدين (أصحاب) مكلفين بايصال أوامر الوزراء الى المعنيين من الهيئات التابعة للوزارات في السلطة المحلية [3].

وكان العلماء من بين من يعتمد عليهم الحسن الأول ، بما لديهم من معارف ، وباشرافهم على مناصب ادارية . وقد تمكن عدد لا بأس به من العلماء من الوصول الى السلطة . وكان هؤلاء العلماء آتين من مدن العلم ، كفاس وتطوان ، والرباط ، وسلا . وكان العلماء يستمدون هيبتهم واحترامهم بما لديهم من وزن في عقد البيعة للسلطان ، وكذلك بما يقدمونه من نصح شرعي وقانوني . فهم بذلك حماة العقيدة ، ولسان حال العلم والوطن [4] . لكن التاريخ - في اعتقادنا - قد سجل لبعضهم سلبيات كبيرة في عهد الحسن ، ذلك أن هؤلاء البعض سكتوا عن قضايا واضحة وضوح الشمس ، وكان السلطان يقدم عليها ، كفرض ضريبة المكس على سبيل المثال لا الحصر ، والمتاجرة في بعض المخدرات . واذا ما كتب بعضهم أيضا عن الأعمال الشنيعة ، كقطع السلطان رؤوس خصومه ، تجدهم يذكرون عبارة " أيده الله " ، فحاشا لله ان يؤيد مثل هذه الأعمال ! !

---

(1) الوثائق (3) ، ص 280 (الصورة) . وكذلك :
- Lahbabi; p. 134.
- Collection dirigé par Larbi Essakabi; Le mémorial du Maroc volume 4:1666-1906: de la grandeur aux intrigues , Rabat, 1983, p. 267.

(2) هناك مصالح يبلغ كتابها الستين وهناك ما يبلغ العشرين فما فوق ، وذلك حسب الأهمية .
- أنظر : المنوني ، ص 30 .

(3) 3 H6 Fez le 2/03/1892 . - A. M. G.

(4) Julien et Autres; "Hassan Ier ", J. A., p. 240.

ومهما كان دور الموظفين، فقد جرى التفكير في ضرورة رفع مستواهم، ولو أن ذلك يعود الى عهد السلطان محمد بن عبد الرحمن، الذى خصص مدرسة للتكوين بفاس، عرفت " بمدرسة دار المخزن "، لتحسين المستوى العلمي للوزراء وكبار الموظفين عموما. ومن بين المواد التي كانت تدرس فيها : الهندسة والجبر والنحو وغيرها... [1].

لقد كانت مدرسة فاس ادارية بمعنى الكلمة، فانطلقت بحوالي أربعين طالبا تم اختيار النجباء منهم بعد التخرج لتوظيفهم كعلافين. ومن بين المستخرجين الجباص الذى أصبح ممثلا للسلطان بطنجة [2].

وكان الموظفون يختارون من فئات متعددة، كالجيش مثلا، ومن العائلات المعروفة بالاخلاص والوفاء للمخزن [3]. وكذلك من الفئة الثرية والمثقفة والتجار. والى نهاية حكم الحسن كان أهل " الغش " في مقدمة الفئات الموظفة [4] علاوة على الاشراف وأساتذة القرويين [5].

وكان للوزراء حق في اختيار مساعديهم لكن بموافقة السلطان. وكثيرا ما كان الاختيار منحصرا في فئتين، فئة الطلبة الذين اكتسبوا شهرة في القرويين، وفئة مساعدى العمال في العمالات [6].

ترى كيف كان يجرى العمل والتعاون داخل الأسرة المخزنية ؟ لقد كان الحاجب والصدر الأعظم أكثر الموظفين اتصالا بالسلطان. أما الوزراء المكلفون بالشؤون

---

(1) -*Lahbabi*; p. 135.

(2) -A., Peretie; "Les Medrasas de Fès"; *Archives Marocaines*, t. XVIII, 1912, p. 284.

(3) ابنشنهو، ص 24.

(4) - *Terrasse*; p. 332-333.

(5) -Basset; "Un grand Sultan", *Revue A. A.*, p. 206.

(6) - *Lahbabi*; p. 139.

الخارجية والعدل والحربية وغيرهم ، فلا يقابلونه سوى بطلب منه عند رغبته في الحصول على معلومات مفصلة أو دقيقة أو اصدار أوامر صارمة في شأن قضية من القضايا (1) .

ويتبع الوزراء السلطان أينما انتقل . وفي حالة اقامته في احدى العواصم الثلاث ـ فاس ، أو مكناس أو مراكش ـ يجتمعون فيما يعرف " بالمشور" (2) حيث يخصص لكل منهم " بنيقة " (3) أو عدة بنيقات ، وتكون عادة قريبة من الحضرة السلطانية (4) . وتقل الغرف أحيانا فيضطر وزيران أو ثلاثة الى الاقامة في نفس الغرفة ، وأحيانا أخرى يضطرون الى الاقامة في رواق أو في سقيفة (5) .

يبدأ عمل الوزير بدعوة مساعديه بفرش حصيرة أو زريبة ، ثم يتربع الوزير بينما يجلس الى جانبه الأيمن الكاتب الأول والى يساره الكاتب الثاني فيما يجلس الباقون كيفما اتفق (6) ، ((والجميع في شغل شاغل مما يصدر لهم من السلطان .)) (7)

وكان الوزراء وكتابهم يلتحقون بأعمالهم مرتين في اليوم (8) . كما يقابل السلطان بعضهم مرتين أيضا كالحاجب و" مول المشور" ، ووزير المالية والصدر ، بينما لا يقابله

---

(1) . A. M. G. 3H 6 Fez le 2/03/1892 ـ

(2) دار المخزن ، وهي مقر اجتماع الوزراء وموظفيهم ، ويشتمل على عدة قاعات . وكان للسلطان بكل مدينة وثغر دار مخزنية ينزل فيها في سفره .

(3) هي الغرفة التي يمارس فيها الوزراء وكتابهم أعمالهم اليومية .

(4) غرفة السلطان المخصصة للاستقبالات .

(5) . A. M. G. 3H 6 Fez le 2/03/1892 ـ

(6) ويوضع أمام الوزير صندوق خشبي به ريشات وأقلام وأوراق ومحبرة وغيرها ... أنظر :
— A. M. G. 3 H6 Fez le 2/03/1892

(7) . A. M. G. 3 H6 Fez le 2/03/1892 —
وكذلك :
ـ المنوني ، ص 30 .

(8) يصل الوزراء الى المقر المخزني على الساعة السادسة صباحا في فصل الصيف ويتأخرون عن هذا في فصل الشتاء ، وتستمر الأعمال الى منتصف النهار . اما في الزوال فيعودون بعد صلاة العصر ولا يغادرون دار المخزن الا عند المغرب .

الباقون سوى في المساء ، على أن هذه القاعدة ليست مطردة [1] .

ولعل الامكانيات البسيطة والمتواضعة التي سلف ذكرها هي التي سهلت على مختلف الموظفين سرعة الحركة والتنقل واتباع السلطان أينما حل . ففي أثناء الحركات أو الحملات (العسكرية) ، يقيم الوزراء في مخيمات قرب السيوان [2] ، وكان الأخير يقام على بعد بضعة أستار من مقر السلطان الرسمي . ويقوم الموظفون بأعمالهم أثناء الحركات في المساء فيما يخصص النهار للسفر والتنقل [3] .

وكان اتصال الوزراء بالسلطان - أثناء اقامته بالعواصم - يتم بعد فراغ الأخير من مراجعة أشغال اليوم الصادرة والواردة وجلوسه على سرير ملكه ، فيقدم له قائد المشور أعماله ثم يرجع لمكتبه ، ويليه الصدر الأعظم فيحمل اليه أوراقه ((ماثلا بين يديه جاثيا على ركبتيه أو واقفا .)) فيطلعه على قضاياه المهمة فيصادق له على ما يراه صوابا ويأذن بامضائه ويلغي ما لم يوافق عليه . ويليه وزير الحرب ثم وزير العدل فالمالية فالخارجية [4] .

وكانت الرسائل تصل الى السلطان عن طريق قائد المشور [5] ، ثم يقوم بمفرده أو بمساعدة الحاجب بالكشف عنها وكذلك الشأن بالنسبة للرسائل التي تسلم له من طرف وزرائه [6] .

وهكذا ، طوال الأسبوع ، ماعدا يوم الخميس ، فلا يعقد فيه المشور ، لأن السلطان يخصصه للراحة مع حريمه وأبنائه في حديقة من حدائق القصر [7] . على

---

(1) . A. M. G. 3H6 Fez le 2/03/1892 —
وكذلك : Kerdec; p. 316 -
(2) مخيم السلطان المخصص للاستقبالات .
(3) . A. M. G. 3H6 Fez le 2/03/1892 _
(4) ابن زيدان ، العز والصولة ، ج 1 ، ص 43-44 .
(5) نفس المصدر ، ص 42-43 .
(6) . Kerdec; p. 137 - (7) نفس المصدر ، ص 139 .

أن هذا النظام ليس معمولا به طوال السنة ،بسبب الطوارئ ،وكم هي كثيرة ،كالاستقبالات الاستثنائية للسفراء الأجانب ،والأعياد الدينية ، وشهر رمضان ، الذى يمدد فيه السلطان العطلة فتدوم شهرا ونصفا ،وكذلك الحملات العسكرية السنوية، والزواج في القصر ، والاستعراضات العسكرية ،والتدرب على المدفعية والزيارات المتعددة للمساجد والمزارات والأضرحة المولوية وغيرها (1) .

ولسنا ندرى ماذا بقي للسلطان من وقت للعمل الادارى المخزني بعد هذا كله؟ ولا كيف تحل مشاكل العامة في ظل حكومة الترحال ؟

ان الجهاز المخزني على ما يبدو لم يكن مهيأ لادارة البلاد ولا كان في المستوى المطلوب ،لذا نجده يقوم بمهمة الاصلاح . وكانت الدول الاوربية تدفعه اليها من الناحية النظرية وتقف في وجهه على أرض الواقع ، بل وتتكالب على المغرب لما بدا لها ضعفه. وأصبح المغرب بذلك رجلا مريضا ثانيا في العالم الاسلامي ، بعد الخلافة العثمانية (2) .

ولقد انعكست مظاهر سلبية عديدة على الجهاز المخزني حيث أصبح عاجزا عن انتهاج سياسة قادرة على وضع حد للضغوط الخارجية، الأمر الذى هيأ الجو للنهب والتخريب من طرف الأجانب (3) ، وتفشت الرشوة حتى في أوساط الوزراء (4) ،لتمتد الى

---

(1) نفس المصدر، ص 140.

(2) أين نحن من النظام الاسلامي في عهوده الاولى " من القرون الوسطى " ـ كما يحلو للبعض تسميتها ـ وفي ظل الحضارة .انها المأساة التي اطلقت صيحة جمال الدين الأفغاني الصادقة . لكن الصيحة لم يكن لها الصدى الكافي،لأن الموجة الاستعمارية الكاسحة زادت في سد الآذان وحجبت الرؤية وأقعدت المستيقظ عن النهوض .

(3) -Ch. A. Julien; <u>Le Maroc face aux impérialismes; 1914-1956;</u> Paris, 1978, p. 34.

(4) كانت مرتبات الوزراء تتراوح بين 250,00 و400 فرنك شهريا ، علاوة على ما كانوا يتلقونه من العلف لدوابهم... كما كانوا يتلقون الهدايا بانتظام من القواد .

القواد وأصبح هؤلاء يأخذون أموال الناس جورا بعد ما دفعوا أموالا كثيرة وقتما كانوا يبحثون عن المناصب ،فيصرفون همتهم في استرجاع ما دفعوه بغصب اموال الشعب وهكذا تضعضعت أسس الدولة (1) .

ولما توفي الحسن الأول عام 1894م ، اتضح أن ما حققه وبناه في الميدان السياسي سينهار بعد فترة وجيزة ، فانه لم يعمل أكثر من اطالة عمر حاله هي في طريق الزوال ،وان ما ظهر للعيان مما حققه ، ما هو في الحقيقة أيضا سوى مظاهر كاذبة (2).

تلك هي اذن حالة المخزن أو الجهاز المركزي ، ترى ما هي حالة الجهاز اللامركزي أو المحلي ؟ ذلك ما سنحاول معالجته قبل التطرق الى الاصلاحات التي أحدثها الحسن الأول في كلا الجهازين ،

---

(1) ابنشنهسو ، ص 24 .

(2) -Michaux- Bellaire; " L'héritage de Moulay Hassan", R.M.M., p. 417.

3 ـ الجهاز الاقليمي :

اذا كان السلطان على رأس الجهاز المركزي ـ كما سلف ـ فهو كذلك بالنسبة للجهاز الاقليمي (1) .

وكان المغرب في عهد الحسن الاول مقسما الى بلاد المخزن ، و بلاد السايبة (2) .

وكانت الادارة الاقليمية تغطي ثلث المغرب الحديث ومنها السهول الغربية ، والعمالات المطلة على البحر وتافيلالت علاوة على مناطق وجدة والحدود الجزائرية الى واحة فنقيق ، أما بلاد السوس فكانت نصف خاضعة للادارة الاقليمية (3) .

وكان على رأس كل منطقة خليفة (4) وهم عادة اخوة السلطان الحسن (5) ، كما في فاس ومراكش وتافيلالت . وغالبا ما كان يقيم مع الخليفة وزير مفوض يشكل مع مجموعة من الموظفين مخزنا صغيرا (6) .

وتأتي العمالة في المرتبة الثانية بعد المنطقة ، وكان على رأسها الباشا ومساعده أو

---

(1) -Ad. F. de Fontpertuis; "Le Maroc ses populations et son organisation intérieure"; La N. R., t. 40, Mai-Juin, 1886, p. 169.

(2) -Laroui; p. 125.

(3) -Comte Paul Vasili; "Le vraie Maroc", La N. R., t. 66, Septembre-Octobre 1890, p. 478.

(4) هو بمثابة القائد العسكري المسير لنحو من 250 الى 300 عسكري ، وهو بذلك بين قائد المائة (100 رجل) وقائد الرحا (وهي فرقة عسكرية تتألف من 500 الى 600 رجل) .
ـ أنظر : -Arnaud; p. 10 .

(5) أهم خلفاء الحسن الاول من اخوته وهم :
ـ مولاى اسماعيل ، وينوب عنه باسم خليفة في فاس عند غياب السلطان ، ويقوم بتأدية الأوامر الواردة اليه . وقد نحي من هذه المهمة في اكتوبر عام 1891 ، وتوفي في جويلية عام 1902 .
ـ مولاى عثمان خليفته في مراكش . ـ مولاى الرشيد في تافيلالت .
ـ أنظر : -Miege; Une mission française, p. 192.

(6) -Lahbabi; pp. 137-138 .

خليفته . وكان الباشاوات عادة على رأس أهم المدن كفاس وقصبة مراكش ، ومكناس والرباط والعرائش وطنجة . وهم مكلفون بحل القضايا الادارية التي هي من اختصاصهم وحمل الناس على دفع الضرائب . أما باقي المدن وبعض القبائل فتخضع للقواد ، وأما البعض الآخر من القبائل فللشيوخ أو المقدمين من رجال الطرق الصوفية . والسلطان هو الذى كان يعين المساعدين لهؤلاء من أمناء وقضاة وعدول وغيرهم (1) .

وهكذا فان للباشا أهمية في الادارة المحلية من حيث اشرافه على المدن الكبرى وهو بمثابة حاكم المدينة . ومن مهامه الاشراف على الشرطة وجمع الضرائب وتلقي الشكاوى والاحتجاجات التي يقوم بالبحث فيها وتقديم الحلول أو احالتها على القاضي أو المخزن حسب طبيعة وأهمية القضايا المطروحة (2) .

وتعد مكافحة الجرائم في المدن من اختصاص الباشا . فهو المشرف على التحقيق والقبض على المجرمين وايداعهم السجون أو جلدهم ، أو تغريمهم مع اعلام المخزن حسبما تذكر الوثائق .

ومن جهة أخرى يقوم الباشا بتنفيذ الأوامر المخزنية ، وتقديم التسهيلات للمخزن من حيث تهيئة الأماكن اللازمة لاقامة الجهاز المخزني عند مروره بالمدينة . وهو الذى كان يشرف على عملية اخلاء البيوت المعدة لهذا الغرض ، وكذلك الشأن بالنسبة للبيوت التي يتم كراؤها من طرف الأجانب (3) . ويساعد الباشا في هذه المهام خليفته ومجموعة من الفرسان والمشاة وغيرهم (4) .

---

(1) A. M. G. 3 H6 Fez le 2/03/1892 . _
_ *Kerdec* ; pp. 138-139 .
_ *Vasili; "Le vraie"*, <u>La N. R.</u>, pp. 480-481.
_ *Basset. "Un grand Sultan"*, <u>Revue A. A.</u>, p. 206.
(2) A. M. G. 3 H6 Fez le 2/03/1892 . _
(3) <u>نفس المصدر</u> .
(4) <u>نفس المصدر</u> .

وتذكر الوثائق أن للسلطان حرية التصرف في الباشوات خاصة عندما يتعلق الأمر بانتزاع نواح تقع تحت سلطة أحدهم وتسليمها لآخر منهم بغية الحدّ من نفوذ الأول، واعادة تقسيم اداري يهدف أيضا الى تقويض سلطة القبائل القوية وتوزيعها على سلطات مختلفة. لذا نلاحظ من جانب الباشوات كثيرا من التجاوزات والتعسف والاستبداد، الأمر الذي أدى الى حل الكثير من القضايا عن طريق دفع الأموال (1).

أما الشخصية الثانية بعد الباشا فهو قاضي المدينة (2). ومهامه تتلخص في اصدار عقود الزواج والطلاق، وحل النزاع بين الأشخاص فيما يتعلق بالأملاك، وتحديد نصيب الورثة، كما يأمر بسجن المتهمين أو المجرمين، ريثما تتم محاكمتهم، وكذلك البت في النزاعات الواردة على الباشا. ويصادق على العقود المعدة من طرف العدول لتصبح سارية المفعول (3).

وكان نفوذ قضاة المدن الكبرى (4) يمتد الى خارجها، فقاضي فاس يصل نفوذه الى وادي النجا (عشرون كيلومترا شرق فاس) حيث يبدأ نفوذ قاضي مكناس (5).

وهناك الى جانب القضاة نواب بالقبائل المجاورة، يختارونهم بأنفسهم وبظهائر سلطانية. ويقوم هؤلاء بالنظر في الرسوم، والفصل بين الخصوم، ما عدا القضايا الهامة فانها ترفع رأسا الى القاضي عند مقابلته مرة في الأسبوع وفي هذا الشأن بالذات (6).

---

(1) -*Vasili*, "*Le Vrai*", N. R., p. 480.
- A. M. G. 3H6 Fez le 2/03/1892.

(2) يعين السلطان من توفرت فيه الشروط ويحرر له ظهيرا بالتولية مع تعيين المحل والمنطقة والقبائل التابعة له. كما يتضمن الظهير تصريح استحقاق الشخص للمنصب كما يأمره بالنظر في الرسوم والفصل بين الناس وفق الشريعة الاسلامية والوقوف في الحكم مع راجح المذهب المالكي وما جرى به العمل. أنظر :
_ ابن زيدان، العز والصولة، ج 2، ص 9.

(3) - A. M. G. 3H6 Fez le 2/03/1892.

(4) أهم قضاة المدن، قاضي فاس وقاضي مكناس وقاضي سلا. أنظر :
ابن زيدان، العز والصولة، ج 2، ص 9.

(5) نفس المصدر، ص 13. (6) نفس المصدر، ص 19.

وكان العلماء والفقهاء - أي علماء القرويين على الخصوص - وحدهم هم الذين لهم الحق في اصدار الفتاوى (1) .

وكان نظام أعمال الاستئناف في الاحكام نوعين : ابتدائي ، لأحكام قضاة البوادي أو صغار المدن - شريطة أن لا يمضي على الحكم أكثر من خمسة وأربعين يوما - ، ونهائي ، لاستئناف أحكام قضاة المدن . وكان للنوع الثاني من الاستئناف مجلسا بالبلاط السلطاني ويتكون من رئيس وأربعة أعضاء وثلاثة نواب وستة كتبة وثلاثة خدم (2) .

وتتفرع عن الشخصيتين البارزتين - الباشا وقاضي المدينة - في نظام الادارة المحلية ، سلطات أخرى أمنية - "كمول الدار" و "مقدم الحومة" ، التابعين للباشا - وقضائية ، كالعدول التابعين للقاضي (3) .

فأما "مول الدار" الذي يقوم بتنصيبه الباشا ، فهو مكلف بمسؤولية شرطة المدينة ، ومكلف بالسهر على النظام والقبض على اللصوص والمخلين بالأمن من خلال القيام بدوريات أثناء الليل ، يساعده في ذلك مدنيون أو قائد رحا المشاة بفرقة دورية (4) .

واذا كان "مول الدار" مسؤولا على أمن المدينة بصورة عامة فان "مقدم الحومة" مكلف بالحراسة العامة للحومة أو الزنقة . وللقيام بهذه المهمة على أحسن ما يرام فان المقدم مطالب بمعرفة أفراد سكان الزنقة لكي يتسنى له معرفة العناصر الأجنبية . كما يقوم بابلاغ القائد بأي مخالفة تقع في حدود زنقته . وبتقديم احتجاجات السكان ، ويجمع

---

(1) . Peretie; "Les Medrasas", A. M., pp. 313-314-

(2) ابن زيدان ، العز والصولة ، ج 2 ، ص 57-58 .

(3) . Fez le 2/03/1892 A. M. G. 3 H6 -

(4) نفس المصدر .

الضرائب ويعين الدور التي من شأنها أن توضع تحت تصرف المخزن أو يتم كراؤهـا للأوربيين. وباختصار، فان المقدم يعلم الباشا بكل صغيرة وكبيرة وقعت في الحومة بما في ذلك الزواج والمواليد الجدد والوفيات وغير ذلك(1).

وأما العدول فيخضعون للقاضي -كما سلف- ومبدئيا فان كل الفقهاء يعتبرون عدولا. والعدل لا يمكنه أن يصبح كذلك -أي رسميا- الا بتعيينه من طرف السلطان لا القاضي(2).

والعدول هم أعوان للقضاة. وتتلخص مهامهم في استقبال وتقييد الشكاوى والاحتجاجات، وتصريحات البيع والشراء والاقتراض. وترد عليهم طلبات الزواج والطلاق وقضايا الارث وغيرها. ومن واجبهم أيضا اجراء تحقيقات وسماع الشهود، وجمع كل المعلومات اللازمة لتقييد القضايا مع تكوين ما جمعوه في سجلات محافظة على حقوق الناس(3).

والعدول، كغيرهم من الموظفين - في عهد الحسن الأول - تساهلوا في مهامهم مخالفين بذلك شروط التوثيق في ميدان الأصول والمبيعات العقارية، مما نتج عنه كثرة التداعي والنزاع، الأمر الذى جعل السلطان يهتم بالمسألة، فأسس لذلك ضابطا عدليا يسير عليه العدول، وبعث به الى القضاة لتطبيقه في جميع نواحيهم، وكان ذلك عام 1299 هـ. ثم أعاد السلطان وضع ضابط عدلي جديد مفصل(4)، مما يوحي بأن العدول تمادوا في اخلالهم بشروط التوثيق.

---

(1) نفس المصدر.

(2) p. 320. - Peretie; "Les Medrasas", A. M.,

(3) - A. M. G. 3H6 Fez le 2/03/2892.

(4) ابن زيدان، العز والصولة، ج 2، ص 45 - 47.

وعلاوة على هذه الوظائف البارزة في السلطة المحلية نجد أصنافا أخرى من المختصين والمكلفين رسميين وغير رسميين [1] . ومن هؤلاء المحتسب المعين من طرف المخزن ، وتتعلق مهمته بمورد هام من موارد المخزن التي تجمع من الأسواق . ويتركز نشاطه على مراقبة السلع والأسعار ، وحمل الباعة على الالتزام بقوانين السوق وتقويمهم ان أخلوا بذلك [2] .

وهناك " أمين المكس " ، ونشاطه في الأسواق كالمحتسب لكن مهمته على العكس من ذلك ، اذ تهدف الى تحقيق دخل من السوق لفائدة المخزن ـ أي جباية الضرائب المفروضة على المواد المتداولة في السوق [3] . فضلا عن القيام بمهام أخرى كجمع كراء البيوت التابعة للمخزن ، والاشراف على ترميمها [4] .

وفيما يتعلق بهذه الضريبة ـ أي ضريبة المكس ـ فان بعض العلماء ظلوا يستنكرونها ، كمحمد بن المدني كنون ، المتوفى عام 1302 هـ ، والبعض الآخر يندد بها كالشيخ أبي اسحاق ابراهيم التادلي ، الذى وصل الى حد الاعراض عن طلب السلطان الحسن الأول في الحضور الى مسجد الرباط بمناسبة ليلة 27 رمضان عام 1302 هـ بحجة أنه ((غير صحيح (كذا) مما يفعلونه من المظالم كالمكس .)) [5] مع العلم أن ضريبة المكس حرمها العلماء والفقهاء . لكن السلطان الحسن لم يستجب لذلك الا بعد فترة متأخرة من حكمه [6] .

وضمن وظائف السلطة المركزية نذكر " ناظر الأحباس " ، وهو المشرف على ايرادات الأملاك التي أوقفها أصحابها على مؤسسات خاصة ، كأملاك الحبوس ، فقد كان يجمع

---

(1) سراج التوزاني ، ص 12 .
(2) نفس المصدر ، ص 13 .
وكذلك : A. M. G. 3 H 6 Fez le 2/03/1892 —
(3) سراج التوزاني ، ص 13 .
(4') A. M. G. 3 H 6 Fez le 2/03/1892 . —
(5) المنوني ، ص 298 . (6) نفس المصدر ، ص 299_301 .

كراء الأراضي والبيوت التابعة للزوايا والمساجد ، كما يسهر على اصلاح وترميم المساجد والبيوت (1)

وأخيرا هناك أمناء المراسي المكلفين بجمع الرسوم الجمركية المدفوعة على السلع المصدرة أو المستوردة (2).

وما دمنا بصدد ذكر هذه التنظيمات على المستوى المحلي ، فلا يفوتنا أن نذكر دور العلماء الذين كانت لهم مكانة معترف لهم بها ، ولو لم يكن يجمعهم تنظيم رسمي بمعنى الكلمة . ومع ذلك نجدهم في حالات النزاع والخلاف الخطير على المستوى القاعدى ، الذى عجزت السلطة عن ايجاد حل له ، وقد كان الخصوم يلجأون الى العلماء ، فيجتمع هؤلاء في جلسة تحكيمية و يبقون في القضية المعروضة عليهم ، ومن النادر أن لا يستجاب لقرارهم (3).

لم يكن التنظيم الادارى في المدن والقرى يختلف عن التنظيم على مستوى القبائل ـ اذا استثنينا منصب الباشا وبعض مناصب حفظ الأمن في المدن ـ فموظفو القبيلة ـ ان صح التعبير ـ نجدهم يتكونون من قائد القبيلة والأمناء ، والقضاة والعدول ، وليس من المفيد أن نعود للتذكير بدور هؤلاء ، بقدر ما يهمنا أن نناقش احدى الظواهر المترتبة عن علاقة المخزن بالرعية على العموم والقبائل غير المخزنية على الخصوص . انها ظاهرة التمرد على السلطة المخزنية الأكثر شيوعا في أوساط هؤلاء بمقارنتهم مع المدن والتي استمرت الى وفاة الحسن الأول . ولابراز ذلك نسوق بعض الأمثلة :

لما توفي الحسن الأول ، جمع " با احمد " الوزراء وقائد المشور وأخبرهم بوفاة

---

(1) Fez le 2/03/1892. — A. M. G. 3 H6

(2) نفس المصدر.

(3) نفس المصدر.

السلطان لكنه طلب منهم الالتزام بالسرية التامة ،بحجة أن القبائل اذا علمت بالنبأ فان ((المحلة ستصير لقمة سائغة۰)) [1] ونفس الاحتمال أثير عند مرض السلطان عام 1887م [2].

يتضح مما سبق أن خضوع القبائل الظاهرى لسلطة المخزن لم يكن دليلا على الثقة المتبادلة بينهما ولا عن نجاعة الحكم ،ومن شأن هذا أن يثير عدة تساؤلات ۰ فاما أن السلطان كان يتعامل معهم بقسوة ، جعلت القبائل تثور ضده أو تتحين الفرصة لذلك ، واما ان هيبة المخزن كانت متوقفة على احترام شخص السلطان فيما تكره حاشيته لجورها في التعامل معهم ۰ يضاف الى ذلك طبيعة أهل البدو (الريف) من حب الثورات وعدم الخضوع المدنى والانتظام الخ ۰ ومهما يكن الأمر فان العلاقة الجائرة لبعض الحكام مع الرعية دفعت الأخيرة الى أن صارت تتعلق بنواب الدول الأجنبية ،لحمايتهم وتعطل بذلك نفوذ هؤلاء الحكام [3].

ولعل المتتبع عن كثب لعلاقة المخزن بالرعية (القبائل) يستخلص نتائج عديدة ۰ فكثيرا ما نقرأ أن دخول السلطان الى المدن أو القرى أو القبائل ،يترتب عليه ازدحام الرجال والنساء والصبية ، فيقبلون يد السلطان وركابه ويضعون ثيابه على أعينهم تبركا به ۰۰۰ واظهار الطاعة والخضوع وكل العبودية مع تقديم الهدايا وطلب المغفرة [4] ۰ هذه المظاهر هي مما لا يدع مجالا للشك في أن ذلك هو من باب الخوف والرعب من بطش جيش السلطان بهم وقهره لهم ۰ كيف لا وهم يعلمون مصير امتناع القبائل عن تأدية الضرائب الذى يصل الى حد تجهيز حملة عسكرية كاملة ، فتقتل بدون شفقة ولا رحمة الى درجة القبض أحيانا على رؤساء القبائل المناهضة

---

(1) - *Kerdec*, p. 140 ۰

(2) - *Linares; " Maladie", La N. R.*, pp. 183–184 ۰

(3) كنون ،مدخل ، ص 123 ۰

(4) الناصرى، ج 9 ، ص 144 ۰

وتقطيع رؤوسهم لتعلق وتعرض على أعمدة ، لتكون عبرة لغيرهم (1) .

كل ذلك لأنهم استنعوا عن تأدية الضرائب وهي المورد الرئيسي للخزينة . وحسبنا أن نعرف ان اثقال كاهل القبائل بالضرائب كان السبب الرئيسي الذى دفعها الى عدم الاعتراف بالسلطة الدنيوية للحسن الأول .

وهناك أسباب أخرى تقف وراء ثورات القبائل وتمرداتهم ، ونعني بها الوعود غير الصادقة - حتى لا أقول الكاذبة ، لأن موقف السلطان من قضية الجهاد معروفة ، وسنعود اليها في حينها - والمتمثلة في أن جمع الضرائب ما هو الآ لغرض التحضير للجهاد في سبيل الله لطرد الكفار (2) ، لكنه اتضح لهم في النهاية أن الكفار يزحفون يوما بعد يوم ويتقدمون للاقامة في واحات الصحراء القريبة من المغرب فيما لا يعلن السلطان الجهاد بل ويهدد القبائل المجاهدة للكفار بالانتقام منها (3) مكتفيا بالاحتجاج . وفي المغرب نفسه ازداد التواجد الأجنبي يوما بعد يوم فيما ازداد فقدان الرعية لثقتها في السلطان (4) .

وهكذا فان تعامل المخزن وعدم صدقه مع الرعية كان له أسوأ الأثر على علاقة الطرفين التي انتهت الى أزمة . وأصبح فرض السلطة يتوقف على الحملات بالغة التكاليف ، والمضرة بالخزينة الأمر الذى دفع المخزن الى الضغط أكثر على القبائل

---

(1) -L. Ordega; "Le Sultan Mulay Hassan, souvenirs personnels", Rev. Politique et Littéraire, n° 24, 4ème Série, t. I, Juin 1894, p. 739.
ورد ذكر هذه التصرفات أيضا في كتاب الاستقصا ، ج 9 ، وكذلك في الاتحاف ، ج 2 .

(2) كان ذلك شائعا خاصة في أوساط قبائل الحدود مع الجزائر .

(3) 6 ربيع الثاني 1294 هـ ، من كبير وزراء السلطان سي موسى الى قبائل العمور وبني غيل وذوى منيع . A. O. M. 30 H 32.
فاتح رجب 1305 هـ . -A.O.M. 30H 34-
_ A. M. G.3 H5, Paris le 7/5/1888
_ A. M. G. 3H 5 Madrid, le 9/4/1888

(4) -Michaux-Bellaire; "L'heritage", R.D.M., pp. 417-418.

الخاضعة ،وهو الضغط الذى دفع القبائل الى الثورة أو التفكير فيها . ومما زاد الطين بلة الضغوط الأوربية التي كانت بدورها مسؤولة على اضعاف المخزن وعلى الركود الذى أصابه من خلال تدخلها في الشؤون الداخلية للمغرب وازدياد التنافس عليه (1).

وهكذا يمكننا أن نقول وبلا مبالغة أن علاقة المخزن بالرعية كانت في أدنى مستوى .لذا فليس من الغريب أبدا أن تفشل الجهود الاصلاحية التي حاولها الحسن الأول اعتقادا منا بأن أية حضارة لا يمكن فرضها من الأعلى ، مع غياب الشعب ، ولو كانت السلطة في مستوى عال من الكفاءة ،ولا يمكن بناء هذه الحضارة أيضا اعتمادا على المساعدة الاجنبية فقط ، لأن الحضارة ثمرة جهود متكاثفة ومنسقة بين سلطة مدبرة وشعب مهيء للاستجابة لهذا التدبير عن قناعة وثقة متبادلة .

ومهما يكن من أمر هذه الاصلاحات فاننا سنحاول الوقوف على جهودها - ناجحة كانت أم فاشلة - لأنها تجربة مغربية قبل كل شيء ، وهي مادة خام ورصيد - للاجيال اللاحقة - ايجابية كانت أم سلبية .

- *Miege; <u>Le Maroc</u>, t. III,* p. 257 (1)

4 _ الاصلاحـات الاداريـــة :

عرف المغرب الأقصى ، قبيل وبعد منتصف القرن التاسع عشر ، تطورات هامة على صعيد العلاقات مع الخارج . وكان لذلك أثره على السياسة الداخلية والخارجية ، مما دفع المخزن الى القيام بمحاولات للتجديد والاصلاح .

واذا كانت هذه الاصلاحات الرسمية قد مست الجهاز الادارى والدفاع والاقتصاد والمواصلات ، فاننا نقتصر منها في هذا الفصل على الاصلاحات الادارية في عهد الحسن الأول (1) .

ما ان استلم الحسن الأول السلطة حتى كان مستعدا للقيام باصلاحات ، أقحمه فيها والده محمد بن عبد الرحمن ، وقت كان وليا للعهد . وكان الحسن يرغب في تحقيق اصلاحات تضمن له الدفاع عن استقلال بلاده (2) .

ولعل هذا الهدف هو الذى كان نقطة البداية للخلاف والرهان بينه وبين الدول الاوربية لتباين الهدف المرجو لكل طرف من وراء الاصلاحات . فالحسن الأول لاحظ أن الاصلاحات في عهد أبيه زادت من نفوذ العنصر الأوربي ، بينما انطلقت الدول الأوربية من تجربتها في كل من مصر وتونس . وهي التجربة التي لا تخرج عن نطاق دفع الدولة في مشاريع يتم فيها صرف الاموال ثم عرض القروض عليها وحمل الحكام على ظلم الرعية لاحداث الشقاق والفوضى وانهاء الثقة المتبادلة ، وعندها يعرض التدخل على أنه ضرورى وفي مصلحة البلد (3) الذى ترغب الدول الاوربية في نقل "الحضارة" اليه .

---

(1) المنوني ، ص ج من المقدمة .

(2) المشرفي ، الجديد ، ص 139_140 .

وكذلك : -Julien; Le Maroc face, pp. 240_241

-Julien et Autres; "Hassan Ier", J. A., p. 241

(3) . -Ayache, Le Maroc, p. 57

وفي اعتقادنا أن المغرب الأقصى يختلف عن تونس ومصر لكون التنافس عليه أكثر تعقيدا ، نظرا لتعدد أطراف النزاع وتحمسها ، مما جعل صراع الدول على المغرب يتحول الى صراع فيما بينها أكثر من صراعها مع المغرب نفسه ،وهو الصراع نفسه الذى انتهى بالتفاهم حول ما عرف بالحفاظ على " الحالة الراهنة " ، أى عدم تغليب نفوذ طرف على الآخر .

وقد عبر "هاى" عن ذلك ـ وقت انسحابه من المغرب ـ اذ قال بأن اهتمامه كان منصبا على الوقوف في وجه فرنسا أو غيرها من الدول في وضع أقدامها على شاطئ المغرب(1) . وكانت سياسة بريطانيا الاصلاحية في المغرب تقوم على الانفتاح والحذر من أجل المحافظة على تفرقها وتحييدها القوى الأجنبية(2) .

وهكذا ، ففي شهرى مارس وافريل من عام 1875 ، وصل قنصل بريطانيا " هاى " الى فاس وقدم للسلطان برنامجه الاصلاحي لعام 1873، الذى لم يتم تطبيقه اثر وفاة السلطان محمد . وكان من جملة ما قدمه ،مسألة اصلاح الهياكل ، لا سيما اعادة التنظيم الادارى(3) .

ظل " هاى " ينبه السلطان الى ضرورة اصلاح المخزن ،طالما ان الادارة هي الشرط الاساسي لأى تجديد أو اصلاح في باقي الميادين . ومما لا شك فيه أن الحكم المطلق للسلطان لم يكن يؤهله للنجاح في السياسة الاصلاحية ،لأنه ليس في مقدوره وحده مجابهة تصاعد المشاكل اليومية المترتبة عن تطور علاقات المغرب مع دول أوربا(4) .

ان مجهودات الحسن الأول التحديثية اكتسبت أهمية خاصة ، فعلى مستوى المخزن

---

(1) -Miege; *Le Maroc*; t. III, pp. 202-205.

(2) نفس المصدر ، ص203 .

(3) نفس المصدر ، ص 216 .

(4) -*Brignon*; p. 318 .

Miege; *Le Maroc*; t. IV, p. 130 .

حددت مهام الوزراء المكلفين بالداخلية والحرب والشكايات والمالية والخارجية وقيادة المشور ، كما أن نشاط أعوان الجهاز المخزني ضبطت بعناية [1] . أما الوزير الصدر فقد ازدادت وزارته أهمية بسبب التغيرات التي طرأت على الادارة المحلية . كما أن فروع مالية الدولة ، كادارة المداخيل والمدفوعات وأمناء الموانئ والمكاسين ، أصبحت كلها تحت امرة وزير المالية [2] . ومع ذلك بقي قيام هذه المؤسسات غير ناجح [3] .

وأما على الصعيد الدبلوماسي ، فقد عمل السلطان على ايجاد نوع من التوازن في علاقاته مع أوربا . ففي مقابل اقامة ممثلي هذه الدول في طنجة ، فكر السلطان في احداث مصلحة للشؤون الخارجية باعتماد وزراء في أهم العواصم ، فاقترح خمس مفوضيات في مدريد وروما وباريس ولندن وبرلين ، لكن قلة الامكانيات جعلته يعرض عن مشروعه [4] .

وفي ميدان اصلاح الادارة المحلية أجهد السلطان نفسه في التقليل من نفوذها وحصر دورها من خلال مضاعفته للحملات العسكرية عبر البلاد ، وقيامه بتقسيم اداري جديد . فاستبدل الثاني عشرة قيادة الكبرى بعدد أكبر بكثير منها ، اذ بلغت حوالي

---

(1) - *Lahbabi*; p.136 .
-*Miege*; *Le Maroc*; *t. IV*, pp. 130_131 .

(2) نفس المصدر ، ص 130_131 .

(3) - *Lahbabi*; p 136 .
-*Miege*; *Le Maroc*; *t. IV*, pp. 130_131 .

(4) كان للحسن على الدوام قنصل في جبل طارق وممثل في القاهرة ، وكان يشغل المنصب الأخير عام 1889م ، حاج عبد الواحد التازى .
_أنظر : -*Miege*; *Le Maroc*; *t. IV*, *p. 130*

وقد بعث السلطان عام 1885م سفراء الى باريس ومدريد ولندن وروما . وفي عام 1888م ارسل سفيرا الى الفاتيكان والى اسبانيا . وفي عام 1889م وجه سفيرا الى باريس وألمانيا وروسيا . وفي عام 1890م الى ايطاليا .

ثلاثمـائة وثلاثين قيادة [1].

ومهمـا قيل عن الاصلاح الادارى فـقد ظل يعاني من صعوبات عديدة فلم تحدث وزارات هامة ،لا سيما في المـيدان الاقتصادى. كما أن الوزارات القائمة لم يكن في وسعهـا احراز تقدم في أساليـب العمـل أمـام استمرار هياكلها القديمـة. فمـصالح " البنيقـة " كانت في مـنتهى البساطة ،وهي خالية من عوامـل الراحة والرفاهية ،كما كانت تفتـقر الى ارشيف مـنظم [2].

ولمـا كانت أجور الموظفين زهيدة فـقد ساعدت على تشجـيع الرشوة التي تتحدث عنها عـشرات الوثائق ،ممـا حال دون الجهود الاصلاحـية. وتنـبه السلطان نفسه الى هـذه الظاهرة وحاول مـكافحتها برفع أجور الموظفين ،كما هو الحال في المواني. وكذلك بتنصيب رقابة مشددة لادارة مـصالح الأمـناء ،ومع ذلك ظلت الاجراءات الجديدة دون النتائج المرجوة منها ، خاصة تجاه الرشوة لأن الزيادات في الأجور أعـقبها انخفاض في العمـلة [3].

وكان لانـخفاض القيمة النقدية أثر سيء على المـالية والخزينة بصفة عامة ،وازدادت الأخيرة سوءا وعرفت البلاد أزمة نقدية ، تبعها انخفاض في مـداخيل المخزن عمـومـا. وأصبح السلطان يفكر في اللجوء الى زيادة رفع الضرائب اعـتمادا على الحملات [4]. وبالفعل فـقد كـثّف الحملات لردع المناهضين وجباية الضرائب بحجة المـحافظة على اقتصاد البلاد. وكانت المداخيل لا يجرى عليها ضبط ولا مراقبة ،وهي موكلة الى أمانة وثقة صاحبها [5]

وقد عمل الحسن الأول على تنظيم الجـباية على طراز عـصرى ،فسن التنظيم المـالي

---

(1) -Miege; Le Maroc; t. IV, p. 132.
- Brignon, p318

(2) -Julien et Autres, "Hassan ,Ier ", J.A., p. 245
- Miege; Le Maroc; t. IV, p. 132. 132
- Brignon; p. 318

(3) نفس المـصدر، ص 318.
— Miege; Le Marac; t. IV, p. 133.

(4) نفس المـصدر، ص 122.

(5) ابنشنهـو ، ص 30.

المعروف بالترتيب . وقد ذكر " السباعي " في " بستانه " أن السلطان أحدث ترتيبا ((ابتداء من ضبط القبائل وما لدى كل بالحساب والتقييد ، بحيث تجرى الوظائف والتكاليف على حسب حال كل ، بحيث لا يبقى حيف ولا سبيل في ذلك للمزيد ، ويحصل ذلك وان لم يدم .)) (1) ولكنه لاقى معارضة فأوقف العمل به (2).

ووقف الحسن بحزم ضد الغاء المكوس من فاس ، فاستمرت الى عام 1886م (3) . وهي السنة نفسها التي طالب فيها التجار الأوربيون بتخفيض رسم السلع المصدرة وتسريح تسويق بعض المنتجات كالحبوب والدواب . ولجأ السلطان الى استفتاء العامة . وكان الناصرى ممن حرروا ردا فقهيا أجاز فيه أن يقوم السلطان بتقديم تسهيلات للأجانب ، رغبة في تنمية النشاط التجارى . وكانت حجته تقوم على أن المغرب كان عاجزا على فرض قوانينه بالقوة ضدهم (4) .

وفي ميدان القضاء حاول الحسن ازالة كل الاسباب التي تتستر الدول الأجنبية من ورائها ، للمطالبة بالاحتفاظ بمحاكمها القنصلية ، فعمد الى تكوين تدريجي للقضاء المدني ، ورأى أن ذلك من شأنه أن يسد في وجوههم باب الذرائع (5) . الا أن المخزن بقي

---

(1) محمد بن ابراهيم السباعي ، كتاب البستان الجامع لكل نوع حسن وفن مستحسن في عد بعض مآثر السلطان مولاى الحسن ، مخطوط بالخزانة العامة تحت رقم 1346 D .
اطلعنا على المخطوط بالخزانة العامة بالرباط عند زيارتنا للمغرب في فبراير 1985م .

(2) المنوني ، ص 94-95 .

(3) ألغيت المكوس بعد اكمال دفع ما ترتب عن المغرب في حربها مع اسبانيا منذ حرب تطوان .

(4) الناصرى ، ج 9 ، ص 184 و192 .
و حركات ، ج 3 ، ص 285 - 286 .

(5) الفاسي ، الحركات ، ص 87 .

يئن تحت سلبيات عديدة ،واستمر يعاني من غياب مؤسسات ملائمة وفي ظل الترحال الأمر الذى أثر على سير الجهود الاصلاحية [1].

ان المتتبع لمحاولات الاصلاح في الميدان الادارى لهذا العهد بالذات يكتشف أن جلها باءت بالفشل ، و يعود ذلك،في اعتقادنا ،الى أسباب موضوعية وأخرى مختلقة ،من ذلك أن الوسائل والكفاءات والتجارب ظلت منعدمة أو على الأقل غير كافية . ثم هنالك عوامل التحفظ من الاجراءات الاصلاحية ، سواء في أوساط الرأى العام غير المهيأ أو بوحي من المعارضة كالموظفين وكبار الملاك والمرابطين الذين كانوا يخشون من عواقب الاصلاحات التي قد تمس مصالحهم الشخصية ،وراحوا يتسترون وراء فكرة مخالفة التجديد للروح الاسلامية [2]. هذا علاوة على التدخل الأجنبي في شؤون المغرب الداخلية .

كان السلطان موافقا على الاصلاح من الناحية النظرية ،ولكنه معارض له في الواقع . فالحسن الأول كان يعز عليه استقلال بلاده وتقاليده أكثر من الفوائد الصناعية والتجارية التي قد تجلبها له الاصلاحات . وكان على يقين من أنها في صالح الغير أكثر مما هي في صالحه .

وهكذا فقد كان تخوف السلطان كبيرا من حيث اتساع عدد المحميين وامتيازاتهم التي قد تمتد الى أشخاص عديمي الذمة [3].

وهذا الوزير " غرنيط " يتفق مع السلطان في تخوفه ،في رسالة وجهها اليه في 26 ديسمبر 1886م مؤكدا - اعتمادا على آراء الوجهاء والأعيان وأشخاص أكفاء - بأن الفوائد المنتظرة من مشاريع الاصلاح هي في مصلحة الأجانب ،وبأن المخزن لا يمكنه

---

(1) Brignon; p. 318 .
(2) نفس المصدر ، ص 319 .
(3) Miège, Le Maroc, T.IV, p.153 .

التجاوب مع الاقتراحات المقدمة طالما أن بنود اتفاقية مدريد لم يتم تطبيقها بعناية [1].

وبهما يكن، فان هناك أدلة أخرى تبرز تناقض السلطان مع رغبته في الاصلاح، اذ في الوقت الذى أمكن تسجيل ارتفاع في المصاريف المتعلقة بشراء الأمتعة من أوربا تماشيا مع الاصلاح [2]، يقدم الحسن الأول على بناء أفخم القصور الموجودة اليوم في المغرب الأقصى. ويكفي لابراز هذه الظاهرة أن نسوق مثالا أو مثالين وردا في الاستقصا يتعلقان ببناء القصور. فقد بنى الدار العالية بفاس وفيها ((قبة فارهة فائقة الحسن بديعة الجمال، يقال انه ضاهى بها بعض قباب المعتمد بن عباد باشبيلية.)) [3] أما بناء الدار الكبرى فقد كان ((بازاء القبة وهي من عجائب الدنيا ... في تنجيدها وتنميقها، وأودعها من النقش العجيب والترخيم البديع والزليج الرفيع المزرى بخمائل الزهر وقطائف الهند وبديع الطوس بحيث جزم كل من رأى ذلك بأن مثله لم يتقدم في دولة من دول المغرب. وجلب لقبابها الأبواب من بلاد الأروام ويقال ان ثمن أحد الأبواب خمسة عشر ألف ريال، مسامره من الفضة المذهبة وعوده من أفضل أنواع العود لا تعرف له قيمة وفيه من التخريم والنقش ما يدهش الفكر ويحير النظر وباقي الأبواب من البلور الصافي المذهب المودع فيه كل نقش غريب، وبها خوخات مركبة بهيئة بديعة كل ذلك قد عمه الذهب النضار الذى يدهش الأبصار، وجلب لذلك من الأثاث الرومي ما قيمته ألوف من الريال، وفيها من الفرش والحائطيات المزخرفة ما لا يدرى ثمنه ولا يعرف معدنه ووطنه، الى غير ذلك من المقاعد الحسنة والمنازل المستحسنة الرائقة الطرف البديعة الصنعة والرصف.)) [4]

---

(1) نفس المصدر، ص 155.

(2) نفس المصدر، ص 122.

(3) الناصرى، ج 9، ص 145.

(4) نفس المصدر، ص 145.

أمـا مـصاريف السلطان ، فـقد قدرها بنفسه بخمـسة عشر مـليون بسيطة فضية ، منها مليون ونصف خاصة بالسلطان وحرسه وثمـانمائة وخمسون ألف بسيطة لأقربائـــه القاطنين بفاس ومراكش والرباط (1) .

هذه الأمـثلة ـ في اعـتقادنا ـ كافية للقول بأن الحسن الأول كان معارضا للاصلاح من الناحية العمـلية ،لأن الاصلاحات كانت في حاجـة مـاسة الى الأموال والى سياسـة تقشفـية . هذا في الوقت الذى كانت فيه الدولة تخضع لضغوط خارجية ، مـالية علـــى الخـصوص ، وتتمـثل فيمـا كانت تطالب به ممـثليات الدول الأجـنبية الأوربية من تعـويضات عن " الأضرار " التي تلحق بمواطنيها في المغرب . فالفرنسيون وحدهم فاقت التعـويضات المـخصصة لهم عام 1887م مـليونا وخمـسمائة وأربعين ألف فرنك ذهبا (2) . وفي عام 1893م ـ اثر حادثة مـليلية ـ دفع السلطان عشرين مـليونا لاسبانيا . وما هذه الآ أمـثلة بسيطة ممـا دفعه السلطان من الأموال الطائلة طوال مدة حكمه لدول أوربيـــة عـديدة ولأسباب مـتنوعة (3) . هذا فيمـا تتحدث الوثائق عن أن الكـثير من هذه التعـويضات مـا هي الآ نتيجـة لادعاءات كاذبة (4) ، وفي المـقابل كان الأجانب فـــي

---

(1) كما كان السلطان يخـصص أربعمائة ألف بسيطة للحاجب وقائد المـشور وسائر المناصب المـخزنية ،ومائتي ألف لاصلاح القصور. أما حسابات البنيقة فكانت بسيطة جدا . أنظر: ـ ابنشنهـو ، ص 30 .

(2) - Miege; Le Maroc, t. IV, p. 122-123.

وهناك العشرات من الوثائق التي تتحدث عن مـثل هذه التعويضات ـ لأسباب مختلفة وأحيان كـثيرة مـختلقة ـ في ارشيف ما وراء البحر A. O. M. بايكس ـ آن فرونانس .

(3) -Michau-Bellaire; "L'héritage", R. D. M., t. IX, p. 146 .

(4) الوثـائق (4) ، و 576 .

المغرب يماطلون في أداء الديون المترتبة عليهم الى المخزن (1) .

ومن الصعوبات التي اعترضت طريق الاصلاحات ،موقف الطرق الصوفية ، اذ وصل الأمر بالبعض منها الى حد الثورة ،كتلك الثورة التي تزعمها الشريف الدرقاوى محمد ابن العربي المدرارى والتي انضم اليها المناهضون للسلطان متهمين اياه بأنه ((باع نفسه للافكار الغربية .)) وقد كان الثوار يعتمدون على دعاية الجامعة الاسلامية واللاجئين من مجاهدى الجزائر وتونس بالجنوب الشرقي من المغرب الأقصى (2) ، وثار بنو مغيل عام 1888م ،وأيدهم الشريف الادريسي مولاى عبد الوهاب والشريف الدرقاوى المدغرى ، متهمين السلطان أيضا بأنه ((خان الاسلام .)) (3)

واذا كان السلطان قد نجح في استمالة بعض الطرق ،فقد كان عليه أن يعمل على تحييد الطرق الموالية لبعض القوى الأوربية ـ كحركة شريف وزان ـ المناهضة لسلطته في آن واحد (4) .

ومهما كانت المعارضة الداخلية للاصلاح ، فانها تبقى ثانوية بالمقارنة مع موقف مختلف القوى الأوربية في هذا المجال بالذات (5) ، حيث يجمع المؤرخون

---

(1) أنظر : الوثائق (3) ، و 453 ،وغيرها كثير .

(2) Miege; Le Maroc, t. IV, pp. 139_140 .

مع العلم أن الطريقة الدرقاوية كانت أكثر الطرق تأثيرا في المغرب .

(3) وكان سي محمد بن العربي الدرقاوى يعمل على اثارة القبائل ضد السلطان ، ذاكرا في احدى رسائله بأنه ((آن الأوان لتخليص المغرب من حكومة تضطهد ، .)) وقد بقي معاديا للسلطان الى أن توفي في مطلع عام 1892م . انظر :

_ Miege, Le Maroc, t. IV, pp. 140-141.

(4) نفس المصدر ، ص 141_142 . وكانت موالية لفرنسا .

(5) Brignon; pp. 319_320 .

الأوربيون أنفسهم على أن علة الاصلاحات تكمن في تدخل الدول الأوربية في شؤون المغرب الداخلية [1].

وتتحدث الوثائق عن الكثير من الممارسات والتعسف للقناصل والمحميين . ومن التصرفات المضرة بالاصلاحات امتناع التجار منهم عن أداء الرسوم المفروضة على السلع ووزنها بالميزان الرسمي [2]، وبيعهم لسلع ممنوعة ، مخالفين بذلك قوانين المخزن [3]، واعتراض القائمين بأعمال المفوضيات عن معاقبة اللصوص منهم [4].

ومن مساعي الأجانب في احداث الفوضى في البلاد ، اغراؤهم للمواطنين المغاربة في الامتناع عن القيام بواجباتهم الوطنية [5]، والتحايل بحماية قوافل المواطنين فرارا من أداء الضرائب [6]، وادخال السلع دون أداء الرسوم الجمركية [7]، علاوة على اغراء المواطنين في الامتناع عن أداء الضرائب [8] ومنح الحماية والجنسية للمواطنين المغاربة بدون حق [9]. الى جانب حمايتهم لليهود وما ترتب عنه من نتائج خطيرة

---

(1) - *Cambon;* p. 92 .
- *Miege; Le Maroc, t.III,* p.265 .
-*Brignon;* pp. 319-320 .
-*Ayache; Le Maroc,* p. 57 59 .

(2) الوثائق (5)، و 652 .

(3) الوثائق (4) ، و 584 .

(4) الوثائق (5) ، و 641 .

(5) الوثائق (4) ، و 592 .

(6) الوثائق (5) ، و 644 و 645 .

(7) الوثائق (4) ، و 518 .

(8) نفس المصدر ، وثيقة رقم 611 .

(9) الوثائق (4) ، و 590 ، و 655 و 674 . وكذلك :
ـ الوثائق (5) ، و 655 و 674 .

في تعاملهم مع الموظفين والمخزن.

وهكذا، فان هذه الممارسات، (وما لم يذكر منها أكثر مما ذكر) كان الهدف من ورائها هو جعل البلاد تعاني من فراغ سياسي يمثل سلطة المخزن، الأمر الذى يدفع السلطان الى المطالبة بالمساعدة المالية، والعسكرية، في مقابل حصول الدول على امتيازات في ميادين شتى مما أدى الى نقل السلطة الحقيقية الى أيدى الدول الأوربية (1).

واذا كان لابد من نتيجة نصل اليها بعد استعراض هذه الاصلاحات في المجالين السياسي والادارى، فان المغرب بقيادة الحسن الأول عرف محاولات لتوطيد نفوذ الدولة في الداخل وحاول قدر الامكان استرجاع هيبة البلاد في نظر الدول الأجنبية، ولكن جهوده لم توفق الآ في كسب الاحترام والتقدير لشخصه، أما بلاده فلم تلق سوى الاحتقار من الدول الأوربية (2)، وأما عامة الشعب فلم تحصد بدورها سوى الاحتقار من طرف الحملات المتتالية للجهاز المخزني. واذا كان المغرب قد حافظ على استقلاله السياسي فهذا يعود - في رأينا - الى المنافسة الشديدة للدول الأوربية عليه، فتلك المنافسة جعلت كل دولة لا تسمح للاخرى باحتلال المغرب الأقصى والاستيلاء عليه وحدها.

ومهما كانت النتائج التي وصلت اليها الاصلاحات الادارية والسياسية في عهد الحسن الأول فانها جديرة بالتسجيل، لأنها اجتهاد قد يكون لأهله عليه

---

(1) Ayache; Le Maroc, p. 59.
(2) صبحي، ص 150.

أجر ولو لم يوفقوا فيما راموا . وكان على الأجيال اللاحقة ان تجتهد أيضا متجنبة أخطاء هذه الفترة لتحقيق الأجرين معا .

- الجيش واصلاحه :

كان الجيش أو عسكر السلطان هو عدته في المهمات يدافع بواسطته عن البلاد ويحارب به العدو والعصاة والمتمردين . وكان موزعا على أنحاء المغرب ويجمعه السلطان عند الحاجة اليه (1).

ومن هنا ، فان قيادة الجيش ترجع في الواقع الى السلطان ،وهو القائد الأعلى والمشرف بنفسه على توجيهه وقيادة الحركات المهمة على رأسه (2).

واذا كان العلاف بمثابة وزير الحرب فانه لم يكن سوى صلة وصل بين السلطان والجيش من حيث التموين وتنفيذ الأوامر السلطانية وتعيين الضباط والقواد . وكان يطلع السلطان على أحوال الجيش من خلال سجل العسكر الذى يقدمه له يوميا بعد امضائه من طرف الصدر الأعظم (3).

وأما القائد المباشر للجيش فهو قائد المشورة ويليه قائد المحلة (أو الحاكم) ، ثم قائد الرحا ، وقواد السائة والمقدمون ، ورجال الأمن . وكان قائد الفيلق يعرف " بقائد العسكر " ويقوم بدور ضابط التموين أو " الصاحب " تحت امرة قائد المحلة . ويأتي في نهاية التنظيم " زابط " (4) أو قائد الدور وهو مسؤول عن الأمن في صفوف الجيش (5).

---

(1) ابنشنهو ، ص 26 .
وعبد العزيز بنعبد الله ، معطيات الحضارة المغربية ، ج 2 ، دار الكتب العربية ، الرباط 1963 ، ص 99 الى 110 .
— *Fontpertuis; "Le Maroc"; N. R., pp. 173 à 176.*

(2) المريني ، ص 81 . وابنعبد الله ، مظاهر الحضارة ، ج 2 وص 42 .

(3) المريني ، ص 81 .

(4) " الزابط " أصله ضابط مع تحريف تركي .

(5) نفس المصدر ، ص 81 .

وكان الجيش مقسما الى ثلاث قيادات كبرى ، قيادة فاس ، وقيادة مراكش وقيادة تافيلالت . وعلى رأس كل قيادة أحد اخوة السلطان ، كما سبق أن أشرنا . ويلي القيادة الكبرى منصب قائد العمالة أو العامل في بعض النواحي أو الباشا في المدن (1) .

يقوم القواد بتجنيد الجيش بمعدل فرد من كل أسرة . ويشكل الجند من مصدرين . الأول قبائل المخزن أو " الغش " (2) ، وهي القبائل البدوية المجندة باستمرار لحفظ الأمن الداخلي والخارجي مقابل استغلالها للأراضي المخزنية التي تسكنها . ويعمل الافراد المجندون من هذه القبائل طول حياتهم لحماية المخزن سواء في حالة الحرب أو السلم (3) .

وأما المصدر الثاني للجيش فهم النواب ، وهي القبائل الملزمة بدفع الضرائب ـ بخلاف قبائل المخزن ـ والتي يشارك الخيالة منها " جيش العسكر " في القضاء على ثورات القبائل (4) . هذا ، فضلا عن المتطوعين والذين كان أغلبهم من أهل السوس بالاضافة الى القوات الاحتياطية المتكونة من فرق " العسة " ، المكونة من خمسين فردا ، وتسهر على أمن السكان في النهار تحت امرة باشا المدينة ، أما في الليل

---

(1) -A.M.G. 3H2; Maroc, le 1er Avril 1879.

(2) اصل الكلمة الجيش ، ومن أشهر قبائل الجيش ، الشراردة ، الوداية وحربيل ريمور ، وفي الصحراء الغنانسة وأولاد نصير سكان وادي الساورة .

(3) المريني ، ص 74 .

(4) A.M.G., 3H6, Fez le 1er Février, 1892 .

— Basset, "Un grand Sultan", Revue A.A.; n° 36, p. 207.

فتقوم مقامها " الدوارة " لحماية أزقة المدينة من المجرمين واللصوص[1] .

وهناك فيلق " المشورة " الخاص بالقصر والمتألف من ثمانمائة الى ألف شخص وهم حرس القصر ، بالاضافة الى الفرقة الموسيقية العسكرية المتكونة من ثلاثين عازفا[2] .

وكان الجيش يتشكل من ثلاث فرق ،وهي المشاة والفرسان والمدفعية . فأما جيش المشاة أو " العسكر " فيضم سبعة وأربعين فيلقا أو طابورا ،وتحمل أسماء المناطق الواردة منها[3] . وهي تمثل مجموع ما تقدمه قبائل المخزن والنوايب. ويصل عددهم نحو 14.000 جندى من المشاة. هذا بالاضافة الى فيالق الموانىء[4] .

ويلي المشاة ، المدفعية أو " الطبجية " المتكونة من 17 مائة موزعين بدون تساو على فيلقين ، وعلى رأس كل منهما قائد " رحا " (ألف جندى) . وتعد قبائل المخزن وحدها مصدرا للامداد برجال المدفعية[5] . وكان هؤلاء موزعين على المدن الساحلية كطنجة وتطوان والعرائش والدار البيضاء والرباط والجديدة وآسفي والصويرة لحماية السواحل . وكانت فرق أخرى موزعة على ابراج مدن فاس ومكناس

---

(1) نفس المصدر .

(2) نفس المصدر . وكذلك :
المريني ، ص 77 و 79 .

(3) مثلا فيلق الشراقة ،فيلق فاس الجديد ، فيلق فاس القديم ، فيلق الشراردة ...الخ
_ A.M.G., 3 H 2 Maroc, le 1er Avril 1879.
_ A.M.G., 3 H 6 Fez, le 1er Février 1892.
كانت الفيالق تضم معدل 300 جندى في الفيلق الواحد . وكل فيلق تحت امرة قائد أو آغا ،وهذا الأخير يتفرع عنه قواد المائة والمقدمون (عريف) .

(4) -A.M.G. 3H6 Fez le 1er /2/ 1892 .

(5) نفس المصدر .

ومراكش ووجدة . وكانت تحت تصرفها المدافع من نوع 75 ورشاشات وبطاريات[1] .

وأما الفرسان (أو الخيالة) فتقدمهم قبائل المخزن . ويقومون بحراسة السلطان في اقامته أو في حملاته . ويعرفون بالمخزنين . وكان من مهامهم أيضا مصاحبة الأوربيين أو الوزراء ، والقاء القبض على عناصر القبائل الثائرة ، ومساندة بعض القواد . ويتراوح عددهم بين 400 و 500 فارس[2] . وهم ينقسمون الى " أرحية " يبلغ عدد كل واحدة منها 300 ، وتنقسم الرحى بدورها الى محلات ،لكل محلة 100 فارس وعلى رأس كل منها " قائد المائة " . وكان من مهامهم أيضا تعزيز جيش المشاة في حالة الحرب ،وذلك لمهارتهم الفائقة في فن الرمي . أما في حالة السلم فيوزعون على المدن المخزنية ويقومون فيها بدور رجال الدرك ... وكان قائدهم الأعلى هو قائد المشور[3] .

وقد أولى السلطان عناية بالأسطول البحرى ليحمي به الشواطئ المغربية من الهجومات الخارجية[4] . ومع نهاية حكمه أصبح الاسطول يحتوى على عدة بواخر حربية " كالحسني " و " سيدى التركي " ، وكانت هاتان القطعتان تقومان بنقل الجنود الى قصبة السعدية والى نمور (الغزوات) ليتجه هؤلاء الى مدينة وجدة والى الصويرة ومنها الى السوس[5] . وقد عزز الأسطول المغربي بباخرة حربية أخرى اشتراها السلطان من ايطاليا تعرف " ببشير السلام بخوفق الاعلام "[6] (هكذا) .

---

(1) المريني ، ص 77 . وكذلك :
_ *Caille; La petite,* p. 89.

(2) A.M.G., 3 H 6, Fez, le 1er Février 1892.
_ ابنشنهو ، ص 26 .

(3) المريني ، ص 77 .

(4) ابن عبود ، تاريخ ، ص 91 .

(5) المريني ، ص 79 .

(6) نفس المصدر ، ص 69 .

وتذكر الوثائق والمراجع على السواء أن تدريب الجيش كان قليلا ضعيفا حيث يقتصر على بعض المناطق كما في الرباط وفاس وطنجة ، وكان السلطان يحضر بنفسه تمارين المدفعية . وكانت التدريبات بالذخيرة الحية منعدمة ، كما أن بعض الجنود لم يطلقوا رصاصة واحدة طوال حياتهم العسكرية (1).

وأما المعدات الحربية أو الأسلحة فتتنوع بتنوع وحدات الجيش . فالمشاة مع نهاية عهد الحسن ، كانوا مزودين ببنادق من نوع " مارتيني " وبنادق " كامبلان " ، فيما يحمل ذوو الرتب بنادق تكرارية من نوع " وينشستير " أو " مارتيني " . وكان جيش المدفعية مسلحا ببطاريات من نوع " كروب " و " شنايدر " أو " رشاشات " من نوع " ماكسيم " (2).

أما الفرسان فيستعملون الرماح (3) والسدسات والسيوف والخناجر والبنادق وغيرها . وتذكر بعض الوثائق أن صيانة الأسلحة كانت منعدمة ، مما جعلها في حالة يرثى لها (4).

كما تصف لنا رسالة للسلطان عبد العزيز (5) لباس الجيش الذى كان يشتمل على ((كبوط وبدعية من ألط وغليلة وسروال من الكتان وطربوش وبلغة . وكسوة الضباط المعتادة تتمثل في كبوط وبدعية وسروال من الملف البندقي وغليلة من الكتان وطربوش على نسبة مراتبهم .)) (6) وكان الكبوط ـ أو السترة ـ من قماش ناعم من صوف او قطن ذا

---

(1) . 1892 -A.M.G., 3H6, Fez, le 1er Fevrier

(2) . 1892 -A.M.G., 3H6, Fez, le 1er Février

ـ ابنعبد الله ، مظاهر الحضارة ، ج 2 ، ص 41 .

(3) . 1892 -A.M.G., 3H6, Fez, le 1er Février

ـ ابنعبد الله ، مظاهر الحضارة ، ج 2 ، ص 41 .

(4) . 1892 -A.M.G., 3H6, Fez, le 1er Février

(5) مؤرخة في 8 ربيع الأول عام 1312 هـ .

(6) المنوني ، ص 62 .

لون أحمر أو أخضر أو أزرق ، وسروال قطني تبغي اللون، وبلغة صفراء _ " ببوش " _، وقبعة حمراء . وكان اللباس يوزع جزئيا أو كليا في كل عيد من الأعياد الدينية الثلاثة : الصغير ، والكبير ، والمولد (1) .

وكان من مهام الجيش المغربي ما يعرف " بالحملة العسكرية " أو " المحلة " ، ويعني مرابطة الفيلق العسكرى مؤقتا في ناحية مضطربة من نواحي المغرب (2) . ولم تكد تمر سنة أثناء حكم السلطان الحسن دون أن يقدم على حملة ضد قبيلة أو مجموعة من القبائل ترفض أو تتماطل في دفع الضرائب ، الأمر الذى جعل الكثير من المؤرخين يذكرون بأن ((عرش الحسن الأول كان على ظهر جواده .)) (3)

وكان قيام السلطان بهذه الحملات كثيرا ما يبدأ في مطلع فصل الصيف لأسباب ، منها طول النهار ، وتوفر المحاصيل الزراعية ، وجفاف الأودية ، مما يسهل عليه عملية التنقل (4) .

وهكذا ، كانت حصيلة الحملات التي قام بها الحسن الأول تسع عشرة حملة . وقد توفي أثناء قيامه بالحملة التاسعة عشر . واذا كان الكثير من الكتاب قد تناولوا هذه الحملات بنوع من التفصيل وبطريقة الحوليات ، كابن زيدان في " اتحافه " والناصرى في " استقصائه " ، أو بتصنيفها كما هو الشأن بالنسبة لبعض الكتاب الأوربيين ، فقد

---

(1) A.M.G., 3H6, Fez, le 1er F2/ 1892 .
_ المريني ، ص 75_80 .
_ ابن عبد الله ، مظاهر الحضارة ، ق 2 ، ص 43 .
(2) نفس المصدر ، ج 2 ، ص 42 .
(3) -Caille; *La petite*, p. 90
-Jean Vangen; *Découverte du Maroc*, Casablanca, S.D., p. 91.
-Thraud, *Les milles*; p. 249.
(4) نفس المصدر ، ص 249 .

رأيت أن أخالف أولئك وهؤلاء من حيث طريقة تقديمها ، وذلك بترجمتها وتلخيصها من خلال خرائط ثلاث .

وقد مكنتنا هذه الخرائط من الوصول الى استنتاجين اثنين ، الأول ، أن ثلثي هذه الحملات قام بها السلطان وهي لم تتعد دائرة يقع مركزها " بتادلا " وتمر بنقطتي مراكش في الجنوب وفاس في الشمال (1) . اما النتيجة الثانية ، فهي أن الثلث الباقي من هذه الحملات كان موجها الى أركان المغرب الأربعة بنوع من التوازن - أى بخروجه من حدود الدائرة المشار اليها - بحيث وجه حملتين الى الشمال الشرقي (الى وجدة) وحملتين أخريين الى الجنوب الغربي (الى السوس) . وأما الحملتان الباقيتان فوزعهما على الشمال الغربي (طنجة) والجنوب الشرقي (تافيلالت) (2) .

وهكذا ، فقد كان للسلطان استراتيجية قائمة على التركيز على اخضاع قلب المغرب دون نسيان الأطراف البعيدة ، لذا أمكننا أن نستنتج أيضا بأن الحملات التي قادته الى خارج الدائرة المرسومة كانت لأغراض سياسية وعسكرية بالدرجة الأولى ، أى عندما أصبحت هذه الجهات من المغرب مهددة من طرف قوى خارجية ، وأحيانا أخرى بسبب خوفه من نفوذ بعض الطرق . وبالفعل فقد كانت الحملات الموجهة الى وجدة وتافيلالت تستهدف الضغوط الفرنسية . أما حملات طنجة والسوس (3) فكانت موجهة للتخفيف من الضغوط الاسبانية والانكليزية وغيرهما (4) . وكذلك الشأن بالنسبة لنفوذ

---

(1) أنظر : الخرائط ضمن الملاحق .
(2) أنظر : الخرائط الثلاث التي تلخص الحملات وتواريخها وأماكن المرور بها .
(3) بدأت بعض الدول الأوربية تقيم حاميات لها في الساحل الجنوبي الغربي كإيفني وسانتا كروز " *Santa Cruz* " (بجزر الكنارى) وماك بكينا "*Mac Pequena*" .
(4) - *Terrasse*; p. 332
- *Cambon*; p. 89.
- *Drague*; p. 98.

بعض الطرق الصوفية في مناطق مختلفة ، كتافيلالت والسوس (1) .

وبخصوص اخضاع الاقليم الأخير تمكن السلطان من تثبيت سلطته بتنصيب ثلاثة وأربعين قائدا ، مبعدا بذلك خطر نفوذ رجالي بتازروالت (2) .

وأما الحملات العديدة التي قام بها في الوسط - أي في حدود الدائرة - فان جمع الضرائب وتأديب بعض القبائل الثائرة على سلطته هي التي كانت وراءها . ويعود جمع الضرائب الى احتياجات الخزينة المتزايدة (3) .

وكان لسلاح المدفعية - الذي دعمته الاصلاحات - دور أساسي في تهدئة القبائل واستخلاص الضرائب منها . ترى ما حقيقة هذه الاصلاحات التي طرأت على الجيش والتي اقتصرت ثمارها على الأمن الداخلي على الخصوص ؟

يمكن القول أن هزيمة "ايسلي" (1844م) كانت الدافع الأول للنهضة في المغرب الأقصى حيث أظهرت ضعف الجيش المغربي وضرورة القيام باصلاحه (4) .

وهكذا فقد كان اصلاح الجيش يرمي الى وضع حد للهيمنة الأوربية ، وكذا توسيع رقعة بلاد المخزن لضمان مدخول ضريبي أكثر أهمية (5) . وقد خضعت خطة تنظيم الجيش الى مجموعة من الاجراءات منها : اعادة النظر في الانخراط بالنسبة للجيش النظامي ، وتدريب الضباط والجنود في أوربا ، والاستعانة بمدربين أجانب ، ثم شراء الأسلحة الحديثة (6) .

---

(1) رجع السلطان من هذه الحملة مسرعا نتيجة الأحداث التي كانت له مع اسبانيا . انظر :
- <u>Cambon;</u> p. 90.

(2) . -Caille; <u>La petite</u>; pp. 90-91

(3) . - <u>Brignon;</u> p. 313

(4) <u>نفس المصدر</u> ، ص 315 . وكذلك الفاسي ، <u>الحركات</u> ، ص 85-86 .

(5) . -Miege; <u>Le Maroc</u>, t. III , p. 223

(6) <u>نفس المصدر</u> ، 224 . -Julien et Autres; "Hassan 1er", <u>J.A.</u>, p. 242.

وبالفعل شرع السلطان في جمع العسكر - منذ 1292 هـ (1875م) - فألـزم أهل فاس بخمسمائة رجل، والعدوتين بستمائة رجل، وغيرها من الثغور بمائتين لكل واحد، ثم اعتنى بتنظيمه (1). وفي نفس الوقت أوفد عدة بعثات طلابية الى أوربا، وبالتحديد الى جبل طارق، ومدرسة الهندسة "بمونبولي"، ومدرسة المهندسين العسكرية "بشاتان" ومعامل "كروب"، والمدرسة العسكرية "ببرلين" وأكاديمية "تورين" بايطاليا، ومعمل الاسلحة "بلييج" وغيرها. وكانت النتيجة أن تم تكوين مئات من الشباب في ميادين شتى بأوربا (2).

غير أن المتمعن في النتائج المحققة يكتشف أنها كانت ضئيلة المردود، لأسباب منها أن البعثات الطلابية لم تكن لها القدرة الكافية على التحصيل، لافتقارها الى المعارف البسيطة اللغوية وغيرها، وهو ما لم يساعدها في الاستغلال الكافي لفترة التكوين. أضف الى ذلك أن المخزن لم يمكن المتخرجين من العمل كل في مجال تخصصه، مما بدد الطاقات (3).

وتكملة لجهود السلطان الرامية الى تنظيم الجيش، طلب من بعض سفراء الدول أن يبعثوا له بمدربين. وكان تخوف السلطان من وقوعه تحت نفوذ دولة معينة

---

(1) الوثائق (3)، 466. وكذلك :
الناصري، جـ 9، ص 142.

(2) A.M.G. 3 H 4, Meknès, le 20 Aout 1884.
-J. Caille, "Les Marocains à l'école du génie de Montpellier (1885-1888); Hésperis, H XLI, p. 131.
-Miege; Le Maroc, t. III, pp. 222 à 225.
t. IV, pp. 96-97.

- المريني، ص 71.

(3) -Caille, "Les Marocains", Hésperis, H XLI, pp. 131 145.

يقف وراء تعدد البعثات العسكرية ، وبالفعل فقد وصل عددها في نهاية حكم الحسن الأول الى خمس بعثات عسكرية في " خدمة المخزن " . وكانت أولى هذه البعثات : البعثة الفرنسية التي تعود الى عام 1876م . وقد كلفت بتدريب فيلق الرماة بمراكش [1] . ثم البعثة الانكليزية التي بدأت أعمالها فيما يبدو عام 1884م ، وكانت تتكون من الأخوين " ماكلين " المكلفين بقيادة فيلق طنجة ثم قيادة جيش " الحرابة " الخاص بحراسة السلطان [2] . وأما البعثة الايطالية فقد شرعت في مباشرة أعمالها منذ عام 1887م ، وتمثلت مهامها في اقامة وادارة مصنع الأسلحة بفاس (المكينة) [3] . وتليها البعثة الاسبانية عام 1890م ، وقد كلفت بالاشغال الهندسية وتكوين متخصصين في بناء الجسور [4] . وكذلك البعثة الالمانية ذات الاختصاص في البطاريات والمدافع [5] .

واذا جئنا الى تقييم ثمار هذه البعثات ، فان جل المؤرخين ، يتفقون على أن سلبياتها فاقت بكثير ايجابياتها ، ذلك أن تنصيب مثل هذه البعثات العسكرية فتح عهدا جديدا ومرحلة حاسمة من مراحل التغلغل والتنافس على المغرب الأقصى .

---

(1) 1898 . A.M.G. 3H2, Sept.
-*Brignon*; p. 316.
-*Cambon*; p. 91.
-Miege; *Le Maroc*, t. IV, pp. 97-98.

(2) 1898 . -A.M.G. 3 H 2 , Septembre
-*Thaaaud*; pp. 253-254.
-Miege; *Le Maroc*, t. IV, p. 98.

(3) 1898 . -A.M.G. 3 H 2 , Septembre
-*Brignon*; p. 316.
-Miege; *Le Maroc*, t. IV, pp. 98 à 100.

(4) نفس المصدر ، ص 97-98 .
- *Cambon*; p. 91.

(5) 1898 -AM.G. 3 H 2 Septembre

لأن هذه البعثات حققت تقدما كبيرا يتمثل في تغلغلها داخل البلاد وهو ما لم يكن مسموحا للاوروبيين من قبل حين كانوا لا يتعدون الموانئ ، أما الآن فقد أصبحت البعثات تتنقل مع السلطان في حملاته وفي صفوف الجيش المغربي بالذات ، وكان لذلك أثره السيء على علاقات المخزن بالرعية (1) .

وفي الواقع لم تكن البعثات في خدمة المخزن بقدر ما كانت في خدمة بلدانها ، لأن دورها كان يتمثل اساسا في امداد الدول الأوربية بالمعلومات اللازمة عن حالة البلاد وفي مراقبة بعضها البعض .

ولما بدأت النتائج السلبية والضئيلة لهذه البعثات تظهر للعيان ،طلب السلطان من الدول الأوربية سحب ممثليها . وبعث في هذا المعنى الى الحكومة الفرنسية عن طريق ممثلها في طنجة - عام 1886م - لكن الرد كان سلبيا اذ ماطل الفرنسيون ثم اشترطوا مغادرة باقي البعثات للمغرب . وكان للدول الأوربية الأخرى نفس الموقف . وبقيت المفاوضات مستمرة دون أن يتخلص السلطان منها الى أن توفي (2) .

لم يكن تدريب وتنظيم الجيش المغربي ضئيل النتائج فقط ،ولكنه كان ثقيلا ومكلفا أموالا طائلة للخزينة . فالبعثات الطلابية الى أوربا وشراء الأسلحة والبواخر ، والآلات كلفت المغرب مئات الآلاف من الفرنكات سنويا . والبعثات العسكرية الأجنبية نفسها أصبحت منذ عام 1887م تكلف الخزينة 250.000 فرنك . و" المكينة " وحدها كلف

---

(1) . 319 - *Brignon;* p.
- Miege; *Le Maroc*, t. III, p233 .

(2) -A.M.G. 3H6, Med Gharnit, 23 Ramadhan 1308 (2/5/1891).
-A.M.G. 3H7, Tanger, le 20 Février 1893.
-A.M.G. 3H2, Septembre 1898.

بنــاؤها وتجيزها خمــسة ملايين من الفرنكات ذهبا [1] . علاوة على شراء الأسلحة من الدول [2] .

واذا كان لابد من خاتمــة ، فانه يمكن القول بأن جهود الحسن الأول الاصلاحــية في مــيدان الجــيش كان لها نــتائــج عكــسية بناء على الأهداف التي رسمت لهـــا والمــتمــثلة أساسا في الوقوف في وجه الدول الأوربية - ويمكن استثناء بعض الايجابيات التي حــققها سلاح المدفعية مــثلا في ميدان اخضاع القبائل لا غير - اذ لم تحقق أكثر من زيادة اكتشاف ضعف المغرب من خلال تلك البعثات العسكرية ، التي كانــت في خدمــة بلدانها .

ولعل نظرة على أرشيف " قصر فانســن " بباريس كافية للدلالة على ذلك ، اذ يقف الباحث على مــئات التقارير اليومــية والأسبوعية والشهرية ، التي تصل الى مركز المخابرات الفرنسية (المــكتب الثاني) بوزارة الحربية ، وهي تحتوى على المعلومات الوافية والدقيقة في نفس الوقت ، عن كل مــا كان يجرى في المغرب من أحداث وفي مواضيع سياسية وعسكريــة واقتــصادية واجــتماعية مــخــتلفة .

---

(1) -*Michaux-Bellaire; "L'héritage", R.D.M., p. 416.*
-*Miege; Le Maroc, t. IV, p. 110.*

(2) -*A.M.G. 3H2, Maroc, le 1er Avril* 1879.
-*A.M.G. 3H5, Tanger, le 08 Aout* 1887.
-*A.M.G. 3H6, Fez, le 01 Septembre* 1894.

ان منطق المغرب في اصلاح الجيش وتحديثه اعتمادا على العنصر الأجنبي والأوربي بالذات ، لا يشذ عنه في باقي دول العالم الاسلامي ، اذ كان " موضة " تلك الفترة . وليس من باب المبالغة بتاتا اذا قلنا بأن مثل هذا المنطق يثير الدهشة والسخرية في آن واحد ، لأنه منطق الصبية كما أنه لا يكاد يختلف عن منطق ذلك ((السجين الذى يطلب مفتاح سجنه من سجانه .)) (1)

---

(1) ومن المؤسف جدا أن يتكرر مثل هذا المنطق بعد أقل من قرن من الزمن وفي العالم الاسلامي بالذات ، لا في ميدان اصلاح وتحديث الجيش فقط ولكن في ميادين أخرى كثيرة ، وحسبنا أن نذكر أن أخطرها هو ميدان التربية ، اذ من الغريب أن نجد مثلا أساتذة مسيحيين يدرسون التاريخ الاسلامي .

الفصل الثالث

المجتمع المغربي

1 ـ الجو الاجتماعي .

2 ـ الحياة الاقتصادية .

3 ـ التطور الثقافي .

1ـ البيئة الاجتماعية :

اعتاد المؤرخون تقسيم عناصر سكان المغرب الى نوعين رئيسيين : السكان الأقدمين من بربر وعرب [1] ، والمحدثين كالزنوج والأندلسيين واليهود والأوربيين وغيرهم [2].

فكيف كانت تتوزع هذه العناصر ؟ وما هو النظام الاجتماعي السائد في المغرب في الثلث الأخير من القرن 19م ؟

لعل النظام الاجتماعي السائد في أى بلد كان هو الذى يحدد طبيعة الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية لأن عناصر السكان ترتبط فيما بينها وتتفاعل من خلال تنظيمات تشكل في النهاية شبكة من العلاقات الاجتماعية لها أثرها على ميادين الحياة السالفة الذكر.

واذا تمعنا في مجتمع المغرب الأقصى خلال عهد الحسن الأول أمكننا تقسيمه الى قسمين ، هما : سكان الريف ، وسكان المدن.

كان المجتمع الريفي يتألف من قبائل تجمعها عائلات كبيرة ، وتنقسم القبائل

---

(1) اذا ما عدنا الى مقدمة ابن خلدون في شأن سكان المغرب الأقدمين فاننا نجده يقسمهم الى ثلاثة عناصر ، هم :
- المصامدة ، أقدم الفئات وأكثرهم ، كانوا يقطنون السهول والجبال.
- وصنهاجة ، يتألفون من قبائل قاطنة وقبائل الرعاة والبدو والرحل ، وهؤلاء هم الذين نقلوا الاسلام الى حواشي الصحراء.
- وزناتة ، وهم سكان السهوب ، جاءوا متأخرين في القرنين العاشر والثاني عشر الميلاديين ، وكانوا رحلا (خيل) تحالفوا في غالب الأحيان مع القبائل الرحل (الجمال) أنظر : عبد الرحمن ابن خلدون ، المقدمة. وكذلك :
- *Morin-Barde*; p. 3.

(2) -*Fontpertuis*; "*Le Maroc*", *N. R.*, pp. 165-166.

بدورها الى عشائر تنتهي عادة الى جد العائلة الكبيرة وتحمل اسمه [1]. وكانت العائلات تعيش على رقع أرضية معينة تنتهي عند بداية أملاك العائلة الثانية وهكذا... [2] أما البدو فترتكز وحدتهم الاجتماعية على القبيلة [3].

وكان سكان المدن يتشكلون من وحدات اجتماعية وسياسية يحكمها مجلس "الجماعة" [4].
ويقطن المناطق الحضرية في جزء هام منها عناصر النوع الثاني من سكان المغرب الأقصى — أي المحدثين — ويأتي في مقدمتهم الأندلسيون الذين يسيطرون على الثروة والتجارة ويشكلون فئة هامة في المجتمع المغربي تحتوى عناصرها على الوسطاء والعلماء والقياد والباشوات وغيرهم [5]. ويلي عنصر الاندلسيين، فئة اليهود التي تشكل مصدرا للصناعة والتجارة [6].

---

(1) لعل هذا ما يفسر كثرة اسماء القبائل التي تبدأ بـ" بني..." أو "آيت..." أنظر:

— Vasili; "Lvrai", N. R., p. 480.
— Morin-Barde; p. 3.

(2) نفس المصدر، ص 3 . وكذلك :

— Vasili,,"Le vrai", N. R., p. 480.

(3) -Morin-Barde , p. 3.

(4) نفس المصدر، ص 3 .

(5) -Fontpertuis, "Le Maroc", N. R., p. 167.

(6) بدأت هذه الفئة تتشكل مع نهاية العصور الوسطى، اثر طرد هؤلاء من أنحاء مختلفة من أوربا بسبب الحركة الاسلامية. وقد ظلت هذه الفئة تعيش غريبة في المجتمع المغربي، الى القرن 19 على الأقل، في أماكن خاصة في المدن بسبب انزوائها من ناحية ولموقف المغاربة منها من ناحية ثانية.

أنظر :

- Gaston Deverdun; Marrakech des origines à 1912, Rabat, 1959, p. 538.
- Fontpertuis; "Le Maroc", N. R., p. 166.

أما الزنوج فهم النتيجة الطبيعية لتجارة العبيد التي ظلت نشيطة الى الفترة التي تعنينا . وكان عدد الرافدين الى المغرب عن طريق تجارة الرقيق أكثر من ألفين في السنة ، بين الرجال والنساء والأطفال (1) . وكان شراؤهم يتم في تومبوكتو (2) مقابل بضعة كيلوغرامات من الملح أو القطن ثم يباعون في أسواق وادى نون الكبرى (3) ، وتارودانت (4) ومراكش . ومن هذه المدن يصل العبيد الى مختلف جهات المغرب (5) . وكان عددهم في منتصف الثمانينات يقدر بنحو نصف مليون (6) .

ولا يفوتنا أن نذكر الفئة الجديدة المنبثقة عن الاحتكاك الأوربي المغربي في النصف الثاني من القرن 19م وهي فئة الأوربيين التي ظل عددها يتضاعف نتيجة الامتيازات المترتبة عن نظام الحماية الدبلوماسية والقنصلية خاصة في عهد الحسن الأول . واذا كان عدد هؤلاء لا يتجاوز 250 أوربي عام 1832م فقد ارتفع عددهم الى 1360 عام 1864م ثم 3500 أوربي عام 1885م ثم 9.000 عام 1895م (7) . ومنهم الاسبان والانكليز والفرنسيون وكذلك الايطاليون والبرتغاليون والألمان (8) .

---

(1) كان العبيد يجلبون في سن تتراوح بين الثامنة والعاشرة . وأما نشاطهم فيكون في البيوت ويستغلون كعمال أو جنود . أنظر :

— Fontpertuis; "Le Maroc", N. R., p . 166.

(2) تومبوكتو : مدينة بمالي ، تقع في الجزء الشمالي الغربي من حوض النيجر وهي نقطة على حدود الصحراء . يعود تأسيسها الى التوارق في القرن 11م . وأصبحت مركزا للتجارة بين السودان والمغرب . أخذها احمد المنصور في القرن 16م واستولى عليها الفرنسيون عام 1893م .

(3) وادى نون ، في أقصى جنوب المغرب (أنظر الخريطة) .

(4) تارودانت ، من مدن المغرب الجنوبية . تقع الى الشرق من سهل السوس عند نهاية جبال الاطلسين : الكبير والصغير (أنظر الخريطة) .

(5) . 44 - Campou; p. 44.

(6) . - Fontpertuis; "Le Maroc", N.R., p. 66

(7) . -Brignon , p. 293 . أنظر عن تطور الهجرة الأوربية الى المغرب خاصة :

— Miege; Le Maroc, t. IV, p. 285.

(8) نفس المصدر ، ص 469-481 .

هذا فيما تذكر بعض المصادر أن سكان المغرب بلغ عددهم عام 1886م نحو 8 ملايين نسمة (1) .

وعلاوة على ما تقدم من تصنيف لفئات المجتمع المغربي فقد سبق أن أشرنا أيضا الى أن المغرب كان ينقسم - من ناحية الولاء السياسي - الى قسمين رئيسيين :

بلاد المخزن ، وبلاد السايبة . وكانت بلاد المخزن تشتمل على أنواع عديدة من القبائل . فهناك قبائل تربطها بالمخزن علاقة أخذ ، تتمثل في استغلال الأراضي المخزنية التي تقطنها مقابل تجندها لحفظ الأمن الداخلي والخارجي . وهناك قبائل النوائب الملزمة بدفع ضرائب خفيفة مقابل المشاركة في القضاء على الثورات ، فضلا عن القبائل الخاضعة للمخزن بطريقة غير مباشرة أى من خلال خضوعها لقبائل المخزن والنوائب .

أما بلاد السايبة فتشتمل على القبائل التي لا تخضع للمخزن بحكم عدم وجود ولاة ولا قانون يقيدها (2) .

ولعل أكثر المؤسسات الاجتماعية شيوعا في المغرب خلال هذه الفترة هي الزوايا والطرق الصوفية (3) الضاربة أطنابها في المجتمع المغربي .

وعرفت هذه المؤسسات انتشارا على نطاق واسع في الأرياف كما في المدن

---

(1) Fontpetuis; "Le Maroc", N. R. , pp. 165-166 .

(2) الوثائق (3) ، و : 415 .

(3) الطريقة ، هي مجموعة أوامر وتعليمات خاصة أملاها ولي أو عالم أو صاحب كرامات . وهي أيضا قاعدة حياة يسير عليها المريد الطامع الى التقوى وتطهير روحه . وتتميز الطرق عن بعضها بنوع الورد والذكر والحزب . أنظر :
- Drague; pp. 279-284.

خلال القرون الأخيرة ،اذ برزت أربع طرق جديدة بين نهاية القرن 18م ومطلع القرن العشرين (1) .

واذا كان للطرق والزوايا (2) مجالات نشاط متنوعة ومهام متعددة كتحفيظ القرآن وتعليم التصوف والدعوة للطريقة والنشاط السياسي والاجتماعي (3) ، واذا كنا سنتناول بعضا من هذه المجالات في حينها ، فان الذى يهمنا هنا هو الدور الاجتماعي لها .

كانت الطرق تشكل تجمعات ترمز للتعاون والمساعدة المتبادلة . وقد كان المريد أو المنتمي للطريقة يشعر بالألفة والاستئناس في كل المدن والأرياف التي بها فروع طريقته ، لأن " الاخوان " ـ وهم الأتباع ـ لن يعرطوا في حسن ضيافته وتقديم العون لـه (4) .

وهكذا فقد كان المغرب الأقصى مع نهاية القرن 19م يزخر بالزوايا والطرق التي تتركز في القرى والمناطق الخالية ابتعادا منهم عن رقابة السلطة المتشددة على بعضها ، وتحاشي الاصطدام بالفقهاء ذوى الاعتبار الرسمي لدى الدولة (5) .

---

(1) وهي الدرقاوية والتجانية والكتانية والبوعزاوية . أنظر :
ـ نفس المصدر ، ص 102 . وكذلك :
— Roger Le Tourneau; La vie quotidiène à Fez en 1900, S.L., 1965, p. 257.

(2) ليس هناك اختلاف كبير بين طريقة ذات فروع وزاوية ذات أهمية محلية لا علاقة لها بطريقة من الطرق ، لأن الطريقة لم تكن في البداية سوى زاوية أخذت تكبر وتتسع . أنظر :
— Draque; p. 281.

(3) نفس المصدر ، ص 281 .

(4) نفس المصدر ، ص 281 .

(5) حركات ، ج 3 ، ص 569 .

ويمكن تقسيم أهم الطرق الى نوعين رئيسيين ، فهناك الطرق المغربية الأصـــل من جهة وجلها تنحدر من الطريقة الشاذلية الجازولية (1) ، كالوزانية (2) والناصرية (3) والدرقاوية (4) والكستانية (5) والبوعزاوية (6) وغيرها . وهناك من جهة ثانية الطرق الواردة

---

(1) تعود الشاذلية الى مؤسسها أبي الحسن علي بن عبد الله بن جبار الشاذلي (1175_ 1258م) بالمغرب. لكن الشاذلي كان صوفيا ولم ينظم طريقة انما أتباعه هم الذين نظموا هذه الطرق التي تتعارض وصوفيته . وقد أصبحت الطريقة الشاذلية في المغرب طريقة الشرفاء الأدارسة على الخصوص . أنظر :
— Draque; pp. 277-278.

(2) ولد مولاى عبد الله الشريف عام 1006هـ/1557م . وتلقى دراسته بتطوان وفاس ثم أنشأ لنفسه خلوة بمنطقة وزان فأنشأ الناس حوله تجمعا سكنيا صار مدينة وزان . وقد لقب الوزانيون أيضا بالطيبين وتارة بالتهاميين . أنظر : — Draque; p. 235.
وكذلك : حركات ، ج 3 ، ص 556_563 .

(3) أسس محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن الحسين بن ناصر (ت 1085هـ/1674م) الزاوية الناصرية . أنظر عنها : حركات ، ج 3 ، ص 556_557 .

(4) أسس مولاى احمد بن الحسن الدرقاوى (1760_1823م) الزاوية الدرقاوية الأم بـبني زروال . وينتمي الدرقاويون الى أبي درقة محمد (فتحا) ابن يوسف وهم من النسب الادريسي أما مولاى الطيب فقد أسس زاوية بوبان ببني زروال عام 1866م ودفن بها حيث توفي عام 1870م . خلفه ابنه مولاى عبد الرحمن (1849م_1927م) . وكان من زوايا الطريقة الدرقاوية زاوية ابو درقة بتامسنا ، وزاوية بوزرقطون بالشياظمة والحراق بفاس . كما تفرع عن الطريقة طرق أخرى كثيرة منها : البدوية ، والبوزيدية والحراكية والدباغية والغومرية والفاسية والزرهونية والمحجية . أنظر : —Peretie; "Les Madrasas", A. M., p. 306.
—Draque; pp.102 et 257. — حركات ، ج 3 ، ص 565_566 .

(5) أنشأ محمد بن عبد الوهاب _ المعروف بالكبير _ الزاوية الكتانية عام 1267هـ/1850م ، وهو من نسل مولاى ادريس . اما الطريقة الكتانية فقد أنشأها حفيده محمد بن عبد الوهاب بن محمد ، وانتشرت بضواحي فاس ومكناس . أنظر : — Le Tourneau; p. 290.
— Draque; p. 103.

(6) تنتهي الطريقة الى البوعزاوى المتوفي في القرن 12 . وأما الطريقة البوعزاوية فقد أسسها الحاج محمد بن الطيب البوعزاوى في نهاية القرن 19م . وكان لها أتباع كثيرون في منطقة الشاوية . أنظر : - Draque; pp 103-106.

على المغرب من أنحاء أخرى من العالم الاسلامي كالطريقة الصقلية (1) والتجانيـة (2)
والسنوسيـة (3)،

(1) نسبة الى جزيرة صقلية التي انتقل الصقليون منها الى الأندلس فسبتة ففاس. والصقليون أشراف مرابطون حسينيون. كان لهم زاوية بفاس تتبع الطريقة الشاذلية الخلوتية. وكان القطب أبو العباس أحمد بن محمد الصقلي من أتباع مولاى الطيب بن محمد بن عبد الله الوزاني، كما كان ايضا من أتباع طريقة سيدى محمد بن سالم الحفناوى المصرى الشافعي الذى درس عنه. وقد ترك له الورد سيدى محمد بن سالم، وتوفي عام 1763م. ودفن بالزاوية التي بناها بفاس بدرب السبع اللوبيات وهي الزاوية التي ظلت قائمة الى مطلع القرن 20م. أنظر :

— A.M.G. 3 H 3 ; 1883.

— Peretie; "Les Madrasas", A. M., p. 306.

(2) أسسها الشيخ احمد بن محمد بن المختار بن سالم التجاني، عام 1196هـ/1781م بعين ماضي بالجزائر. ولما اضطهده الأتراك هاجر الى فاس عام 1211هـ/1798م مع اسرته وبعض تلاميذه فرحب به مولاى سليمان، وأسكنه قصرا بفاس ورتب له جراية لنفقته. وقد أصبحت له زاوية هامة بفاس. أنظر :

— Peretie; "Les Madrasas", A. M., p. 306.

وكذلك :

— Le Tourneau; p. 288.

— Draque; p. 103.

(3) نسبة الى مؤسسها محمد بن علي السنوسي بالجبل الأخضر بضواحي سرت عام 1843م. وكان زعيم أتباع السنوسية في المغرب الأقصى هو سي احمد من قبيلة بني سنوس. وقد أنشأ التواتي أحد أتباع سي أحمد السنوسي رباطا بزربوب ضواحي توات. أنظر :

— A. M. G. 3 H 3; 1883.

أنظر عن تطور السنوسية في النصف الثاني من القرن 19م :

— E.E. Pritcard; The Sannusi of Cynaica, 104, Florid, 1949.

والقادرية (1) ، وكذلك طريقة غناوة (2) وغيرهـا ...

وهناك أصناف أخرى منها كالطرق " الشعبية " المحدودة الانتشار،كالعيساوة والحمادشة والدغوغيين والحداوة . وكان هؤلاء يجدون أتباعا لهم في أوساط الحرفيين من حدادين ودباغين وجزارين وخبازين وغيرهم ... (3)

كان للطرق الصوفية والزوايا نظام خاص اداريا وتربويا واجتماعيا واقتصاديا (4)

---

(1) نسبة الى سيدى عبد القادر الجيلالي البغدادي . يعرف أتباع الطريقة في مراكش بالجلالة وفي فاس بالقادرية . أما أهميتها فهي على الخصوص في الصحراء نظرا لانتشارها الواسع . وكان لأتباع الطريقة ارتباطات بالقادرية لسيدى المختار الكونتي دفين توسوكتو الذى تلقى ورد مولاى عبد القادر الجيلالي . واتباع الطريقة ينتشرون بين السوس و تومبوكتو والسنغال . و تفرعت عن القادرية طريقتان : - A. M. G. 3 H 3, 1883.
ـ البكائية نسبة الى احمد البكاى الذى ينتمي الى آل كونتا ،والذين استقروا بالصحراء الغربية
ـ و الطريقة الفاضلية ،نسبة الى الشيخ محمد فاضل بن تامين (ت 1286هـ/1869م) ،تلميذ المختار الكونتي . وقد أنشأ محمد مصطفى نجل محمد فاضل المعروف بالشيخ ماءالعينين فروعا للفاضلية كزاوية أهل بركة الله التي اتخذت السمارة مقرا لها بالعيون . أنظر :
ـ حركات ، ج 3 ، ص 568 .

(2) لم يجرؤ هؤلاء على تنصيب أو تعيين مؤسس لطريقتهم التي لم تكن تقبل في صفوفها سوى الزنوج . أنظر : ـ *Le Tourneau*; p. 293.

(3) 1883 . - A. M. G. 3 H 3 ;

(4) تحظى الزوايا والطرق بقطع من الأرض كبيرة أو صغيرة تعرف بأراضي الحبوس تحصلت عليها عن طريق الاهداء لغرض القيام باعباء الزاوية . وتعتبر هذه الأراضي مصدرا اقتصاديا علاوة على ما يمارس من تجارة في مركز الزاوية خلال الموسم السنوى .
ـ أنظر : ـ *Le Tourneau*; pp. 286 et 293.
ـ *Drague*; pp. 283-284.
ـ *Lahbabi*; p. 141.

وسياسيا [1] في بعض الأحيان . ويحتل شيخ الزاوية او الطريقة المدارة في التنظيم _ اذا ما استثنينا الولي الرمز المنتمي اليه _ وهو صاحب البركة [2] المتوارثة والشفاعة [3] والكرامة [4] التي ورثها عن " الوالدين الصالحين " [5] . ويساعد الشيخ خليفته _ أو نائبه المسمى احيانا بالفقيه _ في تدريس مبادئ الدين والصوفية لتلاميذ الزاوية ولو أن ذلك من اختصاص الشيخ عادة [6] . اما ادارة الشؤون الدنيوية للطريقة أو الزاوية فهي من اختصاص وكيل مكلف بذلك [7] ، فيما يقوم المقدم الذى يعينه الشيخ ، بادارة الزاوية أو الطريقة الفرعية [8] .

---

(1) تأوى الزاوية المجرمين (هكذا) والمخالفين السياسيين اذ لم يكن في استطاعة اى كان المس بهؤلاء طالما هم في مكان مقدس . والاعتقاد السائد ان الشخص الذى يخرج عن هذه القاعدة أو العرف يلحقه غضب الولي ونقمته ولو كان السلطان نفسه . أنظر :
— *Drague*; p. 283.
— *Lahbabi*; p. 281.

(2) إعتقاد سائد بأن للشيخ الخير الذى لا ينتهي سواء كان هذا الخير ماديا (الرزق) أم غير ذلك .

(3) تعني توسط الشيخ أو الولي لأتباعه لدى الخالق غدا يوم القيامة .

(4) أى المعجزات التي يمنحها الله اياه دون غيره من الأتباع والعامة .

(5) . *Drague*; p. 282

(6) نفس المصدر ، ص 283 .

(7) نفس المصدر ، ص 286 .

(8) يمكن للمقدم الاقامة بمدينة أو قبيلة لا وجود لزاوية بها . والمقدم مجاز من الشيخ باجازة "كبيرة أو صغيرة" ، كما يفوض له الشيخ الاجازة بدوره . _ أنظر :

— *Drague*; p. 286.

وكان الأتباع أو المريدون [1] يعرفون " بالاخوان " أو الفقراء أو الخدام ويخضعون لأوامر الشيخ وممثليه [2].

لم تكن أهمية وسمعة الطرق أو الزوايا تكمن في عدد أتباعها بقدر ما كانت في التقدير والاحترام والثقة التي يحظى بها الشيخ [3]، وليس من المستبعد أن مرد ذلك أيضا يعود الى ما تتميز به الطرق نفسها في كون بعضها سنية وأخرى تعتمد على الشعوذة، ولو انه من الصعب أن نحكم حكما نهائيا على طريقة أو أخرى بكونها سنية أو مشعوذة، لأن الشيوخ وأصحابهم كثيرا ما كانوا بعيدين عن الشعوذة بينما العامة غارقة في البدع [4].

ومهما يكن، فان مصدر الشعوذة في النهاية هو الطرق نفسها – وليس كلها – لأنها تساهم بطريقة أو بأخرى، سواء من خلال السكوت عن البدع وقبول الأتباع من هذا النوع، أو لأن بعضها يكمن أساس استمرارها في وجود الشعوذة التي تستولي من خلالها على السذج من العامة وحتى غير العامة [5]. وعلاوة على ذلك، تتميز الطرق عن بعضها أيضا من خلال الورد [6] والذكر [7] والحزب [8].

---

(1) يتصل الشخص برباط من أربطة الطريقة ويقدم هدية الى الشيخ، فيقوم الأخير بتعليمه الورد وبعض الطقوس ليصبح بعدها مريدا. أنظر :

-A.M.G. 3H3, 1883.

(2) Drague, p 286. -

(3) نفس المصدر، ص 287.

(4) قبلت بعض الطرق بين صفوفها عناصر من العلماء لالتزامهم بالسنة فيما لم يقبل البعض الآخر سوى عناصر العامة وذهب بعضهم الى حد قبول النساء باسم " أخوات ". انظر :

-Le Tourneau; p. 287. et Drague; p. 287.

(5) لم تكن العامة – على ما يذكر Drague، ص 287 – تفضل الطرق الشريفة والتي لها علاقة بالأسرة الحاكمة، ربما لأنهم كانوا يخافون من أنهم لن يقدروا على الهدايا الثمينة التي هم مطالبون بها في المواسم.

(6) هي الصلوات التي يجب أن يقولها المريد مستعينا بسبحة. كما أن الورد هو مبدأ الطريق المؤدي الى الله. وهو التذرع والابتهال. ترديده واجب على كل مريد. أنظر :

— A. M. G. 3H3 1883.

— Drague; p. 284.

ومهما قيل عن الطرق في هذا الميدان وكذلك الزوايا ، فلا ينتقص من قيمتها ما كانت تكتسيه من أهمية بارزة في الحياة الاجتماعية للمغرب الأقصى - ولو كانت سلبية في أحيان كثيرة - خلال هذه الفترة ، اذ حسب تقرير فرنسي يعود الى سنة 1883م (1) فان نصف سكان مدن المغرب على الأقل كانوا ينتمون الى أحدها : كالجيلالية والدرقاوية والتجانية والعيساوية والحمادشية . ويذهب نفس التقرير الى أن جل السلطات المخزنية تنتمي الى احدى الطريقتين ، التجانية أو المختارية ، فيما كاد ينتمي فيلق العبيد كله الى التجانية (2) . ولم ينج السلطان نفسه من ذلك اذ تلقى أربعة أوراد ،وكان أكثر ميلا الى الطريقة الدرقاوية في البداية ثم انتهى الى محاربتها فيما بعد (3) كما سيأتي .

ولعل السؤال الذي يطرح نفسه بعد معرفتنا بدور الطرق وأهميتها وعلاقتها بالمجتمع المغربي ، هو ما علاقة هذه الطرق بالسلطة المخزنية ؟

تختلف الطرق عن بعضها البعض في علاقتها بالمخزن ، ففي وقت سلك بعضها مسلكا سلميا - كما هو الشأن بالنسبة لزوايا السهول ذات الدور الديني التعليمي المحض كطريقة حداوة مثلا (4) - وقف البعض الآخر ضد السلطان لمجرد تبنيه

---

(7) هو بمثابة صلوات ترفع شأن صاحبها عند الله ، وتتم أحيانا تحت تأثير الرقص والموسيقى. أنظر :

- *Drague*, p. 285.

(8) نوع من النوافل وقراءة القرآن أو كلام الصوفية . ومن شأن الحزب أن يقود المريد الى معرفة الله وهي المعرفة التي لا يحظى بها كل الناس . انظر : - *Drague*; p. 285.

(1) 1883. - A. M. G. 3 H 3

(2) 1883. - A. M. G. 3 H 3

(3) 1883. - A. M. G. 3 H 3

(4) مثل هذه الزوايا كانت تقدم للسلطان خدمات تتمثل في اعلامه بما يحدث في بلاد السايبة ومراقبة القواد المشكوك فيهم وتوسطهم له مع بعض القبائل غير الخاضعة له . أنظر :

- Miege; Le Maroc, t. IV, pp. 141-142.

الاصلاح على النمط الأوربي (1) . هذا فيما انضم النوع الثالث الى الأجانب في اطار نظام الحماية الدبلوماسية والقنصلية "كشريف وزان" الذى احتمى بفرنسا (2) . وتزعمت أخرى محاربة الأجانب على الحدود مع الجزائر باسم الجهاد في سبيل الله .

كان السلطان الحسن الأول يعمل على استمالة الطرق الصوفية الكائنة في بلاد المخزن اليه ليستعملها في اخضاع المناطق غير المستقرة حتى في بلاد السايبة، فأظهر احترامه للاشراف الأدارسة قصد تدعيمهم لسلطته وتدعيم الرأى العام الفاسي - المتعاطف معهم - له أيضا . وفي هذا الاطار كان يقوم أثناء جولاته وحملاته بزيارة الأضرحة وترميمها

---

(1) دخلت فروع من الطريقة الدرقاوية في صف المناهضين للسلطان . وهكذا فقد استعان الشريف الدرقاوى محمد بن العربي المدغرى بقوى وجهها ضد السلطان " الذى باع نفسه للأفكار الأوربية " (هكذا) . كما استعان الشريف بفكرة الجامعة الاسلامية وبعناصر لاجئة من الجزائر وتونس الى الجنوب الشرقي من المغرب وكذلك بانصار السنوسية في المغرب على الرغم من قلتهم ، فدعموا جميعا الشريف ماديا ووقفوا بشدة في وجه الاصلاح . أنظر :

- *Miege; Le Maroc*, T. IV, pp. 139-140.

ولما ثارت ثائرة السلطان بعث برسالة الى الشريف الدرقاوى ذكر له فيها أنه لم يعد يحتمل أكثر من هذه الفتن وحذره في رسالة أخرى شديدة اللهجة بتاريخ 12 مارس 1888م . ولما توفي الشريف ونفد صبر السلطان توجه على رأس حملة ضد مركز الدرقاويين بتافيلالت ، لكن السلطان استدعي الى مراكش - بسبب خلافات مع اسبانيا - قبل اكمال مشروعه . أنظر : - *Brignon*; p. 90.

(2) - *Lahbabi*; p. 142 .

- في حالة الضرورة - و يبدى احترامه لها وللأولياء والقبب (1) . كما كان يعرف كيف يمدح القوى الصاعدة منها لاستمالتها ، كقوة الشيخ ماء العينين بالصحراء الغربية مثلا - والذى ساعده على التمركز في الجنوب المغربي (2) . ومن أسباب الاستمالة أيضا دور الزوايا والطرق المقربة من السلطة في الاشراف على عقد البيعة للسلطان والتوسط له في النزاع الذى يقوم أحيانا بين القبائل والجهاز المخزني .

ولم تكن الزوايا والطرق قادرة على القيام بهذا الدور لولا نفوذها الاقتصادى والديني (3) ، واستحواذها على عواطف العامة الأمر الذى جعلها تؤثر على السلطة والقبائل على السواء .

واذا كان السلطان قد وفق فعلا في استمالة بعض الطرق والزوايا اليه فقد فشل في ذلك مع البعض الآخر وخاصة منهم المحاربين للأجانب (الفرنسيين) على الحدود والذين توغلوا داخل الجزائر ورفعوا لواء الجهاد في سبيل الله غير مبالين بالسلطة في المغرب الأقصى ، كأولاد سيدى الشيخ الغرابة بقيادة سي سليمان بن قدور ، وكذلك عائلة سي معمر وأتباعهم بضواحي وجدة (4) . ثم أولاد سيدى الشيخ الشراقة بقيادة سي قدور بن حمزة ، وكذلك قبائل العمور وبني غيل وذوى منيع وغيرهم (5) .

---

(1) -Miege; Le Maroc, t. IV, pp 141-142.
-Julien et Autres; "Hassan Ier", J. A., p. 242.
- خلف التميمي ، ص 120.
(2) - Julien et Autres; "Hassan Ier", J. A., p.242.
(3) خلف التميمي ، ص120-121.
(4) 19 ذو الحجة 1292 هـ (15 جانفي 1876) ، 8 M3H - A. O.
(5) 6 ربيع الثاني 1294 هـ (1877م) ، 32 30H - A. O. M.,

كان السلطان معارضا لهولاء معارضة شديدة باسم المحافظة على السلم مع فرنسا في الجزائر ، لذلك نجده يكاتبهم سواء عن طريق حاجبه " سي موسى " أو عامله " محمد البلغيثي " (عامل وجدة ونواحيها) ،مغريا لهم تارة وحاثا اياهم تارة أخرى على ضرورة الابتعاد عن هذه المناطق من الحدود (1) والتوقف عن مضادة فرنسا امتثالا للنصوص المتفق عليها بين الدولتين على حد زعمه (2) . كما كان السلطان في نفس الوقت على اتصال دائم بالوالي العام الفرنسي بالجزائر يعلمه بتأدية " واجباته " المتمثلة في تهدئة المجاهدين حرصا على ما اتفق عليه بين الدولتين كما يطمئنه بردعهم (3) .

وهكذا ، فالى مطلع الثمانينات كانت المراسلات المتبادلة بين السلطة المخزنية والسلطات الفرنسية في الجزائر لا تزال تذكر موضوع ردع سي حمزة وأتباعه (4) .

وما دمنا بصدد الحديث عن الجهاد فمن المفيد أن نستحضر تعريفا له على لسان معاصر، وأكثر من هذا أنه من كتاب المخزن وهو الناصري . وليس من المستبعد أن يكون التعريف على رأي السلطان خاصة إذا ما عرفنا بأنه جاء في سياق الرد على بعض العامة الذين خالفوا رأي الفقهاء في شان حرب الأوربيين عام 1886م على

---

(1) 19 ذو الحجة 1292 هـ (15 جانفي 1876م) ، A. O. M. ,30 H8. -

(2) 6 ربيع الثاني 1294 هـ (1877م) ، A. O. M. , 30 H32 -

- الرسالة مؤرخة في رجب 1305 هـ (1888) ، A. O. M. 30 H34 -

(3) 11 جمادى الاولى 1297 هـ (1880م) ، A. O. M. 30H 30 -

(4) نفس الوثيقة .

تخفيض ضريبة العشر فكان جوابهم : ((ما نعطيهم الآ السيف .)) [1] وجاء في تعريفه للجهاد :

((انه قتال أهل الشرك ،والطغيان على اعلاء كلمة الرحمن لينساقوا بذلك الى الدخول في دين الله طوعا أو كرها ،ولكتون كلمة الله هي العليا وكلمة الشيطان هي السفلى مع نفاذ البصيرة وخلوص النية والغيرة على دين الله ، وكل ذلك يشترط القوة المكافئة أو القريبة منها ،ومهما اختل ركن أو شرط مما ذكرنا كان الى الفتنة أقرب منه الى الجهاد .)) [2] وينفي الناصري أن يكون المجتمع المغربي قادرا على الجهاد لكونه في غاية الضعف وقلة الاستعداد [3] . بخلاف ما يؤمن به بعض العامة والطرق المجاهدة ويعزو ذلك الى غياب اجتماع الكلمة وضابط يجمع الناس وقانون يسوسهم . ويضيف قائلا : ((انما همهم (المجتمع المغربي) مأكولهم ومشروبهم وملبوسهم ... حتى لم يبق من هذه الحيثية فرق بينهم وبين نسائهم ... فقصارانا معه (أي العدو) الدفع عن أنفسنا اذا اتفقت كلمتنا ولم تشغلنا غوغاء الاعراب من خلفنا وهيهات فقد جرب ذلك مرارا فصح والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين .)) [4]

حسبنا أن الناصري يبالغ في حكمه هذا على المجتمع المغربي وعلى الطرق والقبائل التي لقنت فرنسا دروسا في تلك الاثناء وكسرت شوكتها غير ما مرة مع قلة عددها وعدتها .

ثم اذا كان هذا هو رأي المخزن في قيمة المجتمع المغربي ـ على النحو الذى عبر عنه الناصري ـ فهو في الحقيقة صادق على نفسية المخزن أكثر منه على قيمة وقدرة

---

(1) الناصري ،ج 9 ، ص 184_185.

(2) نفس المصدر، ص 191 .

(3) نفس المصدر،ص 189 .

(4) نفس المصدر ،ص 190 .

المجتمع ، ومن الغريب أن مثل هذا الرأى يجد ما يناقضه في تقارير الخبراء الفرنسيين الواردة على مكتب المخابرات الفرنسية (المكتب الثاني) طيلة هذه الفترة ، اذ كانت لا تشك في مجملها في قدرة المجتمع المغربي ذى التنظيم القبلي ، في صد الاعداء في حالة تعرض البلاد الى اعتداء لولا اضعاف السلطان لها وانهاك قواها المادية بجمعه للضرائب(1) . واذا كان السلطان يهدف بذلك الى تقوية جيشه فان التقارير ترى بأن المغاربة أكثر قدرة على مقاتلة العدو انطلاقا من المقاومة غير النظامية - أى عندما يتعلق الأمر بالدفاع عن بيوتهم وعائلاتهم وقبائلهم - أكثر من قدرتهم في اطار الجيش السلطاني والدفاع لصالح السلطان(2) . ولنا في حادثة مليلية عام 1893م ما يؤكد صحة هذا الرأى ، اذ نسيت القبائل أحقادها وأقبلت لمساعدة بعضها البعض ضد الاسبان ، فكثر عددها حتى قال أحد قادة الاسبان وهو الماريشال "كامبو" : ((ان قبائل الريف بدلا من أن يرهبها استعدادنا وقتالنا لا تزيد الا جرأة واقداما وهي في ازدياد كل يوم أمام مليلية حتى بلغ عددها ثمانين ألف مراكشي .))(3)

لكن من الانصاف أن نقول بأن الذهنية المغربية كانت على العموم في هذه الفترة ضد كل تغيير ، وكان يقف من ورائها تيار تقليدى قوى يعمل تلقائيا على التشبث بالتقاليد ولو لذاتها ومنها "الوفاء" للاسلام - لا كدين يوظف في العبادة والعمل والمعاملات أو باختصار أسلوب حياة ووسيلة لاسعاد الناس في الدارين - ولكن مقتصرا فيه على القواعد الخمس أو على الجانب التعبدى ... ومن البديهي أن يقف هذا التيار من الرأى العام في الصف المعادى للاصلاح(4) . وقد وصل بعضهم الى حد التساؤل

---

(1) . 1879 /4/ 1er/4 - A. M. G., 3H2, Maroc, le

(2) . 1892 /2/ - A. M. G., 3H6, Fez, le 1er

ملف رقم 61 ، تقرير عن الجيش المغربي .

(3) صبحي ، ص 135-136 .

(4) . 250 -Julien et Autres; "Hassan 1er", J. A. , p.

عن جدوى الاصلاح وماذا عساه أن يحدث من تغيير ايجابي ، طالما لم يعرف الأجداد هذا النوع من الاصلاح ، ومع ذلك فقد كانوا ينعمون بالايمان الصادق .

وكانت مثل هذه الذهنية تتجسد أيضا في مجموعة كبيرة من المظاهر والعادات والتقاليد والبدع الموروثة عن عهود الانحطاط منذ سقوط الموحدين في المغرب وبغداد في المشرق . ومن الأمثلة على ذلك أن بعض أتباع الطرق يشدون الرحال الى مراكز الطريقة الأم كالدرقاويين (1) . كما كان الناس يلجأون الى أضرحة الأولياء عند حدوث بعض الكوارث ، كهبوب العواصف وسقوط الأمطار الغزيرة والفيضانات ، لطلب المغفرة (2) . ومما زاد في تكريس هذه الظاهرة والاعتقاد بها وبغيرها من مظاهر التدجيل ، سهر السلطان على تجديد الأضرحة وترميمها وبناء القبب وغيرها ...
وبالرغم من قوة هذه الذهنية المجسدة في التيار التقليدي ، فان نظام الحماية الدبلوماسية والقنصلية أوجد ما يناقضها تمام التناقض اذ وصل الحال ببعض شيوخ الزوايا والطرق الى حد الارتماء في أحضان دول أوربية ، كما سبقت الاشارة ، بغرض مضادة السلطان واثارة المتاعب له ، ومن الأمثلة الشائعة في هذه الفترة ، طلب الحاج عبد السلام الوزاني حماية فرنسا ، وتم له ذلك عام 1883م وتزوج بفتاة انكليزية (3) .

وفي ظل هذه التقاليد القائمة على الرتين وعدم الاحتراز والافتقار الى الحكمة كان الأوربيون يفعلون فعلتهم في المجتمع المغربي وهذا بشهادة الأوربيين أنفسهم

---

(1) - *Drague*; p. 256 .

(2) حدث ذلك عام 1303 هـ (1888م) عند نزول أمطار غزيرة تهدمت على اثرها بيوت ومات خلق كثير . أنظر :
- <u>الناصري</u> ، ج 9 ، ص 182 .

(3) فكر في طلب الحماية من اسبانيا ثم انكلترا ثم فرنسا ، وكان ذلك عام 1876م ، ولم تتم الموافقة له الا في عام 1883م . أنظر :
- *Drague*; p. 235.

فيتعاطون مهنا متعددة وغير مصرح بها ، مزورين ومهربي بضائع ومديري حانات ومراقص ظل عددها يتضاعف باستمرار في ظل انعدام المراقبة • فلا الزام ولا محاكمة ولا دفعا للضرائب بل كانت المحاكم القنصلية تبدى تسامحا كبيرا معهم (1) • والغريب في الأمر أن هذه الأعمال كلها كانت تقترف من طرف الأوربيين باسم الاصلاح ونشر الحضارة الأوربية !!

وكان السلطان على وعي بما يحدث كما كان صائبا عندما صرح لوزير بريطانيا " هاي " بأنه لم يعد قادرا على المضي في سياسة اصلاحية ، لا ترى فيها الرعية سوى نتائجها السلبية (2) • وبذلك أصبح المضي في سياسة الاصلاح يعني - في نظر العامة - تورط السلطان مع الأوربيين ضد الرعية ، أو ما يعبر عنه " بالعمالة " •

والجدير بالملاحظة أنه في ظل غياب الظروف البشرية الملائمة للاصلاح نسجل غياب الظروف الطبيعية الملائمة أيضا ، اذ عرفت البلاد في عهد الحسن الأول بالذات سنين جفاف أدت الى قلة الانتاج الزراعي وطغيان الاوربيين في ميدان التجارة • فكان أن انعكس ذلك سلبا على الحياة المعاشية للسكان ، فانتشرت المجاعة والأمراض الفتاكة في مناطق كثيرة من المغرب ، كما سيأتي ذلك عند تناولنا للأزمة وتطورها من الوجهة الاقتصادية •

---

(1) • -Miege; Le Maroc, t. III, pp. 260-261

(2) • -Michaux-Bellaire; "L'héritage", R.D.M., p. 418

• -Miege; Le Maroc, t. III, pp. 261-262

2 _ الحياة الاقتصادية :

لم يعرف النشاط الاقتصادي في المغرب الأقصى تطورا كبيرا في هياكله طيلة القرن 19م ، غير أنه تعرض لهزات خطيرة في النصف الثاني منه ، لا سيما مع زيادة التغلغل الأوربي [1].

وقد ظلت الزراعة هي النشاط الرئيسي لأغلبية السكان [2]. وكانت الظروف الطبيعية - من تضاريس ومناخ - تتحكم في انتاجها . وقد مر الانتاج بمراحل ، امتازت بالازدهار تارة وبالانكماش تارة أخرى طيلة الفترة التي تعنينا .

فالأرض الزراعية لم تكن خصبة على العموم ، ما عدا المناطق الساحلية المطلة على الأطلسي والمتوسط ، كالممتدة بين الدار البيضاء ومراكش والصويرة مثلا ، والتي تمتاز بجودة أراضيها [3]. كما أن الظروف المناخية المتذبذبة كانت تقف وراء الركود الزراعي والمجاعات التي عرفتها البلاد . أضف الى ذلك الوسائل التقنية التقليدية المستعملة [4].

ويمكن القول بأن الزراعة على العموم كانت معاشية وتعاني من التأخر ومن ضغوط الضرائب المفروضة على المزارعين [5].

أما طرق الاستغلال وملكية الأراضي ، فيرجع القسم الأكبر منها الى الجماعات

---

(1) -*Brignon*; p. 304. (2) نفس المصدر ، ص 304.

(3) -*A.M.G. 3 H 3, Lalla Marnia, 14/6/* 1882.

(4) نفس المصدر. وكذلك : -*Brignon*, p 304

(5) -*Fontpertuis, "Le Maroc", N.R.,* p. 169.

أو الى المخزن ثم يليهم الخواص والأملاك الحبيسة (1) . وكانت أجزاء من أملاك المخزن تابعة اما لقبائل تم توطينها أو ترحيلها أو لمجموعة من الجيش النظامي أو لقبيلة تقطع أرضا مقابل حماية المنطقة ووضع نفسها رهن اشارة المخزن عندالاقتضاء. وهناك أيضا التنفيذات التي تخصص لأفراد أو عائلات أو زوايا اما بمقابل أو بدونه (2) . وهكذا فقد كانت أغلب الملكيات جماعية . وكان متوسط الملكية خمسين هكتارا في طنجة مثلا . ويتم الاستغلال المباشر للأرض في الملكيات الصغيرة على أن يستعين ذوو الملكيات الواسعة بالخماسة (3) . وقد شهد النصف الثاني من القرن 19م اهتماما متزايدا بالري والزراعة ، لا سيما في عهد السلطان محمد بن عبد الرحمن (4) .

ويتنوع الانتاج الزراعي ، فياتي محصول الحبوب في مقدمته ، من قمح وشعير وحنطة ، الى جانب الكروم في مناطق الا طلسي (5) . وكانت الخضر تزرع في غالب الأحيان حول المدن . ومن محاصيلها ، الكرنب والجزر واللفت والفلفل والحمص وكذلك الفول والعدس وغيرها ... (6) . وعرفت زراعة القطن توسعا هاما بدكالة منذ عهد السلطان محمد ، واستمر تخصيص مساحات هامة لها في عهد الحسن الأول ، وتوسيع زراعتها بمنطقة الحوز ، ادراكا منه لأهميتها ووزنها الثقيل في المبادلات التجارية . وقد كان القطن يجلب من بريطانيا (7) .

---

(1) حركات ، ج 3 ، ص 497 . (2) نفس المصدر ، ص 497 .
(3) -*Brignon*; p. 304 . (4) حركات ، ج 3 ، ص 496 .
(5) نفس المصدر ، ج ، ص 498 .
(6) -A.M.G. 3 H 3, *Lalla Marnia, le 14/6/1882* .
-*Brignon*; p. 305 .
- وكذلك : حركات ، ج 3 ، ص 496 .
(7) -*Miege*; *Le Maroc* , t. IV , p. 124 .

أما الأشجار المثمرة فقد كانت بدورها متنوعة ، ومن أهمها شجر الزيتون الذى يغطي مساحات شاسعة على السواحل وكذلك بمنطقة الريف ، ثم البرتقال واللوز والجوز والتين وغيرها (1).

وهناك أيضا زراعات أخرى أقل أهمية ، كالحناء والكتان والحشيش (الأفيون) والترفاس (2). وكانت غابات المغرب الأقصى تشتمل على أشجار البلوط في المعمورة والأرز في الأطلس والهرجان جنوب الأطلس فضلا عن أشجار اخرى أقل امتدادا كالصفصاف والعرعر والصنوبر وغيرها ... (3).

وفي ميدان الثروة الحيوانية يتوفر المغرب على أنواع عديدة كالغنم والماعز والبقر والخيل والبغال (4).

وقد كانت المحاصيل الزراعية سواء من حيث الانتاج أو التطور ، تتحكم فيها عوامل عديدة كما سلف . وعلاوة على ذلك فلم يعتن المخزن العناية الكافية بالشؤون الزراعية رغم خصوبة التربة وقابليتها للانتاج الوفير. كما أن الفلاح نفسه لم تكن لديه الرغبة في زيادة المحصول لأنه يعرف أنه سوف يحرم من ثمرة كده بسبب ما كانت تفرض عليه من الضرائب (5) . ومع ذلك تبقى الظروف المناخية أكثر وطأة على

---

(1) .1882 -A.M.G. 3 H 3, *Lalla Marnia, le 14 Juin*
— حركات ، ج 3 ، ص 498 .

(2) حركات ، ج 3 ، ص 498 . (3) نفس المصدر ، ص 498 .

(4) . 1882 -A.M.G. 3 H 3, *Lalla Marnia, le 14 Juin*
-Brignon; p. 305 .

(5) صبحي ، ص 115 .
و حركات ، ج 3 ، ص 498 .

الانتاج من ذلك ، فقد عرف الاقتصاد الزراعي أزمات خطيرة ، أهمها أزمة 1878م (1295 هـ)(1).

بدأت أزمة الانتاج الزراعي بعد نزول المطر منذ خريف 1877م (1294هـ) في أقاليم حاحه والسوس والرحامنه والحوز(2) ، فكان موسم الحصاد لصيف 1878م رديئا جدا . ومما زاد في تفاقم الوضع أن عرفت جنوب البلاد - في نفس السنة - موجة من الجراد أتت على ما تبقى من يابس . وسرعان ما انجر عن هذا الوضع ارتفاع في الاسعار وصل 300 ٪ في بضعة أسابيع . وبدأت الحيوانات تموت ، الأمر الذى حدا بالفلاحين الى بيعها بأثمان رخيصة فوصل سعر البقرة خمسة فرنكات وسعر الشاة فرنكا واحدا(3).

لم تخف حدة الأزمة الا في سنة 1882م (1299 هـ) لتنتهي عام 1885م (1302 هـ) ، حيث كانت هذه السنة جيدة المحصول ، امتلأت فيها " المطامير"(4). واستمر الرخاء الى نهاية حكم الحسن الأول(5).

ولم يعرف النشاط الصناعي التقليدى - الذى كان قائما - تطورا يذكر نظرا لاستمرار استعمال الوسائل التقليدية وطرق الانتاج البدائية(6). ومع ذلك فاننا نسجل

---

(1) نفس المصدر ، 501 .
(2) سقطت أمطار في الشمال ولكنها لم تكن كافية .
ـ أنظر : - Miege; Le Maroc, t. III, p. 382
(3) نفس المصدر ، ص 383 ؛
(4) - Miege; Le Maroc, t. IV, p. 87 .
(5) هذا اذا ما استثنينا سنة 1891م (1308 هـ) التي ظهر فيها الجراد مع شهر ماى . وكذلك موسم حصاد 1892م الذى كان دون مستوى السنوات العادية . أنظر :
- Miege; Le Maroc, t. IV, pp. 89-91.
(6) - Fontpertuis; " Le Maroc ", N. R., p. 169.

قيام بعض الصناعات - خاصة قبيل وأثناء الفترة التي تعنينا - وقبل التطرق لهذه الأخيرة من حيث المؤسسات والانتاج ، نشير الى توفر المغرب على ثروات معدنية ذات أهمية ، منها الحديد والذهب والفضة في مناطق درعة والسوس على الخصوص . وأما استغلالها فقد كان جزئيا وبوسائل بدائية [1] .

وكانت بعض المواد تستورد من أوربا كالحديد مثلا [2] ، وتقوم على أساسها صناعات يدوية وأخرى كثيفة نسبيا .

وتتركز الصناعات عموما في المدن . ومن أهمها فاس التي تعد أكبر مدينة للصناعات اليدوية ، ومن منتجاتها حوائك الصوف والسبنيات [3] والطرابيش وثياب الكتان ، والبلاغي والسروج ، والأواني النحاسية والحلي والمصنوعات من الذهب والفضة والمضحات والأسلحة والزرابي [4] وغيرها كثير . . .

وتلي فاس ، تطوان ، وتعد مدينة ذات صناعات يدوية كثيفة . وقد بلغت أوجها في القرن 19 م . ومن منتجاتها خيام لتموين الجيش والمخزن ، وملابس الجيش . كما يصنع بها ويخاط أنواع من الثياب كالكمخة والجيم . وتنتج أيضا الآلات الحديدية كصفائح الخيل والمسامير فضلا عن الذخيرة وسلاح القنابل والمكاحل والكبريت وغيرها [5] .

ولما كان السلطان مقتنعا بحاجة البلاد الى الصناعة وفي اطار مشاريعه الاصلاحية ، قام بعدة خطوات في هذا الميدان . فاهتم بالبحث عن المعادن واستخراجها

---

(1) حركات ، ج 3 ، ص 502 .

(2) نفس المصدر ، ص 502-503 .

(3) أغطية الرأس وتصنع من الحرير .

(4) حركات ، ج 3 ، ص 503 .

(5) نفس المصدر ، ص 503 .

وعلى الرغم من اكتشاف الكثير منها الا أن السلطان وقف حائرا في كيفية استخراجها · وقد دفعه خوفه من الفنيين الأجانب الى محاولة الاعتماد على الفنيين المغاربة القليلين جدا[1] · ومن الأمثلة على ذلك محاولة استخراج الفحم بضواحي طنجة عام 1883م (1300 هـ)[2] · ثم الرصاص والنحاس في منطقة السوس والكحل بضواحي سبته · الا أن الحسن الأول عدل عن هذه الجهود أمام تنافس الدول الأوربية · وقد قام أيضا بتكليف " سي قدور الفلاح " من مدينة الجديدة وذلك بين 1886م و1888م (1303 هـ)، باستغلال منجم الحديد قرب مدينة " جبل الحديد " وكذلك منجم الرصاص والنحاس جنوب تارودانت (آيت ابراهيم) الا أنه فشل في النهاية بسبب قلة الفنيين ووسائل النقل اللازمة[3].

وكان الحسن الأول ولوعا باقامة المصانع كمشروع بناء معمل للزجاج بضواحي طنجة عام 1875م (1292 هـ)[4]، واعادة تشغيل معمل السكر 1893م (1310 هـ)، الذي كان قد أنشأه والده محمد بمراكش · ومعمل القطن بنفس المدينة عام 1891م (1308 هـ)، وطاحونة بخارية[5].

وكانت عناية المخزن بالتسليح كبرة مما يفسر اهتمامه ببناء معمل للسلاح شرع في تأسيسه عام 1891م (1308 هـ)، و "دور البارود" في مدن فاس ومكناس والرباط وطنجة[6] · وفي هذه السنة بالذات شرع في انجاز معمل لانتاج العملة · كما فكر

---

(1) ابن عبود، تاريخ، ص 89-90 ·

(2) توقف المشروع على اثر مؤامرة " Chavagnac " ·

(3) - Miege; *Le Maroc*, t. IV, p. 125 ·
- *Brignon*; p. 317 ·

(4) نفس المصدر، ص 317 · وكذلك : -Miege; *Le Maroc*, t.III p. 218-219

(5) - المنوني، ص 77 - 79 · - حركات، ج 3، ص 503 ·
- Miege; *Le Maroc*, t. III, pp. 218 - 219

(6) - المريني، الجيش، ص 83 · - المنوني، ص 65-73 ·
- حركات، ج 3، ص 503 ·

السلطان عام 1892م في بناء أفران لتذويب الحديد ، والتخلص من التبعية الأجنبية في هذا الميدان [1] ، ولو أنه عدل عن المشروع أيضا .

ومما يذكر أنه جرب بمراكش معملا للنور ، كما جرب الهاتف والقطار [2] .

ومع تعدد هذه الجهود الاصلاحية في ميدان الاقتصاد الصناعي فان النتائج انحصرت أو كادت تنحصر في مصانع انتاج المنسوجات والأسلحة والذخائر. ولم تكن هذه كلها تلبي حاجات المغرب [3] .

وقد ساهم التنافس الأوربي على مختلف المشاريع في افشالها في النهاية . ويمكن القول بأن تراجع السلطان عن الكثير من المشاريع لدليل أيضا على تفطنه لنوايا الأوربيين الهادفين الى جر البلاد الى الافلاس والتبعية التي من شانها أن تسقط المغرب تحت " حماية " دولة او دول أوربية .

ولما كانت المواصلات تعد العنصر الأساسي في تنشيط الاقتصاد عموما والتجارة على الخصوص فقد فكر السلطان - سواء بمحض ادراكه أو بوحي من الأوربيين في اقامة مشاريع عديدة ولو ان الكثير منها بقي حبرا على ورق .

وهكذا ، فعلى صعيد التبادل الداخلي سعى السلطان الى فتح طرقات وبناء جسور. وفي هذا الاطار ، عاد السلطان في سنة 1876م (1293 هـ) الى مشروع والده الذى يقضي باقامة جسر من حديد بآزمور على وادي ام الربيع ، لتسهيل عملية المرور بين مدينتي الدار البيضاء والجديدة [4] .

---

(1) Miege; <u>Le Maroc</u>, t.IV , p. 125 .

(2) ابن عسبرد ، تاريخ ، ج 2 ، ص 92 .

(3) حركات ، ج 3 ، ص 503 .

(4) Brignon, p.316. - Miege; Le Maroc , t. III, p. 220.
تم طلب هذا الجسر من انكلترا في عهد السلطان محمد بن عبد الرحمن .

وكان دائما يرغب في تحقيق المشاريع بسواعد مغربية لذلك سعى عام 1886م (1303 هـ) الى بعث طالبين الى ايطاليا لدراسة هندسة الجسور والطرقات[1]، لكن ظروف الحاجة الملحة دفعته الى الاستعانة بعناصر اجنبية فرنسية مثلا[2]. وكان السلطان ينوي ايضا مدّ سكة حديدية لربط أهم المراكز التجارية ببعضها ، منها التفكير في ربط فاس بمكناس بواسطة السكة الحديدية ، وفاس بمراكش. وكان ذلك عام 1887 م (1304 هـ). الا أن السلطان تخلى عن المشروع كعادته أمام تنافس الدول الأوربية[3].

وقد أخذت الموانئ حظا كبيرا من اهتمام الحسن الأول ، نتيجة ازدياد أهمية التبادل التجاري البحري مع أوربا. وكانت مشاريعها قد انطلقت منذ عهد السلطان محمد بن عبد الرحمن وتواصلت في عهد الحسن الأول.

ومن هذه المشاريع نذكر بناء رصيف بطنجة لنزول المسافرين ورصيف آخر مجهزا برافعة أثقال بالرباط. ومكسر أمواج في موانئ الصويرة والدار البيضاء وطنجة[4]. كما زود هذه الموانئ بجرارات لمساعدة السفن على عبور الحاجز[5]. وكذلك تجهيزه سنة 1885م (1302 هـ) لبعض الموانئ بمنارات ، كالدار البيضاء ورأس "أشقار"[6]. ومن الموانئ التي أنشأها السلطان في الجنوب ميناء "آسا" بالسوس[7]. هذا في

---

(1) .125-126 Miege; *Le Maroc*, t. IV, pp. -

(2) A.M.G. 3 H 6, Med Gharnit, 23 Ramad. 1308 (2/5/1891) -

(3) .316 Brignon; p. -

.125-126 Miege; *Le Maroc*, t. IV, pp. -

(4) فشل السلطان في بعضها كالدار البيضاء بسبب المعارضة الاسبانية.

(5) كانت هذه الجرارات في عام 1892م موزعة على النحو التالي :

جرارين لكل من طنجة والدار البيضاء ، واحد لميناء الجديدة ، وآخر لميناء الرباط ، وجرار لـ"الصويرة". انظر : .128 Miege; *Le Maroc*, t. IV, p. -

(6) يقع بين طنجة وصيلا.

(7) *حركات* ، ج 3 ، ص 503.

الوقت الذي فشلت فيه مجموعة من المشاريع الأخرى كمشروع الملاحة بنواحي " سبو " وتهيئة ميناء بالمهدية (1).

وقد عمل السلطان منذ 1881م (1298 هـ) على انشاء بحرية كنتيجة لازدياد المنافسة الشديدة بين الشركات الملاحية التجارية الأوربية ، فأقدم على شراء بعض السفن كال"حسني " و " البشير" (2).

وكانت فرنسا في هذه الأثناء تمارس ضغوطا على السلطان وتسعى لامداد مشروع السكة الحديدية من وهران الى فقيق ، ومنها الى القنادسة فتوات . لكن السلطان أبدى معارضة شديدة للمشروع (3) ، بسبب النوايا السيئة للفرنسيين . وظل موقفه كذلك الى نهاية حكمه .

ويمكن تقسيم التجارة المغربية في هذا العهد الى قسمين رئيسيين ، فهناك التجارة الداخلية والتجارة الخارجية . وتنقسم الاخيرة بدورها الى تجارة القوافل (الصحراء) وتجارة البحر التي تتم مع الدول الأوربية .

كانت التجارة الداخلية تمارس من خلال الأسواق الأسبوعية بالبوادي والأسواق اليومية بالمدن والمعارض ، كمعرض " سيدي احمد أو موسى " . وكان خط التبادل الممتد من تطوان الى فاس ثم تافيلالت هو أكبر وأهم خط تجاري داخلي . أما الطريق الثاني من حيث الأهمية فيربط بين السوس والحوز والشياظمة وحاحة ، ويمتد أحد فروعه الى ناحية الأطلس مارا بأمنزميز وتينل ثم السوس . وآخر الى يمين تانوت ويمر عبر معاشو و " بيلباوان " (4).

---

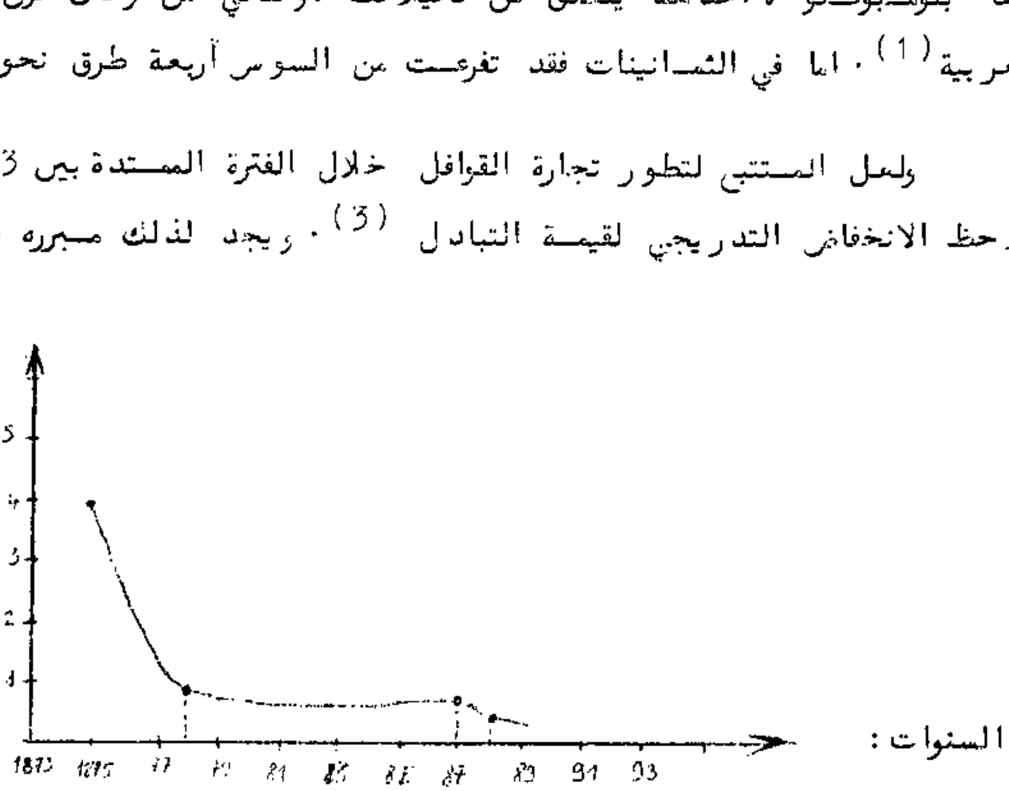
(1) -Miege; Le Maroc, t. III, p. 220; et t. IV, 125 à 128.
-Brignon; pp. 316-317.

(2) المنوني ، ص 63-64 .

(3) -Miege, Le Maroc, t.IV, pp.41-44 . (4) حركات ، ج 3 ، ص 504 .

كانت تربط المغرب علاقات تجارية مع افريقيا الغربية من خلال طريقين يتصلان معا "بتومبوكتو"، أحدهما ينطلق من تافيلالت، والثاني من وادي نون مرورا بالصحراء الغربية(1). اما في الثمانينات فقد تفرعت من السوس أربعة طرق نحو تومبوكتو(2).

ولعل المتتبع لتطور تجارة القوافل خلال الفترة الممتدة بين 1873م و1894م، يلاحظ الانخفاض التدريجي لقيمة التبادل (3). ويجد لذلك مبرره في عدة عوامل



رسم بياني لقيمة التبادل مع افريقيا الغربية (1876-1888م)(4)

منها ارتفاع قيمة تكاليف النقل بين 1875م و1885م(4). ومنها أيضا جهود حكام السنغال في تغيير اتجاه التجارة نحو "سان لوي" وكذلك الى المنافسة بين المؤسسات التجارية في

---

(1) نفس المصدر، ص 506. (2) نفس المصدر، ص 509.

(3) مهما كان انخفاض قيمة التبادل فلا زالت الى سنة 1887 ذات أهمية اذ وصل عدد الجمال المحملة بالمواد والتي غادرت المغرب انطلاقا من سيدي احمد أو موسى نحو تومبوكتو حوالي 5.000 جمل. انظر : -Miege; Le Maroc, t. III, p. 366.

(4) نفس المصدر، ص 360-361. وكذلك : - Brignon; p. 307

- ارتفعت تكاليف النقل من معدل 350 فرنك الى أكثر من 415 فرنك لحمولة جمل تقدر بـ162 كلغ وهذا بين تومبوكتو والصويرة. أنظر : -Miege; Le Maroc, t. III, p.359-360

كل من الطرفاية والصحراء الغربية ، فضلا عن زيادة الفارق بين تكاليف النقل البحرية ونقل القوافل وتنافس الأسواق الجديدة ،وتوجه قوافل الحجاج نحو البحر ، وأخيرا استيلاء فرنسا على الصحراء وبالتحديد توسبوكتو وذلك عام 1894م (1).

أما عن المواد المصدرة الى توسبوكتو فهي متنوعة . بعضها من منتوجات المغرب و بعضها مستورد أصلا من اوربا وأمريكا والبعض الآخر من الشرق الأقصى ، ومنها القطن والكتان والسكر والشاي والشمع والكبريت والكؤوس والمرجان وعقد الكهرمان والجوهر والمحار ومسامير النحاس والصوف والقطن المصنوع بفاس وجوز الطيب والقرنفل والفلفل والزنجبيل والودع الأصفر (2) والكيف والملح والتبغ (3).

ويستورد المغرب مقابل ذلك من توسبوكتو مواد كالتبر والمصنوعات الذهبية والفضية وريش النعام والصمغ المغربي والسينغالي والجوز وبطانيات السودان والرقيق (4).

وكان الرقيق يصلون الى تندوف عبر توات . وقدر عددهم بين 500 و1000 في السنة وذلك في خلال الفترة الممتدة بين 1875م و1885م . ويصل الزبائن من كل نواحي المغرب. وكان بكل مدينة سوق على ان سوق مراكش يعد من أكبر الأسواق (5).

ويلاحظ على التجارة الخارجية المغربية تغيرات فيما يتعلق بتيارات التبادل . وقد ترك اتجاه المغرب نحو الأطلسي آثارا سيئة على تجارة القوافل ان لم نقل بأنه كان على حسابها (6). وتجدر الملاحظة أيضا بأن التبادل مع أوربا تضاعف بين 1830م ونهاية القرن 19م بنحو عشر مرات (7) ، وهو ما يفسر انفتاح المغرب على أوربا وفي

---

(1) - Brignon; p. 307.

(2) عملة عدد من الشعوب الافريقية.

(3) - Miege; Le Maroc, t.3, p.366. وكذلك : حركات ، ج 3 ، ص 508-509.

(4) نفس المصدر ، ص 509.

(5) - Miege; Le Maroc, t.3, pp.363-364.

(6) - Brignon; p. 307.

(7) نفس المصدر ، ص 305.

ميدان الاقتصاد التجارى بالذات .

والمتتبع لتطور التبادل خلال الفترة يصل الى أن ذلك الانفتاح لم يكن تصاعديا باستمرار ولكن التطور يشكل منحنى غير منتظم، مما يفسر لنا تموج الاقتصاد المغربي كما تشكل تقعرات المنحنى سنوات الانتاج الرديئة والقحط الذى أصاب المغرب خلال الفترة ، والذى كان من نتائجه انخفاض الانتاج والتصدير فضلا عن انخفاض القدرة الشرائية للعامة (1) .

وقد قدرت قيمة التبادل بين 1874م و1877م بنحو ثمانية وخمسين مليون فرنك فيما تنخفض الى نحو اربعين مليونا عام 1878م لتتراوح بين اربعة وثلاثين واربعين مليون فرنك خلال الفترة الممتدة بين 1879م و 1884م (2) .

وهكذا ففي خلال الفترة الممتدة بين 1874 و 1884م يلاحظ المرء انخفاضا يقدر ب45 ٪ من صادرات المغرب نحو اوربا ، و28 ٪ في وارداته . والى غاية 1878م كان الازدهار الاقتصادى المغربي في صالح التصدير لكنه ابتداء من سنة 1878م انقلب الوضع ليصبح الفارق بين قيمة التصدير والاستيراد في تضاؤل مستمر وينخفض بذلك الميزان التجارى تدريجيا الى أن يصبح سالبا ابتداء من 1892م (3) .

وقد حاول المخزن معالجة الوضع الاقتصادى في اطار الاصلاح ، معالجة تهدف أساسا الى انعاش الاقتصاد للحفاظ على استقرار البلاد ، ويتم ذلك من خلال التقليل من استيراد المواد ذات الاستهلاك العادى ، بقصد تمويل المخزن في مشاريعه الاصلاحية لكن هذا الميدان كغيره ، ظلت نتائجه دون الأهداف المرسومة له (4) .

ومما تجدر الاشارة اليه أن سنة 1885م (1302هـ) كانت سنة جيدة المحصول

---

(1) نفس المصدر، ص 305 .

(2) Miege; Le Maroc, t.3, p.419.

(3) Brignon; p. 306 .

(4) نفس المصدر، ص 316 .

الزراعي . وصادف في هذه السنة أيضا (أواخر صفر 1302 هـ) ان استوفى الاسبان ما تم الاتفاق عليه في حرب تطوان - من أن كل فريق من أمناء المغرب واسبانيا يستوفي نصف دخل المراسي [1] - وبدأ يعم الرخاء ،فأقدم السلطان في عام 1886م (1303هـ) على اسقاط المكوس من سائر الأبواب بالمدن والقرى المغربية [2] . ولما كان الأوربيون ومحميوهم ملزمين كسائر المواطنين بدفع غرامة الوظائف المخزنية المترتبة على الأبواب فان مثل هذه الاجراءات السلطانية أثارت ثائرتهم خاصة وأن همهم الوحيد هو الاستغلال والعمل على افلاس الدولة ، لذا نجدهم يطالبون عام 1886م بتنقيص "ضريبة الأعشار" والضرائب المفروضة على السلع المصدرة وتسريح تصدير بعض السلع ، كالحبوب والأنعام والبهائم وغيرها [3] .

وكان الأوربيون قد جعلوا السلطان بهذه المطالب في موقف حرج وأمام حلين أحلاهما مر: فالضرائب الموظفة تعد دخلا لبيت المال يقوم عليها المخزن والجيش ومصالح الرعية ، لذا فاسقاطها على الأوربيين يعني فرضها على العامة ،الأمر الذى يزيد في غضب الرعية على المخزن، ولكن استمرار فرضها على الأوربيين ومحمييهم ليس أقل خطورة أمام اصرار هؤلاء وحرصهم على الغائها أو التنقيص منها . وكان السلطان يخشى حربا هو عاجز عن خوضها .

وأمام هذا الموقف الحرج راح الحسن الأول يستفتي الرعية والعلماء . وكان جوابهم أن ((لا نعطيهم الاّ السيف ...)) فرد السلطان في جواب مطول محاولا

---

(1) - *A.M.G. 3H3, Rapport de la mission militaire française, envoyé au Maroc, Mars-Avril 1882, p. 167.*
- الناصري ،ج 9 ، ص 177-178 .

(2) نفس المصدر ، ص 179 . وكذلك : المنوني ، ص 83 .
- واستصدر في سنة 1887 فتوى بتحريم تجارة الأعشاب المخدرة . أنظر : الناصري ،ج 9 ،ص 192-193 . وكذلك : حركات ،ج 3 ،ص 286 .

(3) الناصري ،ج 9 ،ص 182 - 183 .

اقناع العامة من جهة الفقه والحكم الشرعي ،ومن جهة الرأى والسياسة ، ومن جهة الفهم لكتاب الله (1) .

والحق أن بعض ما ذهب اليه السلطان في جوابه لقريب من حيث تأويله لآيات قرآنية وأحاديث نبوية ومواقف للسلف الصالح ، وكانت غايته مع الرعية هي انتزاع الموافقة منهم تجاه ما يطالب به الأوربيون ،ولا شك أن ذلك كان بتأييد بعض العلماء له أيضا .

ولما فهم بعض الفقهاء مقصده هذا راحوا يساندونه ،وحجتهم أن المشورة ليست الا مع أهل الحل والعقد وهم أهل العلم والدين وبأن " ما اختاره أمير المؤمنين اخترناه." فكانت النتيجة أن سمح السلطان للأوربيين تصدير القمح والشعير ثلاث سنين وخفف عنهم الضريبة نحو الربع (2) .

وكانت التجارة الخارجية مع دول أوربا تتم عبر خطوط منتظمة و بواسطة بواخر انكليزية (Forwood) وفرنسية (Cie Paquet) وألمانية (-Olden bourg Portügiesche) . وتقوم هذه البواخر بربط موانئ المغرب بموانئ أوربية عديدة كجبل طارق ومرسيليا ولندن وهامبورغ وغيرها (3) .

وكانت السلع المصدرة كثيرة وذات أنواع تختلف عبر الفترة . ففي السبعينات (من 1873م الى 1877م) كان المغرب يصدر الحبوب من فول وذرة وحمص وقمح وكذلك

---

(1) نفس المصدر ، ص 184-192 .

(2) نفس المصدر ، ص 192 .

كانت السلع المستوردة تفرض عليها ضريبة تقدر بـ10٪ ، كما تفرض عليها ضريبة أخرى للمكس عند دخولها أو خروجها من المدينة . وكانت الضريبة الأخيرة تقدر بنحو فرنك ونصف لحمولة الجمل الواحد . أما المواد المصدرة فتختلف الضرائب المفروضة عليها باختلاف نوع السلع . أنظر : A.M.G. 3H3, Rapport de la mission militaire française envoyé au Maroc, Mars-Avril 1882, p. 166-167.

(3) -Ayache; Le Maroc, p. 55.

الأصواف نحو انكلترا واسبانيا وفرنسا وبلجيكا والبرتغال (1) . وتقدر هذه المواد بالملايين سواء من حيث الوزن أو القيمة . أما في الثمانينات والتسعينات ، فكان المغرب يصدر الى أوربا زيت الزيتون والارغان والجلود والأصواف والحلفاء والأقمشة والزرابي وأحصرة الرباط النحاسية والليمون والتمور والصمغ ، واللوز والشمع وريش النعام المستورد من السودان وغيره . وكذلك القمح والشعير والخردل (2) .

أما المواد المستوردة فقد تركزت ، أثناء أزمة الجفاف ، على المواد الغذائية كالسكر والشاي والحبوب وكذلك القمح اللين . بالاضافة الى سلع أخرى كالتوابل والكتان والشمع والعبر والحديد والزنك وصفائح النحاس والألبسة والبترول ومواد البناء وغيرها . ويمكن القول بأن نسبة 90 % من الواردات كانت تصل من فرنسا وانكلترا (3) .

وقبل أن نختم هذا العنصر لابد أن نشير الى أن هنالك قضايا لها علاقة بالاقتصاد عموما والتجارة على الخصوص وكانت تتطلب علاجا في الفترة المعنية ، كمشكلة العملة المغربية التي ((كانت تروج الى جانبها عملات أجنبية مختلفة .)) (4) بسبب احتياج المغاربة لها سواء في شراء حاجياتهم من الخارج أو في بعض معاملاتهم الداخلية (5) .

---

(1) - Miege; <u>Le Maroc</u> , t. III, pp. 239-246.

(2) - A.M.G. 3H3, Rapport de la mission militaire, 3-4/1882.
-A.M.G. 3H7 , Tanger , le 26 Aout 1893.
- <u>Kerdec</u>; pp. 170-171.
-Miege; <u>Le Maroc</u>, t. IV , p. 200.

(3) -A.M.G. 3H3 , Rapport, 3 - 4/1882.
- <u>Brignon</u>; p 307 .
-Miege; <u>Le Maroc</u>, t. III , pp. 247-254, et pp. 425-426.
- Ayache; <u>Le Maroc</u> , p. 53.

(4) كالعملة الفرنسية والاسبانية والانكليزية ، وتستعمل في المبادلات التجارية .

(5) <u>المنوني</u> ، ص 83-84 .

وكانت العملة المغربية تقوم على أساس الأوقية فالريال فالمثقال فالموزونة فالفلس (1) . ومن القطع الرائجة أيضا ، قطعتان فضيتان ، هما " الدرهم الكبير " و" الدرهم الصغير " (2) ، فضلا عن قطعة ذهبية (3) تقدر بـ مائتين وأربعين أوقية (4) .

---

(1) تقدر الأوقية بنحو 6 سنتيمات ، أما الريال فيتراوح بين 85 و90 أوقية ، ويقدر بـ 5 فرنكات فيما يقدر المثقال بـ10 أوقيات ، والأوقية تساوي 4 " موزونات " ، والموزونة تقدر بـ 6 فلوس ، وهي قطع صغيرة من النحاس وخليط من الزنك . وكانت الفلوس أكثر استعمالا .

(2) يقدر " الدرهم الكبير " بـ6 أوقيات ونصف ، و" الدرهم الصغير " يقدر بـ 3 أوقيات وربع .

(3) تقدر بـ 240 أوقية أي ما يعادل 14 فرنكا و40 سنتيما فرنسيا وقتذاك .

(4) - A.M.G. 3H3, *Rapport de la Mission militaire*, 3-4 / 1882 .
- Brignon; p. 310 .

3 ـ التطور الثقافي :

ليس من السهل تناول الحياة الفكرية والأدبية لعهد السلطان الحسن الأول دون ربطها بالفترة السابقة لها واللاحقة ، اذ لم يكن التطور الثقافي ومؤسساته خاضعة للسياسة قدر خضوعها للتطور التاريخي لحضارة عربية اللسان ، اسلامية التصور والتفكير ، حضارة كانت في طور الانحطاط والسقوط وكانت الهياكل السياسية كذلك ، كما سلف .

ومن المهم أن نلاحظ بأنه قد واكب فترة انحطاط هذه الحضارة بروز أضغاث أحلام حاولت أن تشعر الناس ـ عامة وخاصة ـ بالخطر الداهم الذى يهدد مصائرهم بحكم خروجهم عن الجادة في أمور الدين والدنيا .

واذا جاز لنا أن نقول بأن ثمار أضغاث الأحلام[1] قد ساهمت في تنمية الوعي الاسلامي والاجتماعي في الأوساط المغربية ، فان الأحداث التي جدت في المغرب ـ قبيل منتصف القرن 19م ـ قد حولت الانتباه الشعبي والرسمي الى الجوانب السياسية والعسكرية.[2] ذلك أن هزيمة " ايسلي " دفعت المغاربة الى محاسبة أنفسهم واقتناعهم بضرورة التجديد العسكري[3] ، فانحرفوا بذلك عن الخط السليم ، وراحوا يعالجون لا المرض ولكن أعراضه .

---

(1) وقعت محاولات جادة لاصلاح التعليم ، قام بها السلطان محمد بن عبد الله ، عاصرت حركة الاستنارة التي عرفتها اوربا في القرن 18م على الخصوص . فكان ان استقرت الدراسة في القرويين وأصبحت ذات طابع لا يختلف عما هو عليه في الأزهر والزيتونة . وقد أصدر مولاى سليمان (1795ـ1822م) رسالة نحا فيها منحى يميل الى السلفية الصحيحة . أما السلطان عبد الرحمن فقد جدد المنشور الاصلاحي للسلطان محمد بن عبد الله .

(2) الفاسي ، حديث ، ص 6 ـ 7 .

(3) نفس المصدر ، ص 6 ـ 7 .

وكذلك : الحركات ، ص 85 ـ 86 .

ومهما كان الانحراف فقد اعتبرت تلك الهزيمة الفجر الأول للنهضة المغربية الحديثة (1) وبدايات الاصلاح . وارتفعت الدعوة الى ضرورة العودة بالأمة الى ما كانت عليه في عهد سلفها الصالح من تمسك بالدين وعمل بمقتضياته . وتبعا لذلك بدأت تظهر في المغرب حركة أدبية (2) .

وما أن حكم السلطان محمد بن عبد الرحمن حتى انطلقت محاولات جادة ـ نسبيا ـ في ميدان الاصلاح . فدعا شخصيا الى نبذ الأساليب العتيقة ، وشجع التأليف ، وشرع في انشاء مدارس علمية ، كمدرسة الفنون التي تخرج منها البعض ، فيما أرسلت بعثات لاتمام الدراسة في أوربا (3) ومصر (4) . ودخلت المطبعة الى المغرب الأقصى في هذا العهد بالذات (5) .

ولما اعتلى السلطان الحسن العرش المغربي ، عمل على مواصلة جهود أبيه في مختلف الميادين ومنها الميادين الثقافية .

وقبل الخوض في التطور الثقافي لهذا العهد ، يجدر بنا أن نتناول بادئ ذي بدء

---

(1) الفاسي ، الحركات ، ص 85ـ86 .

(2) أنشد الشعراء قصائد الرثاء لما جرى ، والتحذير مما يمكن أن يقع . وألف الكردودي رسالته : " كشف الغمة بأن الحرب النظامية واجبة على الأمة " . انظر :
ـ الفاسي ، الحركات ، ص 86 .

(3) نذكر الجباص علي سبيل ، وهو محمد الجباص الفاسي ، كان من بين الخمسة عشر طالبا مهندسا الذين ترزعوا على بلدان أوربية لتعلم اللغات ، فكان أن توجه الجباص الى انكلترا حيث قضى خمسة أعوام ثم رجع وصار في خدمة السلطان . أنظر :
ـ المنوني ، ص 124 .

(4) كمحمد العلمي مخترع الآلة ذات الشعاع والظل ومؤلف كتب في الطب . وكذلك الجغرافي احمد شهبون ، وأيضا محمد بن تيران . أنظر :
ـ السائح ، ص 245ـ246 .

(5) نفس المصدر ، ص 245 ـ 246 .

النظام التربوي والوسائل الثقافية . ففي هذا العهد كما في العهود المتأخرة ، بقي النظام التربوي نظاما تقليديا ، ولم يعرف عهد الحسن في هذا الميدان سوى مواصلة انشاء بعض المدارس وارسال بعثات طلابية الى الخارج .

ترى كيف كان يسير النظام التربوي ؟ وما هي مؤسساته ؟ وكيف كانت تتم طريقة التلقي ؟

مما لا شك فيه أن " الكتاب " (1) هو أول المؤسسات التعليمية لهذا العهد في المغرب الأقصى ، كما في جل بلاد العالم الاسلامي (2) . وقد عرف في مدينة فاس بالمسيد (3) أو بالجامع — أحيانا — خارجها (4) .

والكتاب ، سواء كان في المدينة أم في البادية هو بمثابة المدرسة ، يلتحق به الولد والبنت في سن الرابعة أو الخامسة من عمره ، ولا يغادره الا في سن الثانية عشر وحتى الثامنة عشر أحيانا (5) .

ويقوم " الطالب " في الكتاب بمهمة التربية (6) وهو في الوقت ذاته امام مسجد ومؤذن (7) .

يجلس المربي في المحراب أو في ركن من الأركان ويجلس أمامه الأولاد على حصير . وكان برنامج التعليم يتلخص في حفظ كتاب الله حفظا يعتمد على الذاكرة وشحذ

---

(1) مشتق من التكتيب وتعليم الكتابة . وهو موضع تعليم الكتابة .

(2) عرف هذا النوع من المؤسسات انتشارا كبيرا في عهد الموحدين . أنظر :
— محمد بن تاويت ، ومحمد الصادق حفيفي ، الأدب المغربي ط ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1966 ، ص 80 — 81 .

(3) تحريف لكلمة مسجد وتمييزا له عن المسجد الذي هو محل للصلاة . والمسيد محل للتعليم . والكلمة على ما يبدو نشأت بالاندلس وشمال المغرب الأقصى . انظر :
— ابن تاويت ، الأدب ، ص 86 .

(4) - *Laroui* ; p. 193 .

(5) -*Peretie*; "*Les Madrasas*, A... 309 .
وكذلك : - *Laroui*; p. 193

(6) كان الطالب يسترزق مما يدفعه له أولياء التلاميذ وعائدات أراضي الحبوس ومن الهدايا . أنظر :
- *Peretie*; "*Les Madrasas*", *A...*, pp. 307-308
- *Laroui*, p. 193.

حاستي السمع والبصر (1) ،ومن الناحية الفنية يتعلم التلميذ تحسين الخط وزخرفة الألواح بالألوان ، كما يتعلم الألحان بالتجويد ، ومن الناحية العملية يتعلم الوضوء والصلاة (2).

وكان حفظ القرآن ، يتم على مراحل تتخللها حفلات بهيجة الى أن يتم ختمه ،فيكون مناسبة ، ويقام له حفل عام بالمسجد تضاء له الأنوار ويحضره الناس (3).

ولم يكن تفسير القرآن واردا في هذه المرحلة ،لأن الاهتمام منصب بالنسبة للتلميذ والمربي على حفظ القرآن عن ظهر قلب ،وهي النتيجة التي كان يصلها القليل من التلاميذ (4).

كان المغرب يزخر بالكتاتيب القرآنية التي تعد بالآلاف ، وهي منتشرة في السهول كما في الجبال (5). وقد بلغ عددها في مدينة فاس وحدها 135 كتابا منها 120 كتابا للذكور و15 للاناث (6). ولا تخلو القصور نفسها من الكتاتيب المعدة لحفظ القرآن (7).

يلي الكتاب أو المسيد ،الزاوية التي هي واسطة بين الكتاب والمدرسة - التي سيأتي

= (7) نفس المصدر ، ص 193 . وكذلك :
- Peretie; "Les Madrasas", A. M., p. 307.

(1) ابن تاويت ، ص 87 . وكذلك :
- Peretie; "Les Madrasas", A. M., pp. 307-308.
- Laroui; p. 193.

(2) ابن تاويت ، ص 83-84
(3) نفس المصدر ، ص 83-84
(4) . -Peretie; "Les Madrasas", A. M., pp. 308-309
(5) ابنعبد الله ، تطور ، ص 101-102 .
(6) . -Peretie; "Les Madrasas", A. M., pp. 307-309
(7) ابن زيدان ، العز والصولة ، جـ 1 ، ص 77 .

الكلام عنها - والزاوية هي بمثابة التكميلية اليوم. وهي مجموعة من الأبنية ، يتوسطها صحن وتتوسط الأخير فوارة أو بركة (1) . وتشتمل الزاوية على غرف للطلبة ، وغرفة للتدريس ومكتبة وجامع ، ومرافق عامة . ولما كانت الزاوية تقوم بدور تعليمي عزيز على المسلمين فان لها من الأوقاف ما يسمح بتعليم مئات أو حتى آلاف الطلبة (2) .

يبدأ التعليم في هذه المرحلة بين سن العاشرة وسن الرابعة عشر . ويشتمل برنامج التعليم فيها على مجموعة من المصادر الأساسية ، تحفظ كالقرآن في الكتاب أيضا . ومن هذه المصادر نذكر ، الآجرومية (3) والألفية (4) والرسالة (5) ، ومختصر خليل وغيرها (6) . ولا يختلف استعمال هذه المصادر من زاوية الى أخرى الا قليلا . ويعود ذلك الى طبيعة ونوع الزوايا التي منها الزاوية البسيطة (7) والزاوية ذات الولي (8) والزاوية الطرقية (9) .

---

(1) ابن تاويت ، ص 88 . (2) نفس المصدر ، ص 88 .

(3) الاجرومية للأجرومي . (4) الألفية لابن مالك .

(5) الرسالة لابن أبي زيد القيرواني .

(6) ابن تاويت ، ص 83-84 . وكذلك : *Laroui*; p. 193 -

(7) هي الزاوية التي لم تبن على ضريح ولي ولا نسبت لولي أو الى طريقة صوفية .

(8) هي التي انشئت حول ضريح .

(9) ينتسب هذا النوع من الزوايا الى طريقة من الطرق المنتشرة في المغرب الأقصى ، كالطيبية والتجانية والقادرية والرحمانية والدرقاوية والعيساوية والسنوسية والسلامية والسروسية والعزوزية .

- أنظر : - ابن تاويت ، ص 88-90 .

وهناك زوايا أخرى وجدت في فترات سابقة كالزاوية العسكرية . ومن بين ما يتعلمون فيها الامتثال العسكري والتدريب ، من رماية ومدفعية وفروسية وأعمال هندسية وغيرها .

وكان "الرباط" مكملا للكتاب متوسعا في شرح أصول تعليمه ، فهناك تفسير القرآن والحديث والفقه وشعر المواعظ والأناشيد الدينية ، كما كان مستشفى للمرضى ودارا للمسافرين ومعسكرا لحراسة الثغور ، ومعهدا للصناعة ، ودارا لاستنساخ المصاحف ، ومجامع الحديث والفقه وبه مكتبة جدارية .

- أنظر :

- ابن تاويت ، ص 88-92 .

ويكمن الاختلاف بين هذه الزوايا في العادة والعمل . فالزوايا ذات الولي تنفرد ببركة الولي وصلواته ، وتعاليمه الخاصة ، بينما تختص الزوايا الطرقية بتعليم الطريقة الصوفية نفسها للمريدين (1) . أما الزاوية البسيطة فلا يتعدى دورها الناحية التربوية من تعليم القرآن والمحافظة عليه .

وتجدر الاشارة هنا الى أن التعليم الطرقي أقل مستوى بالمقارنة مع تعليم الزاوية البسيطة (2) .

وابتداء من هذه المؤسسة التربوية تصبح امكانية مواصلة التعليم متعلقة بالظروف الخاصة بالتلميذ من قدرة ذهنية واستعداد وامكانيات أسرته المادية وتحمسها وتعطشها للعلم . وعند توفر هذه الشروط ينتقل التلميذ الى مرحلة أعلى ، الى المدرسة (3) ، التي هي بمثابة مؤسسة للتعليم الثانوي وتقوم – بناء على وضع يد السلطة عليها – بتخريج موظفين اداريين (4) .

وكانت المدارس تشبه من حيث المبنى والنظام الزاوية . فللمدرسة فناء وقبة متخذة كمسجد ، علاوة على غرف للطلبة . ويقوم بادارتها " مقدم " متعدد المهام ، فهو بواب ومدير ، ومراقب في آن واحد ، يقوم بتنصيبه المخزن (5) . وللمدرسة امام دائم أو طالب ،

---

(1) -R. Gaudefroy-de Membyns; L'oeuvre française an matière d'enseignement au Maroc, Paris, 1928, p. 31.
وكذلك :ابن تاويت ، ص 89 .

(2) - Gaudefroy; p. 32.

(3) - Laroui; p. 193.
تعود المدرسة الى القرن الخامس الهجري ، وقد استحدثت في المغرب لمقاومة ما تبقى من التشيع أو ما تسرب منه الى التعليم القيرواني والمهدي (اللذين كانا على المذهب السني المالكي) . وتعد المدرسة بمثابة وضع يد الحكومة على التعليم ، وأصبحت خاضعة لما يمليه عليها الحكام . أنظر : ابن تاويت ، ص 94-95 .

(4) قاوم الفقهاء هذا النوع من التعليم والمدارس لأنها في نظرهم مشبوهة ، وهم يتهمونها باخضاع الدين للدولة . أنظر : ابن تاويت ، ص 94-95 .

(5) Le Tourneau; p. 162. و – Peretie; " Les Madrasas", A.M., p. 288.

منها يتم تعيينه وتنصيبه [1].

وكانت المدارس في المدن وجلها في فاس، كمدرسة النحاسين [2]، التي تأوى طلبة من السوس وبني زرهون وبني زروال وغيرهم، ومدرسة العطارين، ومدرسة باب قيسة، ومدرسة مصباح، وأكبر هذه المدارس، مدرسة الحبالين [3].

وكان شعور سلاطين القرن 19م بعجز "القرويين" عن امدادهم بمتكونين، في اختصاصات ـ تساعدهم على مواجهة التحدى الأوربي ـ يقف وراء اهتمامهم باحداث مدارس عديدة منذ عزيمة إيسلي"، ومن مظاهر ذلك تأسيس مولاى عبد الرحمن مدرسة للفنيين، أقامها بمدرسة القصر، وعرفت في عهد السلطان محمد والحسن الاول بمدرسة المهندسين [4].

وكان المتخرجون من هذه المدرسة يتكونون من فئتين، فئة موجهة لتكملة دراستها بأوربا وفئة ثانية تتخرج للاشتغال كأطر متنوعة في الجهاز المخزني أو الادارة المحلية، ويحمل المتخرج لقب مهندس او "موقت" مثلا ـ اذا درس التوقيت، وهو علم الفلك [5].

وكانت مدرسة مولاى عبد الله بفاس الجديد تستقبل ابناء الموظفين، ويتخرج منها متخصصون في ميدان الادارة المخزنية أيضا [6]. وتتحدث الوثائق عن وجود مدرسة للطب بفاس كان يديرها فرنسي، وقد زارها الدكتور "أوفيلو" والتقى بالسلطان الحسن الأول فعبر

---

(1) نفس المصدر، ص 289.

(2) يبدو أن هذه المدارس تحمل أسماء أزقة متخصصة في مجال ما.

(3) -*Le Tourneau*; p. 161.

الحبالين: هم صانعو الحبال.

(4) -*Le Tourneau*; p. 169.

ـ المنوني، ص 103.

(5) نفس المصدر، ص 106.

(6) -*Gaudefroy*; p. 33.

له عن ارتياحه، واعجابه بسير الدروس بها (1).

وهناك مدارس أخرى في عهد الحسن الأول وفي غير مدينة فاس، كمدرسة الرباط التي أنشأها ابراهيم التادلي (ت 1894م) (2)، وأخرى بسلا، كان من أساتذتها أبو العباس احمد بن عبد الرحمن بورقية (3). اما في مدينة الجديدة فقد أسس الحسن الأول ما يشبه مدرسة مركزية للمدفعية (4)، وتوجد المدرسة الحسنية في طنجة. ومما يدرس فيها، الحساب والهندسة والتنجيم والجغرافيا واللغة العربية والمبادئ الدينية الأولية ولغة أجنبية. وكانت هذه المدرسة تعد الطلبة لاكمال دراستهم في الخارج (5).

هذا في الوقت الذي كان السلطان الحسن الأول يشعر فيه بأن المدارس الأوربية وحدها قادرة على التكوين اللازم في الميدان التقني. لذا عرفت البعثات العلمية المغربية الى أوربا ازدهارا كبيرا في عهد هذا السلطان (6).

واذا كانت المواد المدنية من بين ما درسه المبعوثون فان ((الغالب على تعليمهم هو الناحية العسكرية.)) (7).

وهكذا، لم تنقطع البعثات العلمية الى اوربا طيلة هذا العهد. وكانت أولاها عام

---

(1) A.M.G. 3 H 6, Paris, le 14/6/1890.
أصبح " اوفيلو" ابتداء من 1891م يكون ممرضين عسكريين خاصين بالحملات العسكرية، وفي السنة الموالية عين كرئيس للمصلحة الصحية بجيش السلطان. أنظر ايضا :
-Miege; <u>Le Maroc</u>, t. IV, p. 219.

(2) - <u>Laroui</u>; pp. 200-201.

(3) <u>المنوني</u>، ص 100

(4) <u>المريني</u>، ص 106.

(5) <u>المنوني</u>، ص106-107.
أنظر أيضا : تقييد الطلبة المتوجهين الى أوربا بتاريخ 1874م (1291هـ) من <u>نفس المرجع</u>، ص 124-125.

(6) -Miege; <u>Le Maroc</u>, t. III, p. 222.

(7) <u>المنوني</u>، ص 123.

1874م (1291هـ) وتتكون من خمسة عشر طالبا ،توجهوا الى انكلترا وايطاليا واسبانيـا وفرنسا للتخصص في الهندسة (1) . وتلتها بعثة أخرى عام 1878م (1295هـ) مكونة من خمسة وعشرين شابا توجهوا الى جبل طارق ، لتعلم الفنون الحربية (2) ، ثم بعثات أخرى على التوالي : 1876م (1293هـ) ، 1877م (1294هـ) ، 1878م (1295هـ) ، 1884م (1301هـ) ، 1885م (1302هـ) ، ويهمنا هنا البعثات التي تعدت في تعليمها المجال العسكري (3) ،فنذكر بعثة 1884م (1301هـ) ، المتكونة من اثنين وستين طالبا . وقد وصلت هذه البعثة الى حد تعلم صناعة استخراج الحديد والمعدن (4) ، وكذلك بعثة 1885م (1302هـ) الى " مونسبوليي " بفرنسا ،المتكونة من اثني عشر طالبا ، فتعلموا التلغراف ونصب الجسور وصنع الحدادة والنجارة وكذلك صناعة الخرازة وغيرها . فضلا عن صنع بارود الديناميت ، وقد مكثوا بفرنسا الى غاية سنة 1888م (1303هـ) (5) .

أما البعثات العلمية الخالصة فهي قليلة ،نذكر منها بعثة 1873م (1290هـ) في العلوم الرياضية . وكان من المتخرجين منها في فرنسا الطاهر بن الحاج الأودي ،صاحب خريطة جغرافية الأرض (6) .

---

(1) الوثـائـق (3) ، ص475 .
وكذلك : ابن زيدان ،العز والصولة ،ج 2 ، ص 150ـ151 .
(2) ابن عبود ، تاريـخ ، ص88ـ89 .
(3) نشير هنا الى أننا تناولنا البعثات العسكرية في الفصل السابق من خلال الاصلاحات العسكرية
(4) ابن زيدان ، العز والصولة ، ج 2 ، ص 155 .
وكذلك : المنونـي ، ص 127 .
(5) ـ ابن زيدان ، العز والصولة ،ج 2 ، ص 154 .
ـ المريـني ، ص 71 .
ـ ابنعبد الله ، تطور الفكـر ، ص 155 .
ـ المنونـي ، ص 126 .

— *Caille; "Les Marocains", Hesperis, t. H XLI, pp. 131à 145.*
(6) ابن زيدان ، الـدرر ، ص 104ـ105 .

ثم بعثة عبد السلام العلمي ، الذى توجه بمفرده الى القاهرة ،لدراسة الطب[1] عام 1874م (1291 هـ) [2] . وكذلك البعثة الطبية الثانية التي ترجهت الى المستشفى الاسباني بطنجة وهي تتكون من ستة طلبة ،تابعوا تمارين في ميدان الفحص والتضميد والتشريح . وقد تم تعيين ثلاثة منهم ـ بعد التخرج ـ في الجيش وذلك في طنجة ومراكش[3] .

ولعل آخر ما يمكن أن نختم به دراسة هذه المؤسسات التربوية الاشارة الى الجامعة الملحقة بمسجد القرويين بفاس[4] . وهي الجامعة التي لعبت دورا هاما في نشر المعرفة والمحافظة عليها في المغرب الاقصى .

وصارت جامعة القرويين منذ عهد السلطان الحسن الاول تحت الوصاية المخزنية[5] ،من خلال التحكم في مختلف فروعها الادارية ،وتعيين الاساتذة ولو أن التعيين كان يقتصرعلى المصادقة على ما يقترحه اساتذة وقضاة فاس[6] .

وكانت ادارة الجامعة بيد أحد كبار القضاة أو الناظر . وكان الأخير يقوم بتعيين الاساتذة ومراقبة نشاطهم ،وادارة أحباس الجامعة ،وتصريف الميزانية . وكان يستعين في ذلك

---

(1) كان لهذا الطبيب مؤلفات ،ك"البدر المنير في علاج البواسير" و "الاسرار المحكمة في حل رموز الكتب المترجمة" و" ضياء النبراس في حل مفردات الانطاكي بلغة أهل فاس" .

(2) ابن زيدان ،العز والصولة ،ج 2 ،ص 161 .
وكذلك : ابنعبد الله ، تطور الفكر ، ص 156 .
المنوني ، ص 115_117 .

(3) ابنعبد الله ، تطور الفكر ، ص 156 .

(4) يعود تأسيسها الى القرن التاسع الميلادى .وقد كانت مصلى بسيطا أسسته امرأة تقية بحي القرويين ،ثم أخذ السلاطين وأثرياء المدينة يعملون على تكبير المصلى الى غاية القرن 13م وبالتحديد في العهد المريني أخذت شكلها الحالي . وعاصرت بذلك السوربون بفرنسا . كان للقرويين شهرة تعود لمكانة أساتذتها والعلوم المدرسة بها . ولم تفقد هذه المكانة الا بين القرنين 15م و17م اثر انتشار الحركة الطرقية . أنظر : 34_33 Gaudefroy ; pp. —
_ Le Tourneau; p. 152.

(5) -Peretie; "Les Madrasas", A.M., 1912, pp.314_315.
حافظت القرويين على استقلالها تجاه السلاطين في العهود السابقة . أنظر :
-Gaudefroy; p. 34;

(6) نفس المصدر ،ص 35 .

باستشارة كبار الأساتذة (1) .

يبدأ تعيين الأساتذة بحصول طالب الجامعة على اجازة من أساتذته، تخول له أن يصبح فقيها يدرس بدون مقابل (2) . ويستمر كذلك عدة سنوات الى أن يتم تعيينه بصفة رسمية وهذا بعد ما يشهد له مجموعة من الأساتذة بكفاءته، وعندها يدعم بمرسوم تعيين مخزني (3) .

وكان الطلبة الوافدون على الجامعة من جهات متعددة من المغرب، وكانوا ينتمون لفئات عديدة، منهم أبناء التجار والملاك، الذين يأتون اما لطلب المعرفة واما للحصول على مناصب قضائية ودينية وادارية (4) . وباستثناء القليل من الطلبة فان أغلبهم كان من أتباع الطرق الصوفية كالتجانية والدرقاوية والصقلية (5) . وكانت الجامعة في عهود سابقة تستقبل أيضا طلبة تونسيين (6) وجزائريين . وقد يصل عدد الأخيرين الى 50 طالبا، ولكن عددهم تضاءل مع نهاية القرن التاسع عشر، بحيث تذكر بعض المصادر أنه لم يكن يتعدى ثلاثة أو أربعة (7) .

---

(1) -<u>Le Tourneau</u>; p. 153.

(2) أنظر مرتبات الأساتذة في : —Peretie; "Les Madrasas", <u>A.M.</u>, 1912, p. 318.
- <u>Le Tourneau</u>; pp. 156-157;

(3) نص الظهير : ((أحباؤنا القاضيين فلان وفلان وفقكم الله والسلام عليكم ورحمة الله وبعد ، فان الطالب فلان الفلاني ممن يستحق المرتبة الفلانية لمواظبته لتدريس العلم الشريف... للطلبة بمسجد القرويين عمره الله وعليه فنأمركم أن تأمروا ناظر أحباس القرويين أن ينفذ له مالا مثاله ولابد والسلام .))
— Peretie; "Les Madrasas", <u>A.M.</u>, 1912, p. 318.
— <u>Le Tourneau</u>; pp. 155-156.

(4) -<u>Laroui</u>; p. 196.
-<u>Gaudefroy</u>; p. 304.

(5) -Peretie; "Les Madrasas", <u>A.M.</u>, 1912, p. 306.

(6) لا ندري اذا كان هؤلاء التونسيون يعرضون عن الزيتونة لعدم توفر دراسة بعض العلوم فيها أم لغيرها من الأسباب .

(7) -Peretie; "Les Madrasas", <u>A. M.</u>, 1912, pp. 305-306.

لم تكن السنة الدراسية بالقرويين مضبوطة ،كما أن التسجيل لم يكن واردا ،ولكن يشترط على الطالب فقط الاتصال بالاستاذ الذي يرغب في اتباع دروسه. كما لم تكن مدة الدراسة محددة أيضا ،ولو أنها لا تقل عن خمس سنوات (1).

وكانت عطل الأعياد الدينية كرمضان والعيدين تتخلل السنة الدراسية التي لم تكن تتعدى ثلثي السنة (2).

أما الدروس اليومية ،التي تنقسم الى فترتين صباحية ومسائية ، فتبدأ بجلوس الطلبة حول الاستاذ ،وشروع الأخير في قراءة نصوص من كتاب مقرر ، ثم قيامه بشرحها في نفس الوقت فيما يكتفي الطلبة بالاستماع. وتتبع الحصة مناقشة ،لكن الغالب هو أن لا يناقش شرح الاستاذ بل يؤخذ أخذا أعمى. وقد يستعين الاستاذ في قراءة الكتاب بطالب و يتخلل القراءة شرح النص ثم عبارة " زيد " — أي واصل القراءة — (3).

يقوم بعملية التدريس في جامع القرويين سبعة عشر أستاذ كرسي ،يكملهم عدد من المساعدين لكل أستاذ. أما العلوم المدروسة فجد متنوعة وهي : التفسير والعروض والحديث والأصول والفقه وعلم الكلام والتصوف والتوحيد والقضاء والأحكام والمنطق واللغة والنحو والصرف والبديع والمعاني والبيان والأدب والحساب والتنجيم والطب والجداول والكيمياء (4).

و تكتسي القرويين أهمية كبيرة من حيث أنها المؤسسة — الوحيدة تقريبا — التي من شأنها تحضير طلبتها — ولو بنسبة قليلة — للمشاركة في الحياة السياسية (المخزنية) ،بينما

---

(1) - *Le Tourneau*; p. 154.

(2) نفس المصدر ، ص 154—155.

(3) - *Gaudefroy*; p. 42.

-Peretie; "Les Madrasas", A.M., p. 319.

(4) نفس المصدر ، ص 234—235.

-*Laroui*; p. 198. -*Le Tourneau*;pp. 152—168.

— روم لاندو ، أزمة المغرب الاقصى ،ترجمة عبد العزيز الاهواني ،ج 1 ، القاهرة، 1961، ص 46.

— ابن عبد الله ، تطور الفكر ، ص 154.

تعد الزوايا طلبتها لحياة تعبدية فردية [1] .

وهكذا فقد كان للقرويين دور في اعداد النخبة المغربية . ومن الملاحظ ، أن هذه النخبة لم تكن منسجمة مع السياسة الاصلاحية للمخزن ، لأن الاصلاح لم يشمل القرويين الأمر الذى ادى بالمتخرجين منها الى الوقوف في وجه الاصلاح نفسه [2] .

وطالما كان في وسع الطلبة الحصول على مناصب ، فان هناك الذين يمتازون بخط جيد فيوظفون ككتاب في مختلف الوزارات ، وهناك العائدون الى مدنهم وقبائلهم ليصيروا عدولا أو قضاة أو مدرسين في مدرسة من مدارس المدن كفاس . بينما يكتفي البعض الآخر بتدريس القرآن بالكتاب [3] . وفيهم أيضا من لا يسعى الى منصب ذى أجر بل يكتفي بالقيام بدور رجل الأدب ، فيعمل سنوات طوال في اعداد سفر تاريخي أو مؤلف في المسائل الدينية والفلسفية ، وقد لا يحظى بالنشر من هذه المؤلفات الا القليل جدا [4] .

وكان للدور الريادى للقرويين في تخريج الطلبة واعدادهم أثر في تبجيل أساتذتها الذين كانوا يعينون في مناصب عالية وشرفية ، كاسناد قضاء المحلة لهم ، أو توليتهم منصب الخطابة والارشاد والتذكير في الجمع والأعياد كالسيد عبد الله بن سودة [5] ، أو رئاستهم مجالس السلطان لسرد الحديث كأبي العباس سيدى احمد بن سودة المرى (المتوفى في 10 رجب 1321 هـ) [6] .

---

(1) -*Laroui; p.* 199 .

(2) نفس المصدر ، ص 199 .

(3) -*Peretie; "Les Madrasas", A.M., pp.* 306_307 .

ـ لا ندرو ، أزمة المغرب ، ص 47 .

(4) نفس المصدر ، ص 47 .

(5) كان السلطان يعين قاضيا لأهل المحلة يلازمهم في تنقلهم ليؤمهم في الصلاة و يفتيهم في نوازلهم ، كالفقيه سيدى ادريس السراج المتوفى عام 1305 هـ (1888 م) . أنظر :

ـ محمد السراج ، " المركز الاجتماعي ..." وزارة التربية ، ادارة الشؤون الثقافية ، جامعة القرويين في ذكراها المائة بعد الألف (245_1379 هـ / 859_1960 م) ، المحمدية ، بدون تاريخ ، ص 155_156 .

(6) الوثائق (3) ، ص 471 .

واذا كان لابد من تقيم لمختلف موءسسات التعليم في عهد الحسن الأول ،فيمكن القول بأن محتوى وطرق التدريس فيها لا تختلف كثيرا عن بعضها ،لأن منبع المواد وموضوعها هو الكتاب والسنة فيما يقتصر الاختلاف بين هذه الموءسسات على دائرة اتساع التحصيل والفهم لهذه المواد .

والجدير بالملاحظة أن التقيم يجرنا في الوقت ذاته الى مقارنة بين الماضي وحاضر الموضوع الذي بين أيدينا ، فاذا كان موضوع التعليم واحدا سواء في بداية الحضارة الاسلامية أم في مرحلة انحطاطها فان الاختلاف يكمن على ما يبدو في الكتب التي تترجم المنابع الأولى على أرض الواقع وهي الكتب التي أصبحت محشوة ((بفلسفة الاغريق ومنطقهم وأساطير الفرس وتصوراتهم واسرائيليات اليهود ولاهوت النصارى وغيرها من رواسب الحضارات والثقافات .)) (1) فضلا عن اختلاط هذه ككل ((بتفسير القرآن ،وعلم الكلام والفقه والأصول .)) (2) و باختلاف هذه المنابع اختلفت النتائج المترتبة عنها على أرض الواقع وبرز جيل مزق صفحة متناقض كمنبعه ورصيده التعليمي ،واختلف بذلك عن الجيل الأول المتماسك الصافي كصفاء منبعه . أضف الى ذلك ان منهاج التلقي أصبح يختلف عنه في القديم ،اذ كان الجيل الاول يتلقى أمر الله ليعمل به فور سماعه (3). أما جيل القرن 19 م فمنهج التلقي فيه قائم على الحفظ والدراسة ، أي أن القرآن مثلا يقرأ بقصد الثقافة والاستمتاع و بقصد التذوق والمتاع (4) .

وكانت النتيجة ،سلبية طبعا ، اذ أن الروح العلمية السائدة لم تكن ((روح معرفة منشئة للعمل)) ولا ((منهاج حياة .)) (5) .

تلك هي اذن حالة الموءسسات التعليمية ،و تلك هي الروح العلمية السائدة فيها في/ عهد

---

(1) سيد قطب ،معالم في الطريق، ط 9 ،دار الشروق ،بيروت ،1982، ص17 .

(2) نفس المصدر، ص 17 . (3) نفس المصدر، ص 17 .

(4) نفس المصدر، ص18 .

(5) نفس المصدر ، ص19 .

السلطان الحسن الأول ، ومن حقنا أن نتساءل عن الوسائل التثقيفية الأخرى من مكتبت وطباعة وصحف وغيرها .

أما المكتبات ، فيمكن تقسيمها الى انواع عديدة ، فهناك المكتبات العامة ،كمكتبة القرويين ومكتبة دار المخزن ،وأيضا مكتبات الزوايا والمساجد الهامة ،فضلا عن المكتبات الخاصة (1) .

وتأتي مكتبة القرويين (2) في مقدمتها ، وهي تحتل جزءا من بناية مسجد الجامعة . ويقوم بادارتها ناظر ،ويساعده " مكلف " (3) . وتذكر المصادر أن المكتبة كانت تحتوي على حوالي ألفي (2.000) كتاب (4) ،منها ألف وستمائة مخطوط . وتتفق المصادر نفسها على أن عدد الكتب تضاءل كثيرا ،لأسباب منها الاعارة التي كثيرا ما كان يترتب عنها فقدان الكتب ، الى جانب عدم دخول كتب جديدة كان المؤلفون يزودون بها المكتبة .كما أن كتب العلماء المترفين أصبح ورثتهم يهبونها لدار المخزن (5) .

وكانت مكتبة دار المخزن (6) تكبر مكتبة القرويين ،وهي تقع داخل القصر السلطاني مقابلة لقبة النصر . وقد اعتنى الحسن الأول بها ، فكلف عبد الواحد بن المزاز بادارتها

---

(1) . 202 p. *Laroui;* -

(2) يعود تأسيس مكتبة القرويين الى السلطان المريني " أبي عنان " وذلك في القرن 14م ثم وسعها المنصور السعدي . أنظر : . 170_169 *Le Tourneau;* pp.-

(3) . 357 -Peretie; "Les Madrasas", A.M., p.

(4) نفس المصدر ، ص 360 .

وكذلك : . 170_169 - *Le Tourneau;* pp.

— *Laroui;* p. 202.

تذكر المصادر الآنفة بأن الكتب كانت غير منظمة ،الأمر الذي جعلها في متناول دودة القز.

(5) . 366_360 -Peretie; "Les Madrasas", A.M., pp

(6) أنشأها السلطان عبد الرحمن بن هاشم .

وخصص لها نساخين لبعض مخطوطاتها بمسجد الرصيف (1) . وكانت كتبها في تزايد بفضل تزويد المكتبات الخاصة لها (2) .

ومن المكتبات الخاصة ذات الأهمية ، نذكر مكتبة مولاى ادريس بن الهادى ، وهي أهم مكتبة في فاس وكذلك مكتبة الفاسيين ومكتبة سيدى احمد التجاني ومكتبة عائلة الكتانيين (3) .

وهناك مكتبات اخرى لا تقل أهمية في وزان ، كالمكتبة الكبرى لزاوية مولاى الطيب ومكتبة الجامع الكبير . و " برباط قيس " نجد أيضا مكتبة زاوية التجانيين ، وكانت تحتوى على عدد لا بأس به من المؤلفات التي تتناول الطريقة التجانية (4).

وكان بيع الكتب قليلا بالرغم من وجود الجامعة ، وكان يجرى في مكتبة القرويين يوم الجمعة . ويتم البيع بالمزايدة بعد الصلاة . كما كان بيع المخطوطات بالمزايدة أيضا شائعا ، وذلك في أماكن عديدة من المغرب . أما مكتبات البيع الخاصة فلم تكن تتجاوز العشر في فاس . والكتب المتوفرة اما مطبوعة في فاس واما في القاهرة (5) .

وكان نقل الكتب بخط اليد أو النسخ شائعا لدى المغاربة (6) ، الذين لم يعرفوا فن الطباعة الا في عهد السلطان محمد ، بعد احداث مطبعة حجرية بفاس (7) . وهي "المطبعة

(1) كانت الكتب والمخطوطات تملأ غرفة كاملة .

(2) -Peretie; "Les Madrasas", A.M., 1921, pp. 366 .

- Le Tourneau; p. 170 .

هناك الكثير من المكتبات التي لم تعد سوى ذكريات ، كمكتبة ابن سودة . وقد بيعت منذ وفاة الحاج المهدى بن سودة في عهد مولاى محمد ، ومكتبة الفقيه قنون ، ومكتبة الصقليين بعد وفاة سي المهدى . أنظر : -Peretie; "Les Madrasas", A.M., 1912, p 368 .

(3) نفس المصدر ، ص 367.

- Le Tourneau; p. 170.

(4) -Peretie; "Les Madrasas", A.M., 1912, pp. 367_368.

(5) نفس المصدر ، ص 366_368 .

(6) كانوا أحيانا يقومون ببعثها الى مصر لتطبع ككتاب الاستقصا .

(7) كان قد جلبها تركي من القاهرة ، ثم اشتراها السلطان وأجرها له مع مجموعة من مساعديه . أنظر : -Peretie; "Les Madrasas", A.M., 1912, p. 363 .

-Le Tourneau, p.170 .

_ كنون ، النبوغ ، ص 280 .

السعيدة" أو " المطبعة المحمدية" . وأصبحت تعرف في عهد الحسن الأول بـ"المطبعة الفاسية" (1) . واقترن اسمها بالطيب الأزرق ، ابتداء من عام 1872م (1289هـ) (2) ، هذا فيما تذكر بعض المصادر ان الطيب الأزرق وأخاه العربي قد أحدث كل منهما مطبعة ، الأولى في " سبيتريين " ، والثانية بزنقة " جزا برقوقة" (3) .

وكانت هذه المطابع ككل في حالة تشغيل منذ مطلع عهد السلطان الحسن الأول . ومن الكتب التي تم طبعها بها ، كتاب " شرح الشيخ مرتضى على الاحياء" (4) ، في مطابع الأخوين الازرق ، وتلقى السلطان نحو 200 نسخة ، سلم نصفها الى مكتبة القرويين (5) .

وكانت المطبعة الفاسية خلال هذا العهد بسيطة في جهازها التوظيفي ، كما لم يكن الخطاط والمصحح والناشر قارين ، ولهذا تنوعت خطوط المطبوعات (6) .

وكانت الكتب المطبوعة على العموم ، اما كتبا تقليدية موجهة الى القرويين ، واما كتبا تمجيدية تخدم سياسة السلطان الدينية ، ومن الكتب المطبوعة القرآن الكريم عام 1879م ، وكتاب الاحياء للغزالي عام 1887م ، وكتب سير هدفها دعم سلطة بعض عائلات " الخاصة " . وهكذا لم تخرج الكتب المطبوعة عن نطاق الثقافة التقليدية وتدعيم سلطة النخبة الحاكمة (7) .

---

(1) عرفت هذه المطبعة تعطلا عام 1871م (1288هـ) ثم استئنفت عملها عام 1872م (1289هـ)

(2) المنوني ، ص 213ـ215 .

(3) -Peretie; "Les Madrasas", A.M.,1912, p. 563.

(4) هو محمد بن محمد بن مرتضى الزبيدي (1145ـ1205هـ/1732ـ1790م) وهو من علماء مصر .

(5) -Peretie; "Les Madrasa", A.M.,1912, p. 563.
أنظر جملة من منشورات أبناء الازرق في عهد الحسن الأول : المنوني ، ص 220ـ223 .
وكذلك : ابن زيدان ، الدرر ، ص 105ـ106 .

(6) المنوني ، ص 213ـ215 .

(7) - Laroui; p. 203.

وعرفت طنجة بدورها الطباعة الحجرية منذ عام 1880م (1297هـ) لغرض طبع بعض الصحف باللغات الاوربية ثم عام 1889م (1306هـ) لطبع صحيفة باللغة العربية ، لكن المحاولتين باءتا بالفشل (1).

وبصدد ذكرنا للصحافة ، يمكن القول بأن ظهورها في المغرب يعود الى العشرينات من القرن 19م وبالتحديد في سبته (2). أما ظهورها في طنجة فيرجع لعام 1870م (1287م)(3).

ولم تعرف الصحافة ازدهارا لها الا في الثمانينات وفي طنجة بالذات . وكان ذلك مع اقامة مطبعة عام 1880م (1297هـ) . وهكذا ظهرت الجريدة الاسبوعية " المغرب الأقصى " Al Moghreb Al Aksa " في 28 جانفي 1883م (1300هـ) (4) بالاسبانية . وكانت أداة طيعة للسياسة الاسبانية في المغرب (5) . وصدرت الجريدة الثانية من حيث الأهمية في طنجة وذلك بتاريخ 5 جويلية 1884م (1301هـ) وهي جريدة " الوقت المغربي -Thimes of Maroc" co " بالانكليزية . وكانت وفية للرابطة الانكليزية (6) .

---

(1) نفس المصدر ، ص 203 .

(2) صدرت في سبته جريدة " المحرر الافريقي " بالاسبانية El Liberial Africano بتاريخ اول ماي 1820م . وكانت الجريدة الاولى في المغرب العربي . ولم يصدر منها سوى ستة أعداد . وتوقفت الصحافة لتعود من جديد في سبته بالذات عام 1868م بصدور La Cronica de Ceuta أنظر : -Ch. Souriau-Hoebrechts; La presse Maghrebine, Paris, 1969, p. 37.

(3) نفس المصدر ، ص 37-38 .

وكذلك : -Miege; Le Maroc, t. IV, p. 324.

(4) نفس المصدر ، ص 324 .

(5) أصبحت تحت الوصاية البريطانية فيما بعد .

(6) كان مؤسسها هو "Edward Meakin" وقد أصبحت لها مطبعتها الخاصة منذ مطلع عام 1886م ، ثم أخذتها منها جريدة : Al-Moghreb Al-Alksa عام 1893م .

- أنظر : - Souriau ; p. 38 -

-Miege; Le Maroc, t. IV ; pp. 325et 329

وهناك جريدة : "Le Reveil du Maroc" التي صدرت بالفرنسية في 14 جويلية 1884م (1304هـ) (1) . وكانت اللسان الناطق باسم الرابطة الفرنسية (2) . أما صحيفة "L'Echo Mauritano" فكان صدورها مرتين في الاسبوع ابتداء من فبراير 1886م (1303هـ) وكانت موالية لانكلترا ثم لاسبانيا . ولعل آخر وأهم هذه الجرائد الأجنبية (3) للفترة التي تعنينا هي صحيفة طنجة " El Diaro de Tanger " الاسبوعية الموالية لفرنسا ، ولو أنها تصدر بالاسبانية (4) .

وكانت "المغرب" هي الجريدة الوحيدة التي صدرت باللغة العربية في المغرب (5) في ربيع 1889م (1306هـ) التي أصدرها محرر جريدة " الوقت المغربي " السالفة (6) ، وكانت موجهة للمغرب حسبما جاء في افتتاحية العدد الأول منها (7) . أما الجريدة العربية الوحيدة

---

(1) كان يصدرها اليهودي Levy Cohen ثم Benchimol عام 1888م لتشترى من الرابطة الفرنسية في النهاية .

(2) Souriau ; pp. 38-39 . و — Miege; Le Maroc, t.IV, p. 325 .

(3) هناك صحف أخرى عديدة منها : "La Africana" الاسبوعية الصادرة عام 1885م ، و Le Maroc الاسبوعية الصادرة عام 1893م ، و "Le Commerce du Maroc" و "La Duda d'El Progresso Marroqui"

لكن هذه الجرائد كانت قليلة الأهمية قصيرة الأمد . أنظر :

-Miege; Le Maroc, t. IV, p. 326.

(4) نفس المصدر ، ص 326 .

(5) تأسست من طرف عرب مسيحيين من لبنان عام 1889م . أنظر :

— الجابري ، "الأصالة" ، ص 64 .

(6) ابن عبد الله ، تطور ، ص 79 .

- Souriau, pp. 39 — 40 .

(7) " لنشر الأنباء الحقيقية والحقائق العلمية والاستنباطات المستحدثة الصناعية التي من شأنها ترقية منزلة البلاد بأن تثير في رؤوس أهلها نار الحمية العربية وتدب فيهم النخوة الوطنية وتنهض همم الرجال من حضيض الاهمال إلى التدرج في مراقي الكمال لكي يسعوا في اصلاح حالة بلادهم . " أنظر :

— الجابري ، "الأصالة" ، ص 64-65 .

التي كانت تصل من المشرق فهي جريدة " الأهرام " المصرية (1) .

وما دمنا بصدد الكلام عن الحياة الثقافية ووسائل الثقافة المغربية في عهد الحسن الأول فيمكن القول بان هذه الجرائد في عمومها لم تكن موجهة لتثقيف المغاربة بقدر ما كانت سلاحا في يد الروابط الأوربية، وكانت تؤدى دورا اعلاميا اقتصاديا على الخصوص، وهي بذلك تدخل في اطار تاريخ اوربا في المغرب أكثر من دخولها في تاريخ المغرب، لأنها لم تكن مغربية ولا أثر لها في الأوساط المغربية، ولم تجد رواجا الآ في الأوساط اليهودية، كما لم يكن يتعدى توزيعها المدن الساحلية .

وقد وصلت هذه الجرائد الى حد مهاجمة السلطة المغربية في عقر دارها ، الأمر الذى دفع السلطان الى المطالبة بايقافها جميعا عام 1885م (1302هـ) لكنها لم تتوقف الآ عن مهاجمة شخص السلطان (2) .

تلك هي اذن المصادر التي كانت تغذى الحياة الثقافية في عمومها تغذية نسبية ، ولم يبق لنا سوى الخوض في حركة ونشاط الأفكار ونوعيتها في المغرب الأقصى وقتئذ .

فمن الواضح أن أهمية التعليم تكمن عادة في الدور الاجتماعي الذى يقوم به ، ولطالما افتقر التعليم في المغرب الى تصحيح فقد كان مقيدا بالأعراف (3) ، و((مرتبطا بالأوضاع الاجتماعية والسياسية السائدة .)) (4) وكأن التعليم بذلك كان مقادا او تابعا ، على أن ذلك غير مستغرب ، طالما عرفنا بأن موضوع التعليم هو الاسلام لكنه مقتصر على حفظ القرآن وتدريس بعض الشريعة (5) .

وكانت فاس تحتل مركز الصدارة والاشعاع ، وهي مقصد رواد المعرفة ومجمع العلماء

---

(1) ابنعبد الله ، تطور ، ص79 .

(2) -Miege; Le Maroc, t. IV, pp. 323_331. - Souriau; pp. 39_43. -Laroui; p. 204.

(3) نفس المصدر، ص 197 .

(4) حسن محمد جوهر ، وصلاح العرب عبد الجواد ، المغرب ، دار المعارف ، مصر 1964 ، ص 37 .

(5) - Le Tourneau; p. 174.

والشعراء والأدباء منذ أن انهارت المراكز العلمية كالزاوية الدلائية . وهكذا فقد ظلت فاس تشكل عامل وحدة ثقافية _ في ظل التقسيم الطرفي _ ويعود الفضل في ذلك الى علمائها الذين كانوا يتمتعون بمكانة معترف لهم بها . فهم الذين كانوا يساهمون في الحياة السياسية من خلال تزكية بيعة السلطان . كما تقدرهم العامة لكونهم يأتون على رأس مؤسسة تحتوي على حقائق الدين وجوهره (1) .

لكن على صعيد الاشعاع الفكري والثقافي بقيت فاس متقوقعة حول نفسها ، "وفية" لتقاليد معينة جلبت لها الاحترام والتقدير وكذا الاستقرار الفكري (2) .

وكان علماء المغرب الأقصى على العموم وعلماء فاس على الخصوص يعيشون حالة من التقوقع ، فلم يكن لهم تقريبا أي اتصال مع العالم الخارجي باستثناء الاتصال الضئيل بالمشرق . وكانوا على الصعيد الداخلي ينتفعون بأوهام العامة التي كانت ترى بأن ما يقدم من هؤلاء هي الحقائق العلمية الوحيدة (3) . وكان أن انعكس هذا الوضع على مستوى التعليم ، فوصل حتى القرويين التي وقع علماؤها في الروتين . وكان من أسباب ذلك أيضا انعدام التنظيم والموقف اللامبالي للمخزن (4) .

وقد نشأت عقلية " أنا مسلم اذن أنا كامل " ، وهي العبارة التي تومئ بالغرور ، وكان لها دور في الانحطاط أيضا ، وصارت خاصية من خصائص العالم الاسلامي كله تقريبا (5) .

---

(1) نفس المصدر ، ص 175 .
(2) نفس المصدر ، ص 176 .
(3) نفس المصدر ، ص 159 .
(4) . 43 . Gaudefroy ; p-
(5) يمكن أن يعود السبب في ذلك الى الحياة الاسلامية التي طبعتها الطرق الصوفية وبعض الزوايا .

وذهب البعض الى أن انخفاض المستوى والتحجر يعود الى التمسك بالتعليم الديني على غرار أوربا قبل عصر الاستنارة ،الأمر الذى خلق عقلية متجمدة منذ العهد السعدى على الخصوص (1) . على أن مثل هذا الرأى معرض لأن مستوى التعليم لم ينخفض بسبب التمسك بالتعليم الديني ،ولكن بسبب خلل في منهاج التلقي واختلاط في منهج التعليم . ومع ذلك حاول الأوربيون استغلال هذه الظاهرة محاولين في ذلك اقناع المغرب الأقصى بضرورة الأخذ بما يريد من أسباب التقدم والتطور في دائرة خارجة عن الدين (2) .

وكانت مظاهر النشاط الثقافي تتجلى في التجمعات الشعبية أو الخاصة في موءسسة من الموءسسات الدينية حيث تطرح قضايا دينية من طرف عالم من علماء المدينة ، أو عابر سبيل .وكان هذا النوع من التجمعات يحدث غالبا في شهر رمضان أو بمناسبة المولد النبوى الشريف (3) .

وكان من النادر أن تجد موءلفين يعيشون من أقلامهم ،ولا رجال الثقافة يتقربون من المخزن الأمر الذى جعل الحركة الثقافية تعيش نوعا من الركود (4) .

وكانت اللغة العربية قد احتفظت بطابعها الأصيل بالرغم من الأحداث السياسية والحضارية . ويعود السبب في ذلك - حسب ما يذكر بعضهم - الى أن الأدباء واللغويين ظلوا عالقين بأبراج عاجية في الوقت الذى طبعت فيه لهجة التخاطب بمفردات أجنبية . أما روح التجديد في هذا الميدان فلم تبرز سوى عند بعض الأدباء أو في مراسيم ومراسلات رسمية ، فظهرت ((بدلا من مصطلحات معربة في قالب رصين ألفاظ عامية على حساب اللغة الأصيلة تكثر أو تقل تبعا للحاجة الملحة ... ولو أن خطابات ووثائق سياسية أخرى احتفظت باسلوبها الكلاسيكي الرنان على حساب الدقة والوضوح .)) (5)

---

(1) نفس المصدر ، ص 43 .

(2) الفاسي ،حديث المغرب ، ص 7 .

(3) *Le Tourneau*; p. 172 .-

(4) نفس المصدر ، ص 172 .

(5) ابنعبد الله ، تطور الفكر ، ص 77 .

وكان ادراك أهمية التعليم الحديث من طرف سلاطين خلال النصف الثاني من القرن 19م هو الذي يقف وراء البعثات العلمية الى مصر وأوربا (1).

وهكذا ، فقد تابع السلطان الحسن الأول حركة والده لتلقيح القرويين بالعلوم الحديثة ، زيادة على طبعه الكتب الاسلامية الشائعة في عصره ، كالفقه والحديث وغيرها (2). ولكنه في آن واحد ، كان يعمل على تشجيع بعض المظاهر التي تمت الى الطرقية بصلة ، كإنشائه لقراءة مختصر خليل بعد صلاة العصر بالقرويين وردا كل يوم ، بحيث كان المختصر يختم مرة في الشهر وكذلك احيائه لقراءة حزب الشاذلي بعد كل صبح وقراءة البردة ضحى كل جمعة بالضريح الادريسي . وقد كان يقوم باكرام القائمين بذلك مجاهرة (3).

ولعل المتتبع لثمار البعثات العلمية المشار اليها آنفا ، يصل الى انها كانت ضئيلة المردود لأسباب عديدة منها موقف مختلف الفئات من هذه البعثات بدءا من السلطان نفسه الذي كان خوفه الشديد من الأوربيين وكثرة احتياطاته منهم جعلته لا يثق بأغلب هؤلاء المتعلمين في أوربا (4) ، بحجة تأثرهم بالحياة الأوربية ، فكان لا يوظف منهم الا من اختبر وطنيته (5). ويذكر ابن عبد السلام أنه قد ضاع وقت كبير في هذا الاختيار (6). أما حاشية السلطان ووزراؤه فلم يكونوا ينظرون بعين الارتياح الى افراد البعثات . وقد وصلوا الى حد تكفير بعضهم لمجرد نصح السلطان بالاستعداد لمواجهة التدخل الأجنبي (7).

---

(1) جوهر ، المغرب ، ص 82 .   (2) السائح ، دفاعا ، ص 246 .

(3) أنظر نص الظهير الذي أصدره السلطان الى قاضي فاس ، ابن زيدان ، الدرر ، ص 107-108.

(4) لعل مرد ذلك الى عدم اقتناعه بالفوائد المرجوة من وراء هذه البعثات ، وكذلك لأنه كان مدفوعا من طرف الدول الأوربية المتنافسة على المغرب وقتذاك .

(5) ابن عبود ، تاريخ ، ص 89 .

(6) نفس المصدر ، ص 89 .

(7) - المنوني ، ص 304 .

- وكذلك : الجابري ، ص 63 .

و يمكن أن نجد تفسيرا لموقف هؤلاء في خوفهم أن ينال الاستعداد والاصلاح من مكانتهم ونفوذهم ومصالحهم (1) . وكذلك الشأن بالنسبة لموقف القواد الغارقين في البداوة والجهل (2) . ولم يشذ عن هذا الموقف حتى الفقهاء الذين كانوا ينظرون الى العائدين من أوربا نظرة البغض و يرون فيهم أعداء للدين (3) . كما كانوا ((يعتبرون لباس وسلوك وعلوم الأوربيين ومن يأخذ عنهم أو يقلدهم ، بدعا وضلالات يجب محاربتها ، لأنها تقع في نظرهم على مستوى واحد مع البدع والضلالات التي ياتيها الطرقيون والمشعوذون .)) (4)

ومما يبدو على الفقهاء أنفسهم أنهم تناسوا حديث الرسول- صلى الله عليه وسلم- : ((اطلبوا العلم ولو في الصين .)) كما أنهم لم يكونوا يفرقون بين العلوم الدينية والعلوم الدنيوية .

ولعل هذه المواقف كافية للدلالة على أنه لم يقع اعداد رسمي لتقبل حركة البعثات ولا اعداد شعبي أيضا (5) . كما لم تكن هذه المحاولات مرفوقة بأى تجديد في الفكر والثقافة ، فكانت بذلك تفتقر الى المناخ الفكرى الضرورى لغرس جذورها في المجتمع وضمان نموها و تطورها على حد تعبير الجابرى (6) .

ومهما كانت العوامل التي أدت الى فشل هذه البعثات والجهود الاصلاحية ، فلا يمكن نكران بعض النتائج الايجابية ، اذ سجل انبعاث في صفوف بعض العلماء من خلال تاثرهم بمعطيات المعارف الجديدة فكتب البعض ضد الامتيازات الأجنبية كالعربي المشرفي (7) ، والمأمون بن عمر الكتاني (8) ، وعلال بن عبد الله الفاسي (9) ، و جعفر بن ادريس

(1) نفس المصدر ، ص 63.
(2) ابن عبد الله ، تاريخ ، ص 89.
(3) نفس المصدر ، ص 89.
(4) الجابرى ، الأصالة ، ص 63 .
(5) المنوني ، ص 304 .
(6) الجابرى ، الأصالة ، ص 62 .

(7) الرسالة في أهل البصبور الحثالة ، وهي بمثابة جواب عن سؤال وجه لأهل العلم عن دخول المسلمين تحت الحماية القنصلية .

(8) هداية الضال المشتغل بالقيل والقال .

(9) في خطبة له بعنوان : ايقاظ السكارى ، المحتمين بالنصارى أو الويل والثبور لمن احتمى بالبصبور .

الكـتاني (1) ، ومحمد بن ابراهيم السباعي (2) ، والمهدى بن محمد الوزاني . وكتب الآخر لفائدة تنظيم الجيش أو الادارة ، كما دعا البعض الآخر أيضا الى الجهاد وساهم الأدباء في اذكاء مسيرة الانبعاث (3) .

وفي ميدان دراسة الرياضيات والفلك برزت تصنيفات مقتبسة من النظريات الحديثة فضلا عن ظهور تجارب في الترجمة الى العربية (4) ، وادخال الطباعة كما سلف.

أما في مجال اتصال المغرب الاقصى بالمشرق ، فيمكن تسجيل تضاؤل حركة الترحال في أوساط علماء المغرب وفي القرن 19م على الخصوص و يعود ذلك الى الحواجز الاستعمارية التي أقيمت في طريق الحجاج بالجزائر منذ سنة 1830م . لكن ذلك لم يمنع العلماء من تتبع جميع حركات التجديد المنبعثة من المشرق بتلهف . وكان المغرب يرسل وفودا رسمية تحمل دوريا هدايا وصلات لرجال الفكر واعانة الطلبة (5) .

ولعل من أبرز التيارات الفكرية التي وصلت الى المغرب من المشرق خلال القرن 19م ، هو الحركة الوهابية (6) بوجهيها الديني (7) والسياسي (8) . وكان من ثمارها في المغرب الأقصى قيام حركة فكرية دينية اصلاحية تستلهم الدعوة الوهابية ومبادئها وذلك في أوساط علماء القرويين

---

(1) الداعي المدهية للفرق المحمية .

(2) كشف الستور عن حقيقة كفر أهل بصبور . أنظر :
- الوثائق (4) ، ص 50-51 .

(3) المنوني ، ص ج .

(4) نفس المصدر ، ص ج و د . وقفنا على الكثير من المؤلفات المترجمة في عهد السلطان محمد ، ولكننا لم نعثر - فيما اطلعنا عليه - على مؤلفات ترجمت في عهد الحسن الأول .

(5) ابنعبد الله ، تطور ، ص 100 .

(6) نسبة الى محمد بن عبد الوهاب الذى كان حنبليا متبعا المنهج الذى خطه ابن تيمية ، والمتمثل في ضرورة التمسك بالكتاب والسنة .

(7) دعوة اصلاحية سلفية تحارب البدع وفي مقدمتها الطرقية .

(8) ثورة على الخلافة العثمانية . الشيء الذى جعل منها سلاحا اديولوجيا ملائما في نظر المخزن يقاوم به خصومه في الداخل الذين كانوا أساسا من مشايخ الطرق وأحد خصومه في الخارج أي ما تبقى من الحكم العثماني . أنظر :
- الجابرى ، " الأصالة " ، ص 60 .

وحاشية المخزن . وكان من اشهر رجالها الأديب والمؤرخ محمد اكنسوس(1796ـ1877م) ، وكذلك السلفي الفقيه ابوعبد الله محمد بن المدني بن عبد الله كنون (1) .

اما في نهاية القرن 19م فهناك فكرة الجامعة الاسلامية التي دعا اليها السيد جمال الدين الافغاني (2) ومحمد عبده ، ووصلت أصداؤها الى المغرب (3) .

((وكان لزيارة محمد عبده لتونس عام 1883م واتصاله شخصيا أو بالمراسلة مع بعض علماء القرويين الذين ناقشوه في قضايا دينية تتصل بمضمون سلفيته)) أثر في الأوساط العلمية في المغرب (4) . كما كان لوصول الاعداد الأولى من مجلة المنار صدى واسع أيضا (5) .

وممن حملوا فكرة الجامعة الاسلامية الى المغرب ، نذكر المصلح عبد الله السنوسي ، الذى كان له ـ مع العوامل السالفة ـ أثر في بلورة اتجاه سلفي جديد في أوساط النخبة المغربية التقليدية (6) .

وتقبل السلطان الحسن الأول هذه الدعوة بارتياح ، لأنه كان يرى في الجامعة الاسلامية وسيلة لدفع الأجانب من خلال تعاون الدول الاسلامية في اطار الجامعة التي كانت الدعوة اليها اذ ذاك آخذة في الازدهار . وراح السلطان يحاول ترجمة الفكرة خاصة بعد مؤتمر مدريد عام 1880م (1297هـ) ـ أى بعد تدويل القضية المغربية ـ قصد الاستفادة من الخبراء العثمانيين . فبعث وفدا برئاسة الوزير بريشة للآستانة . وقد أثمر هذا الاتصال الاتفاق على تبادل

---

(1) نفس المصدر ، ص 60ـ61 .

(2) ظل السيد جمال الافغاني يعمل على ايقاظ العقول وتحرير الأفكار مهيبا بالمسلمين أن يتفهموا الدين الاسلامي ويعودوا الى مبادئه الصحيحة . كما كان يدعو الى يقظة الشرق ونهضته . وكان الأفغاني يأمل أن تنهض احدى الدول الاسلامية وتصير في مرتبة الدول القوية الكبرى ، وظل يجاهد لتحقيق هذه الهدف من خلال فكرة الجامعة الاسلامية فعمل على اضعاف نفوذ بريطانيا . وبذلك كان الافغاني مصلحا دينيا وفكريا وزعيما سياسيا . أنظر : ـ صبحي ، ص 58ـ59 .

(3) الجابرى ، " الأصالة " ، ص 69 . و Le Tourneau; p173 ـ

(4) الجابرى ، " الأصالة " ، ص 69 . (5) نفس المصدر ، ص 69 .

(6) الفاسي ، الحركات ، ص 88 .

وكذلك : الجابرى ، " الأصالة " ، ص 69ـ70 .

الدبلوماسي (1) .

لكن الدول الأوربية وعلى رأسها فرنسا وقفت في طريق هذا المسعى وأولت فكرة الجامعة أهمية بالغة (2) . وذهبت فرنسا الى حد اقناع السلك الدبلوماسي في طنجة بعدم قبول تسرب دعوة الجامعة الاسلامية الى المغرب . فكان ان أبلغ السلطان بان السفراء لا ينظرون بعين الرضا لما يقوم به من سياسة مع الدولة العثمانية ، واعتبروها أعمالا عدائية لحلفاء المغرب ، لما لها من الصبغة الاسلامية (3) . ولم تشذ عن هذه الدول سوى بريطانيا التي لزمت جانب الصمت (4) .

واذا كان الحسن الأول قد خضع للضغوط الأوربية بتراجعه عن المشروع (5) ، فان فكرة الجامعة الاسلامية قد أذكت ، على المستوى الشعبي ، روح العداء في نفوس المغاربة وأهل المغرب العربي على العموم ضد الفرنسيين بالذات ، وكان من ثمارها حركة الشريف مدغرة (6) على سبيل المثال . وسنعرض لهذه المواقف أكثر من خلال الفصل القادم ، الذى نتناول فيه العلاقات المغربية العثمانية ثم العلاقات المغربية الأوربية في عهد الحسن الأول .

---

(1) قررت الدولة العثمانية أن تبعث الأمير محيي الدين نجل الأمير عبد القادر سفيرا لها بالمغرب . أنظر : الفاسي ، الحركات ، ص 87-88 .

(2) نفس المصدر ، ص 87-88 .

كان طبيب الحسن الأول " *Linares* " نفسه مهتما بفكرة الجامعة الاسلامية . وليس هذا بغريب اذا ما عرفنا بأن وجود هذا الشخص في المغرب يدخل في اطار البعثة الفرنسية ذات الأغراض التجسسية كما سنعرف .

(3) الفاسي ، الحركات ، ص 88 .

(4) يعود ذلك الى أن بريطانيا كانت ترغب في جعل المغرب أداة تهدد بها فرنسا ، كلما حاولت هذه مناوشتها في مصر ، وكذلك الى عدم ازعاج السلطان عبد الحميد الثاني الذى كان يعارض مطامع روسيا في البلقان والبحر الأسود وغيرهما .

أنظر : الفاسي ، الحركات ، ص 88 .

(5) نفس المصدر ، ص 88 .

(6) Miège; Le Maroc, t. IV, p. 140 .

الفصل الرابع

العلاقات الخارجية

1 ـ العلاقات المغربية الاسلامية .

2 (خصوصا الدولة العثمانية)

2 ـ العلاقات المغربية الأوربية:

أ ـ العلاقات المغربية الأوربية الى مؤتمر مدريد (1880م)

ب ـ العلاقات المغربية الأوربية منذ مؤتمر مدريد

(فرنسا ـ انكلترا ـ اسبانيا ـ ألمانيا ـ ايطاليا)

عرف العالم عموما والعالم الأوربي بصفة خاصة - في الثلث الأخير من القرن 19م- تطورات خطيرة على صعيد الأمن والسلام العالميين ،اذ حققت ألمانيا وايطاليا وحدتهما ودخلتا في الصراع القائم آنذاك بين فرنسا وانكلترا وغيرهما من أجل اقتسام أراضي افريقيا وآسيا .

وكان من ثمار التنافس الأوربي والتسابق على العالم الاسلامي - في مطلع الثمانينات - فرض الحماية على تونس في المغرب العربي ،وعلى مصر في المشرق ، على أن الحماية على الدولتين لم تكن صدفة ولكنها جاءت اثر تطورات وأولويات اقتضتها ظروف المنافسة الدولية واستراتيجيتها في التحكم في النقاط والممرات الحساسة بسبب التطور الذى طرأ على الملاحة البحرية الأوربية . فاشراف تونس على مضيق صقلية ،واشراف مصر على قناة السويس كان يقف وراء التسابق عليهما. ومن البديهي أن يحظى المغرب بنفس الاهتمام بسبب قربه من مضيق جبل طارق ،الأمر الذى جعل الصراع عليه حاسما (1) ،ولم يكن احتلاله - منذ فرض الحماية على الدولتين السالفتين - سوى قضية وقت واتفاق أطراف النزاع المتعددة بعد ما أصبح الرجل المريض الثاني في الطرف الغربي من العالم الاسلامي .

فكيف تطورت علاقات المغرب الأقصى - في ظل هذه الحيثيات والظروف الدولية المعقدة - مع الدول الاسلامية المتنافس عليها أولا ؟ ثم مع الدول الأوربية ثانيا ؟

---

(1) عن الأهمية الاستراتيجية للمغرب ومضيق جبل طارق ، أنظر :

- Kerdec : pp. 310-311.

- لبيب رزق ، تاريخ العلاقات ، ص 20-21.

1 - العلاقات المغربية-الاسلامية : (خصوصا الدولة العثمانية)

أصبح العالم الاسلامي عرضة للخطر الأوربي منذ نهاية القرن 15م والجزء الغربي منه على الخصوص اثر سقوط الأندلس وانتقال الصراع من أرض أوربا الى البحر المتوسط والشواطئ الجنوبية منه . ومن حسن حظ العالم الاسلامي أن سطع نجم الدولة العثمانية التي استطاعت أن تضع حدا للزحف الأوربي من الناحية الغربية بعد ما كان قد أوجد لنفسه ثغورا وحاميات على الشواطئ . ثم انتهى بها الحال بالنسبة للعالم العربي أن بسطت نفوذها عليه باستثناء المغرب الأقصى (1) .

ولما كان الأخير من الأقطار التي لم تصلها يد الدولة العثمانية ، ولم يكن أهلها أو حكامها على الأقل يرغبون في وصول العثمانيين اليهم ، فقد نشأ نوع من العلاقات مرت بمراحل ثلاث : امتازت الأولى بالهجمة الأوربية ونجاح العثمانيين في الهيمنة على أنحاء العالم العربي في القرن 16م ، وامتازت الثانية بفقدان قوة واندفاع الدولة العثمانية حيث لم تعد تشكل خطرا كبيرا على المغرب الأقصى . وكان ذلك خلال القرن 17م ، أما المرحلة الثالثة فهي التي تبدأ في النصف الثاني من القرن 18م ، واستمرت الى عهد الحسن ، وامتازت بضعف الدولة العثمانية و تفاقم الخطر الأوربي وتطورت خلالها العلاقات المغربية العثمانية نحو الأحسن (2) ، ولكنها لم تتعد المكاتبات والمراسلات ورحلات يقوم بها بعض النواب موفدين من طرف سلاطين الدولتين (3) .

أما مصر التي استقلت عن الدولة العثمانية في عهد محمد علي فقد سمحت لها وضعيتها الجديدة والشابهة للمغرب من اقامة علاقات مع الأخيرة وصلت الى حد التمثيل الدبلوماسي . ومع ذلك فان هذه العلاقات و تلك مع الدولتين الاسلاميتين ((لم يكتب لها من الذيوع ... ما كتب حول العلائق مع الغرب)) لأن الأولى - أي العلاقات فيما بين الدول الاسلامية - وجدت من يقضي عليها وهي ((بعد بين الحبو والدبيب ...)) (4) .

---

(1) كذلك بعض المناطق من شبه الجزيرة العربية . وأما باقي أجزاء العالم الاسلامي كايران وافغانستان والهند وغيرها فبقيت بدورها خارج النفوذ العثماني .

(2) لبيب رزق ، تاريخ العلاقات ، ص 18-19 .

(3) ابن زيدان ، العز والصولة ، ج 1 ، ص 277 .

(4) نفس المصدر ، ص 277 .

فكيف تطورت اذن العلاقات المغربية ـ العثمانية [1] في عهد الحسن الأول ؟

عرفت العلاقات المغربية ـ العثمانية تطورا ملحوظا بالمقارنة مع الفترة السابقة لحكم الحسن الأول ،اذ لم تكن المصادر تشير الى وجود أى تمثيل دبلوماسي بين البلدين مع بداية هذه الفترة [2] . واذا كان السبب يعود الى خلفيات تاريخية طبعت هذه العلاقات فجمدتها و تحولت الى نوع من التقليد ،فان سلاطين الدولتين عادوا الى الجادة في الوقت المناسب أى أثناء تزاحم الأحداث الخطيرة على العالم الاسلامي .

وهكذا أحسّ السلطان الحسن الأول منذ البداية بضعف دولته من جهة و بسعي الدول الأوربية في الحصول على المنافع التجارية والسياسية في بلاده ،الأمر الذى نبهه الى ضرورة توحيد الجهود مع الدول الاسلامية وفي مقدمتها الدولة العثمانية وكذلك مصر و تجديد العلاقات معهما .

وهكذا ،تطالعنا جريدة " الجوائب" [3] الصادرة بالآستانة بتاريخ 11 رمضان 1291هـ (21 اكتوبر 1874م) بخبر مفاده أن سلطان المغرب فوض الى السيد ابراهيم السنوسي [4] أن يكون وكيله بمصر. وابراهيم السنوسي هذا هو نفسه الذى أرسله السلطان الحسن الأول عام 293 هـ (1876م) الى الآستانة للتفاوض في شأن عقد اتفاقية بين الطرفين [5]. وصادف أن جلس عبد

---

(1) سنحاول من خلال استعراض تطور العلاقات المغربية العثمانية أن نشير في نفس الوقت الى علاقات المغرب مع مصر وذلك باختصار شديد .

(2) هذا بخلاف علاقات المغرب مع مصر اذ تأكد تعيين " قنصل " أو "وكيل " للمغاربة في مصر منذ اربعينات القرن 19م أى في عهد محمد علي . أنظر : لبيب رزق ،<u>تاريخ العلاقات</u> ،ص167 .

(3) العدد 720 ،السنة الرابعة . وقد عثرنا عليه في ارشيف ما وراء البحر (A.O.M.) اكس آن بروفانس ،محفظة رقم 33 30H .

(4) ابراهيم السنوسي اخي عبد الله السنوسي .

(5) <u>المنوني</u> ، ص 49 .

الحميد الثاني في هذه السنة (1876م) على كرسي الخلافة ،فكتب الأخير رسالة تليق بمقـــام السلطانين ، وتعبر عن مستوى تفهم السلطان الجديد عبد الحميد الثاني لمقتضيات المرحلة ، وما كان يتطلبه التحدي الأوربي من تضافر جهود العالم الاسلامي للتصدي له . ومما جاء في الرسالة التي نقلها ابراهيم السنوسي الى الحسن الأول :(1) ((... أخينا السلطان المعظم حسن ... ان كانت المراسلة بيننا مقطوعة ومألكة المودة ممنوعة ،الا أن عهد المودة التي بين أسلافنا دعا الى تـــجديد عهدها بين أخلافنا ...وما يكون ذريعة لتقوية من تصدى للقيام بأعباء الخلافة بين أظهر المشركين فلا ريب في أنه موجب لعز سائر الموحدين وأن اختلفت مراكزهم بالمشارق والمغارب ... ولا سيما في هذا العصر الذى ظهر فيه الكفر وعلا ... فيجب علينا معاشر المسلمين كافة ، الاتحاد والتعاضد والتناصر لدفع كيد المشركين ،وابقاء شعائر الاسلام بين المؤمنين ...))

وتذكر الرسالة في النهاية بأن هناك تفصيلا اقتضى تبليغه شفاهة (2) .

وحسبنا أن السلطان عبد الحميد كان حريصا على ربط الدولتين ربطا متينا أخويا اسلاميا صادقا ،لذلك نجده يوحي في آن واحد الى شيخ الاسلام ومـــفتي الدولة العثمانية "حسن خير الله" بالكتابة بدوره الى أبي عمران موسى بن أحمد صدر السلطان وحاجبه . وبالفعل كتب الشيـــخ رسالته وكانت تحمل نفس تاريخ رسالة السلطان عبد الحميد الثاني وهي غرة ربيع الأول 1294هـ (1877م) . ومما جاء في الرسالة بعد الديـــباجة : ((...ان مدار قوة الأمة المـــحمدية وصولتها على سائر الملل الردية انما هو اتحاد جميع افرادها الموجودين في كرة الأرض ..ولا سيما عنـــد تعاضد المشركين وقوة أعداء الدين كما نشاهد وتسمعونه مما لهم في هذا الزمان من الصولة الباهرة والجولة والشدة القاهرة المؤدية بحسب المآل الى الفتك بجميع ما للأمة المـحمدية مـــن الأفراد وان كانوا في أقصى البلاد فبناء على هذا ... تحريري الى حضرتكم ما يورث التواصـــل بيننا وبينكم ويقتضي الاتحاد الحقيقي معكم ... هذا والمأمول ... بعد وصول ألوكة الاخلاص

---

(1) بعد الديباجة المحتواة على البسملة والتسبيح والتحميد والشكر والصلاة على محمد (ص) والثناء على خلفائه يقدم السلطان عبد الحميد التحية ويثني على الحسن الأول ثم يخاطبه مخاطبة الند للند والسلطان للسلطان مخبرا اياه بجلوسه على كرسي الخلافة ... الخ

(2) أنظر النص الكامل للرسالة في : السنوسي ، ص 50 ، 51 ، 52 .

وألكة المحبة والاختصاص أن تعرضوا مضمونها الى اسكفة السلطان الشريف المعظم صاحب المفاخر الهاشمية والشرف المكرم الذى ورث المجد والسلطنة والمعالي عن آبائه السلاطين العظام ... سلطان الممالك المغربية ... سيدنا السلطان حسن ...)) وتذكر الرسالة أيضا بأن هناك تفصيلا اقتضى تبليغه شفاهة (1) من طرف السيد ابراهيم السنوسي (2).

ولسنا نعلم جوابا للرسالة الثانية. أما الرسالة الأولى فقد أجاب عنها السلطان الحسن الأول وكان جوابا في المستوى المطلوب. وقد رأينا أن نقتطف منه ما يفيدنا في الموضوع، ونصه بعد الديباجة :(3)

((... ان من شيمكم الكريمة الواضحة ... سبقيتكم الى البحث على تجديد عهود الأسلاف الكرام، واحياء مودة الأجداد العظام ... والدعاية الى الألفة والتشابك على قهر الأعداء ... وأما ما شرحتم من تمالىء أهل الاشراك ونصهم (كذا) للمسلمين الغوائل والاشراك، ودعوتكم اليه من الاتحاد على دفاعهم والاشتباك، فما خلت ... ضمائرنا من تلك النية، والتناصر في ذات الله عندنا غاية الأمنية، والسعي في جمع الكلمة متعين على جميع أهل التوحيد، والدعاء اليه من خصال الموفق الرشيد، وما نصر الله منا ومنكم ببعيد.)) (4).

واذا كان محتوى الرسائل الثلاث يدور حول التواصل والاتحاد ويبرز، ما لا شك فيه، مدى صدق نية الطرفين واستعدادهما للتعاون والتآزر، فان ظروف اتصال الطرفين ببعضهما هو ما يثير عدة تساؤلات لها ما يبررها وذلك للوقوف على مسؤولية كل طرف في افشال التقارب في النهاية.

---

(1) يعود ذلك في اعتقادنا الى أن الطريق الذى يسلكه المرسول، طريق غير آمن اذ يتنقل في مراكب أوربية ويمر بطنجة بالذات مقر نواب الدول.

(2) أنظر النص الكامل للرسالة في :
- ابن زيدان، اتحاف، ج 2، ص 360-362.

(3) تحتوى الديباجة على الحمدلة والتسبيح والصلاة على رسول الله (ص) والثناء على خلفائه وآل البيت، ثم أهداه أزكى التحيات وأنزله مقام الأخ في الله وارث كرسي الخلافة العظمى والسلطان المعظم المفخم. ثم أخبره بوصول جوابه المعرب عما تضمنه الفؤاد ... والحاث الى ما دعت اليه السنة من الألفة وكمال الاتحاد وهنأه بالخلافة وأثنى عليه ... الخ

(4) أنظر نص الرسالة الكامل، وقد وردت بدون تاريخ، في : - المنوني، ص 52-54.

فمن جهة ينقل لنا المنوني (1) عن " حقائق الأخبار عن دول البحار " (2) بأن السلطان الحسن الأول هو الذي أرسل السيد ابراهيم السنوسي عام 1293هـ (1876م) الى الآستانة للتفاوض في شأن عقد اتفاقية بين الطرفين وتجديد العلاقات . فهل بدأت المبادرة فعلا من السلطان الحسن الأول ؟ أم ان السيد ابراهيم السنوسي كان في تركيا فاتصل به السلطان عبد الحميد و بلغه الرسالة الآنفة الذكر ، وكذلك رسالة شيخ الاسلام حسن خير الله ؟ مع العلم ان للآستانة سابق معرفة بالسيد ابراهيم السنوسي في اطار ما اشتهر به في ميدان التجارة في أنحاء العالم الاسلامي وأوربا حسب ما تفيدنا به جريدة " الجوائب " الصادرة بالآستانة . ومن المحتمل اذن أن يكون السيد ابراهيم السنوسي قد انتقل فعلا من المغرب الأقصى الى الدولة العثمانية عام 1876م للتجارة وعاد منها عام 1877م مبعوثا من السلطان العثماني .

والغريب أن نفس المصدر المنقول عنه (3) يذكر بأن علامات الحرب الروسية العثمانية حالت دون بلوغ الهدف فعاد الرسول الى المغرب ، ونحن نعلم بأنه عاد بالرسالتين من الآستانة . وهل يعقل أن الحرب تساهم في تعكير مفاوضات في الآستانة بين دولتين مسلمتين ، تلك المفاوضات التي جاءت بمبادرة من الحسن الأول بينما كان السلطان العثماني أحوج ما يكون الى المساعدة خاصة من طرف دولة اسلامية ؟ !

اننا نرجح الرأي القائل بأن المبادرة جاءت من الآستانة و بالتحديد من جانب السلطان عبد الحميد الثاني (4) . ومما يدعم ما نذهب اليه دلائل يمكن أن نستخلصها من الرسائل المتبادلة فهذا السلطان عبد الحميد يذكر بأن المراسلة بينهما كانت مقطوعة ، وهذا السلطان الحسن يذكر: ((ان من شيمكم الكريمة الراجحة ... سبقيتكم الى البحث على تجديد عهود الأسلاف الكرام ...)) (5) ولعل هذا من الدلائل الكافية لترجيح الاتصال أولا من السلطان عبد الحميد الثاني .

---

(1) نفس المصدر ، ص 49 .

(2) اسماعيل سرهنك ، المطبعة الأميرية ، مصر ، ج 1 ، ص 350 .

(3) سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ،

(4) Miege; *Le Maroc*, t. IV, p. 174 .

(5) أنظر محتوى الرسالتين الآنفتين .

ومهما يكن ،فان الظروف والتطورات الدولية الخطيرة ساهمت في اقناع الطرفين بضرورة إيجاد علاقات بينهما . . يبدو أن للجامعة الاسلامية دورا كبيرا في التقارب ،لأنها كانت ترمي الى تخليص الشعوب الاسلامية من السيطرة الأجنبية لا سيما بعد الأحداث التي شهدتها الساحة الاسلامية ، كالحرب الروسية - العثمانية (1877م) ،التي انتهت بمعاهدة سان ستيفانو (3 مارس 1878م) ، المعدلة في مؤتمر برلين (جوان 1878م) الذى كان فرصة بالنسبة للدول الاوربية ،لوضع أسس لتجزئة الدولة العثمانية . ثم تبني السلطان عبد الحميد الثاني - بعد 1878م - فكرة الجامعة الاسلامية [1] .وفي المغرب نفسه كانت الأوضاع سيئة بسبب ما كان يجرى من مفاوضات في طنجة حول نظام الحماية الدبلوماسية والقنصلية والتي انتهت عام 1880م بمؤتمر مدريد الذى كرس نظام الحماية وفتح بابا لتدويل القضية المغربية كما سيأتي .

وبدت الأخطار واضحة في العالم الاسلامي بمد نفوذ فرنسا الى تونس عام 1881م وفرض بريطانيا حمايتها على مصر عام 1882م . كل ذلك دفع السلطان الحسن الى أن يجدد علاقاته الدبلوماسية مع الباب العالي والاستفادة من الخبراء العثمانيين [2] .

وهكذا ففي عام 1882م [3] أرسل السلطان الحسن بعثة مغربية الى الآستانة [4] ، وكان على رأسها الوزير بريشة التطواني ،فاستقبلها السلطان عبد الحميد الثاني بحفاوة . وقد كان الأخير كثير الاهتمام بالمغرب العربي بعد ما افتكت الجزائر من الدولة العثمانية ثم تونس . وأثمرت البعثة الاتفاق على تبادل التمثيل الدبلوماسي ،وتم ترشيح ابراهيم السنوسي الفاسي كممثل للمغرب في الآستانة والأمير محيى الدين بن الأمير عبد القادر الجزائرى كممثل للدولة العثمانية في المغرب الأقصى (طنجة) [5] .

---

(1) -Miege; Le Maroc, t. IV, p. 174 .
وكذلك : صبحي ، ص 56-59 .

(2) الفاسي ،الحركات ،ص 87-88 . - التميمي ،بحوث ووثائق ،ص 115 .

(3) هناك بعض المصادر التي تذكر بعثات أخرى قبل 1882 كبعثة 1879 وأخرى عام 1881 .
- أنظر : -Miege, Le Maroc, t.IV,p 174 .

(4) نفس المصدر ، ص 174 .

(5) الفاسي ، الحركات ، ص 87-88 . - المنوني ، ص 48 .
التميمي ،بحوث ووثائق ،ص 115 .

ولكن "تجرى الرياح بما لا تشتهي السفن" كما يقال ، اذ كان القنصل الفرنسي "باسلام بول" يتتبع القضية باهتمام بالغ فأخبر حكومسته بما حصل من اتفاق بين المغرب الأقصى والدولة العثمانية ، فبادرت بتنشيط دبلوماسيتها قصد اغراء دول معاهدة مدريد (1880م) للوقوف في وجه تحقيق هذا التقارب الاسلامي (1).

وبذلك دخلت قضية العلاقات وتبادل التمثيل الدبلوماسي في لعبة السياسة الأوربية بالمغرب الأقصى . فما موقف باقي الدول الأوربية اذن من قضية العلاقات المغربية ـ العثمانية ؟

((يمكنني أن أستفسر الصدر الأعظم لمعرفة ما اذا كان السلطان مستعدا لبعث سفير الى اسطمبول ... ففي اعتقادي أنها سياسة حكيمة تلك التي تعمل على تقريب القوتين الاسلاميتين ذلك التقارب الذي من شأنه أن يحول دون سقوط المغرب ... تحت الحماية الفرنسية على غرار تونس(2)) ذلك ما صرح به " Scovasso " ـ وزير ايطاليا ـ الى السفير الايطالي بمدريد ، وهو أيضا تعبير عن موقف ايطاليا من التقارب المغربي العثماني . وقد ظل " سكوفاسو " حريصا على ارسال سفير مغربي الى اسطمبول ، فلما التقى بالسلطان في مراكش ـ أثناء بعثه سكوفاسو نفسه في شهري أفريل وماي 1882م ـ أوحى اليه بذلك فوعده بأنه سيبعث بسفير الى اسطمبول بمجرد عودته من مهمته في منطقة السوس (3).

وكان موقف ألمانيا مماثلا لايطاليا ، اذ رأى ممثلها " Testa " بأن التقارب المغربي العثماني من شأنه أن يجلب متعاونين عثمانيين يضعون حدا للمؤسسات الفرنسية ومنها البعثة التدريبية العسكرية (4) . وذهب " تستا " الى حد التفكير في التنسيق مع العثمانيين واستعمال قوى الجامعة الاسلامية ، لتحقيق هذا الغرض (5) . كما كان يأمل في مساندة بريطانيا لألمانيا في

(1) ـ الفاسي ، الحركات ، ص 87-88 .
-Miege; Le Maroc, t. IV, p. 178 .

(2) نفس المصدر ، ص 174 .

(3) بعد الاحداث الخطيرة التي شهدها عام 1882م في المشرق .

(4) -Miege; Le Maroc, t. IV, p. 174 .

(5) كان النفوذ الألماني قد بدأ يتوطد في الدولة العثمانية وقتذاك مقابل سحب ثقة الدولة العثمانية من فرنسا وبريطانيا اللتين استولتا على تونس ومصر .

موقفها هذا وكذلك اسبانيا (1) .

وقد وافقت دبلوماسية الدولتين ـ بريطانيا واسبانيا ـ على مساندة ألمانيا شريطة أن يكون هدف التقارب هو مزاحمة فرنسا في المغرب. وشرع " تستا " في مساعيه الدبلوماسية مع الآستانة ، فأرسل اليها مبعوثا عام 1885م يدعى " أبا طالب " لكن هذا عاد في ديسمبر من نفس السنة ، لأن السلطان عبد الحميد استقبله ببرودة ، وكذلك السيد " ظافر المدني " (2) وخير الدين باشا التونسي وشخصيات أخرى (3) .

بدأت مساعي " تستا " لدى الآستانة تؤتي ثمارها على ما يبدو في جويلية عام 1886م حين وصل " علي باي " ـ أحد أحفاد حمدان بن عثمان خوجة الجزائري ـ الى طنجة في مهمة سرية (4) لدى السلطان الحسن كمبعوث من السلطان عبد الحميد الثاني ، وكانت مهمته تتمثل في اقتراح بعثة عسكرية عثمانية لتدريب الجيش المغربي ، ولكن الأعين الفرنسية تفطنت لهذه المساعي ، فتدخلت من خلال شخص شارل فيرو " Feraud " (5) ، الذي وصل الى مراكش وأثر على السلطان عن طريق تحريك عناصر مخزنية عديدة (6) . وهكذا رفض السلطان الاقتراح ، وعاد " علي باي " في

---

(1) كانت بريطانيا تشجعه في الخفاء ، أنظر : _ Miege; Le Maroc, t. IV, p. 175.

(2) أخي محمد ظافر ، مدير الشؤون الدينية لدى السلطان عبد الحميد الثاني .

(3) 175 . p. - Miege; Le Maroc, t. IV,

(4) لا شك في أن السرية تهدف الى كتمان البعثة على ممثلية فرنسا في المغرب .

(5) هو شارل فيرو ، ولد بنيس في 5 فيفري 1829م . وقد حل بالجزائر عام 1845م ، حيث انخرط في سلك المترجمين العسكريين . وفي عام 1872م صار فيرو مترجما رئيسيا . زار المغرب ضمن بعثة " دو فيرنوييى " الى فاس عام 1877م ، ثم أسندت مهمة القنصلية العامة لفرنسا بطرابلس في السنة الموالية . أما في 4 ديسمبر 1884م فقد عين كوزير مفوض في طنجة ومكث هناك الى أن توفي في نوفمبر 1888م .

(6) استعمل " فيرو " ـ اضافة الى عون القنصل الفرنسي بفاس ـ أصدقاء مخلصين له للتأثير على المقربين من السلطان كأحمد بن سودة مثلا .

أنظر -Miege; Le Maroc, t. IV, pp. 175_176.

أكتوبر 1886م دون أن يسمح له السلطان بمقابلته (1) .

ويعود " فيرو " مرة ثانية ـ في شهر نوفمبر ـ الى مراكش ،ولم يغادرها الا بعد أن طمأنه السلطان بأنه لن تكون مع الدولة العثمانية أية رابطة (2) .

ومهما كانت مصداقية هذا القول ـ الذى كرره السلطان للوزير الفرنسي في مناسبات أخرى (3) ـ فالمهم أن المساعي الفرنسية لابعاد كل تقارب بين الدولة العثمانية والمغرب كانت أقوى بكثير من مساندة باقي الدول الاوربية للمشروع (4) .

وقد تكررت البعثات العثمانية الى المغرب كبعثة عبد الله السنوسي ـ أخي ابراهيم السنوسي سابق الذكر ـ الذى أرسل هذه المرة من طرف " محمد ظافر " عام 1887م (5) ،وهي السنة نفسها التي كتب فيها " محمد سعيد " وزير خارجية الدولة العثمانية لوزير الخارجية الحسنية رسالة بتاريخ 15 ربيع الثاني 1304 هـ طالبا منه السماح بانشاء سفارة عثمانية بطنجة (6) ،جاء فيها بعد الديباجة :

((... انه لما كان تأييد ... المخالصة والاتحاد الجاريين بالطبع فيما بين الدولة العلية وحكومة فاس الفخيمة ورعاية منافع الطرفين هو قصارى مرغوب السلطنة السنية وجل مبتغاها وكان الحصول على هذا المقصد موقوفا على أن يكون لكل من الحكومتين سفيرا في عاصمة الأخرى ليكونا واسطة لتبليغ أفكار الحكومتين ... ونواياهما الخالصة ولا مراء بأن شهامة حكمدار فاس الأفخم سيتكرم بالاشتراك مع الدولة العلية ... بتشييد أس المخادنة والمصافاة ... و بما أن السلطنة السنية ترغب في تشكيل هيئة سفارة في طنجة مركز الحكمدارية الفخيمة الفاسية فالمتمنى اذا صرف جل الهمم العلية باستحصال موافقة حضرة الحكمدار المشار اليه بحصول هذا الطلب المؤدى لتأييد دعامة المصافاة ... بين الحكومتين والتكرم بافادة عاجزكم عما يحسن بهذا الباب هذا مع ابراز شعائر الاخلاص لمكارمكم ...)) (7) .

---

(1) نفس المصدر ،ص 175ـ176 .　　(2) نفس المصدر ،ص 176 .

(3) نفس المصدر ،ص176ـ177 .　　(4) ما عدا ألمانيا من خلال مساعي "تستا " .

(5) لا نعلم على البعثة أكثر من هذا . أنظر : Miege; *Le Maroc*, t. IV, p. 177.-

(6) المنوني ، ص 50 .

(7) أنظر نص الرسالة الكامل في : ابن زيدان ،اتحاف ،ج 2 ،ص359ـ360 .

وقد أجابت الخارجية المغربية برسالة غريبة نفت فيها امكانية احداث هذا النوع من الرسائط في أهل الملة الاسلامية • ومما جاء في خلاصة الرسالة :

((... ان نعمة هذه الأخوة لا يقبل حكمها التشكيك ... فلا داعي لتنزيل جانبها منزلة ملل الاختلاف حتى تحتاج لنصب وسائط تمهيد الائتلاف • ولتفهيم القواعد والقوانين والأعراف لأن من المقرر المعلوم أن المقتضي لذلك هو ضرورة المعاملات • المتوقفة على المفاوضة بين الأجناس المحتاجة لبيان الاصطلاحات واللغات • وذلك منتف في الملة الاسلامية والأخوة الايمانية لاتحاد جميعهم في أصول الأحكام والأعراف الشرعية ... وبأن أسلافه واسلافكم ... كان بينهم ما هو مشهور عند الخاص والعام من ... الاتصال التام ... وانه أيده الله مع الدولة المعظمة على آثار أسلافه الأكرمين •)) (1)

يتضح من الرسالة أن السلطة المخزنية المغربية أصبحت تتهرب من اقامة علاقات صادقة وفعلية مع الدولة العثمانية ومرد ذلك ، فيما يبدو ، الى تخوفها من غضب الدول الأوربية عليها وفي مقدمتها فرنسا (2) ، واذا لم يكن ذلك ، كيف حصل للسلطان الحسن الأول سابق اتفاق عام 1882م على تبادل تمثيل دبلوماسي وتم بالفعل ترشيح الممثلين وهما ابراهيم السنوسي والأمير محيي الدين ؟ وكيف نفسر أيضا وجود " قنصل " أو " وكيل " في مصر منذ أربعينات القرن 19م ؟ ان السلطان الحسن الأول نفسه كان قد عين ، كما عرفنا ، الحاج عبد الواحد بن محمد التازي كوكيل للمغاربة في مصر وذلك في عهد خديوي مصر اسماعيل باشا (1877م) (3).

وقد لقيت بعثة جويلية 1889م بقيادة السيد عمر الوزاني نفس مصير البعثات السالفة ، اذ عاد المرسول العثماني بخفي حنين (4) • وكانت المسألة في هذه السنة بالذات (1889م) موضوع تعاليق في الصحف ، منها جريدة " المغرب " الصادرة بطنجة ، وجريدة " ثمرات الفنون " الصادرة

---

(1) أنظر النص الكامل لخلاصة الرسالة في : نفس المصدر ، ص 360 •

(2) نصائح " فيرو " الى السلطان ، أنظر : -A.M.G. 3H5, Paris, le 7 Mai 1888.

(3) ابن زيدان ، العز والصولة ، ج 2 ، ص 432-433 •

— المنوني ، ص 46-47 •

(4) Miege; Le Maroc, t. IV, pp. 178-179 •

ببيروت· وأعربت الجريدتان عن الفوائد الدينية والتجارية التي تنجم عن انشاء تلك السفارة العثمانية في المغرب، وأيدتهما جريدة "الصباح" الصادرة بالآستانة [1].

ولعل آخر بعثة عثمانية الى المغرب في عهد السلطان الحسن الاول [2] هي بعثة أحمد الوزاني عام 1892م [3]. ولكن السلطان اضطر تحت ضغط الدول الأوربية ومعارضة قناصلها للمشروع – بعد اقناع فرنسا لهم [4] – الى عدم الاستجابة لطلبات الباب العالي الملحة والمتكررة، وبقي الأمر كذلك الى وفاة الحسن الأول عام 1894م [5].

ترى كيف تطورت العلاقات المغربية الأوربية في خضم هذه الأحداث ؟

---

(1) المنوني، ص 49 ·

(2) هناك محاولات أخرى في عهد السلطان عبد العزيز لا سيما عام 1897م و1899م · أنظر:
– *Miege; Le Maroc, t. IV, p. 179.*

(3) نفس المصدر، ص179·

(4) الفاسي ، الحركات، ص 88·

(5) نفس المصدر، ص88·
– المنوني، ص 48·

2 _ العلاقات المغربيــة الأوربية :

ليس من السهل طرق موضوع " العلاقات المغربية الأوربية " في عهد الحسن الأول ، لان المغرب لم يكن في واقع الأمر يتعامل مع الدول منفردة ولكن مع شبه هيئة دولية كانـت تقيم في طنجة طيلة الفترة التي تعنينا ،هذا من جهة ، ومن جهةثانيـة لأن العلاقات المغربية الأوربية كانت في حقيقة الأمر مـفروضة على المغرب وقد " حصلت بالاضافة لا بالعطف"(1) . وتكمن الصعوبة من ناحية ثالثة ، في طبيعة هذه العلاقات غير المتكافئة ،لأن الدول الأوربية لم تكن في علاقاتها تتعامل مع المغرب معاملة الند للند بل كانت تتصارع عليه .

ان العلاقات الأوربية المغربية لهذه الفترة _ على الأقل _ تختلف عن العلاقات الدولية التقليدية المتعارف عليها لأن الدولة الأوربية الواحدة لم تكن تستعمل هيئة دبلوماسية تسهر على رعاية مـصالحها في المغرب ولكنها كانت تستعمل هيئة جماعية معقدة ،وهي لا تتعامل مع وزارة للخارجية فقط ، ولا مع المخزن وحده ولكن مع عامة الشعب تقريـبا من خلال نظـام الحمـاية الدبلوماسية والقنصلية (2) .ومن هنا فالوسائل التي وظفتها الدول للوصول الى أهدافها كثيرة ومـتنوعة ، بعضها ظاهرية والبعض الآخر خفـية .

واذا كان لا بد من تحديد لوضعية العلاقات المغربية الأوربية عند اعتلاء السلطان الحسن الأول العرش المغربي ، فمن المهم ، بادئ ذي بدء ، أن نشير الى ان مـصالـح الدول الأوربية في علاقاتها مع المغرب لم تكن واحدة ومن هنا فان اهتمامها بالمغرب لم يكن واحدا . وعلى هذا الأساس فمن المهم ان نحدد وضعية العلاقات بتحديد طبيعتها ووسائلها وأهدافها .

أما طبيعة العلاقات المغربية الأوربية فقد كانت تجارية _ سياسية ،ومرد ذلك الـى اعـتبارات عديدة ، ياتي في مقدمتها موقع المغرب الممتاز والمـطل على واجهتين بحريتين مما يرشحه لأن يكون طرفا لمسائل عديدة . فهو جزء من مسألة البحر المتوسط خاصة في هذه

---

(1) الوثائـق (4) ، ص 17 .

(2) سبق أن عرفنا نظام الحماية الدبلوماسية والقنصلية في الفصل الأول .

الفترة بعد التطورات الهامة التي حدثت في المتوسط والتي زادت من قيمة المغرب الاستراتيجية كشق قناة السويس التي جعلت الاهتمام بالمغرب يدخل ايضا في اطار الاهتمام بالطرق العالمية والمنافذ البحرية ويهم بذلك الدول التجارية والاستعمارية كانكلترا وفرنسا ثم ألمانيا (1). كما أن موقع المغرب يمثل جزءا من المسألة الافريقية خاصة بعد ما وصلت القوى الاستعمارية الى الحدود المغربية من الشرق والجنوب وبعد ما صارت الأساطيل الأوربية تطوف حول الشواطئ من الشمال والغرب (2).

وكانت طبيعة العلاقات التجارية الأوربية مع المغرب في عهد الحسن - علاوة على ما تقدم - قد فرضتها التطورات الاقتصادية الأوربية من ازدياد عدد الدول الصناعية وتحسن وسائل الانتاج وتضخمه وكذلك تراكم رؤوس الأموال وظهور سياسة الحماية ،كأسلوب جديد من أساليب السيطرة على أسواق المستعمرات (3). ومما زاد في اثارة ((شهوات الرأسمالية الأوربية أنه لم يكن في المغرب طرقات ولا موانئ صالحة مما كان يفتح أمام الرأسمال الأوربي امكانيات واسعة)) للاستثمارات في مشاريع متعددة ،كالموانئ والسكك الحديدية والطرقات والمنارات والتلغراف وغيرها ... (4)

وكانت وسائل العلاقات المغربية الأوربية تقوم على دبلوماسية التكافؤ والمجاملة أحيانا ودبلوماسية القوة والضغط أحيانا أخرى. وفي اطار هذه الوسائل استغل نظام الامتيازات الأجنبية أو ما عرف بـ"نظام الحماية الدبلوماسية" أوسع استغلال الى درجة أصبح معها يهدد كيان المغرب السياسي والاقتصادي (5) كما سنرى.

وكانت اهداف العلاقات هي الحصول على امتيازات اقتصادية وسياسية ،من ذلك مثلا : احتلال مراكز على الحدود الجزائرية والسواحل وكسب امتيازات اقتصادية وسياسية تكون أساسا لادعاءات ومشاريع مستقبلية ،لأن الدول الأوربية ككل - في عهد الحسن الأول - كانت تخشى اثارة المسألة المغربية لأسباب تعود الى انشغالها بمسائل في افريقيا والشرق الأقصى من

---

(1) محمد خير فارس ،المسألة المغربية 1900-1912 ،مطبعة نهضة مصر ،القاهرة ،1961 ،ص 56.

(2) فارس ، ص 56.

(3) نفس المصدر ، ص 56.

(4) نفس المصدر ،ص 56-58.

(5) نفس المصدر ،ص 56 و 81 - الوثائق (4) ص 17-18.

جهة ،ومن جهة ثانية ،لأنها لم تكن تملك الوسائل الكافية لتحقيق مطامعها فيما اذا اثيرت هذه المسألة . فالموقف الدولي لم يكن اذن يسمح بذلك لأن العلاقات الدولية لم تكن قد استقرت بعد على أسس واضحة بسبب المنافسة من جهة وظهور قوى جديدة من جهة أخرى (1) .

انطلاقا من هذه الحيثيات وغيرها ،رأينا أن نعالج علاقات المغرب مع الدول الأوربية في عهد الحسن وذلك بتقسيمها الى مرحلتين اثنتين ، تنتهي الأولى عام 1880م ،أي بعقد مؤتمر مدريد . وسنركز خلال هذه المرحلة على نظام الحماية كموضوع كاد أن يطغى على سواه من المواضيع التي أثيرت في اطار هذه العلاقات .

أما المرحلة الثانية فتنتهي مع وفاة السلطان الحسن . وقد رأينا أن نركز خلالها على علاقات المغرب منفردة مع أكثر الدول الأوربية مصالح في المغرب وأشدها اهتماما به وهي : فرنسا ،وانكلترا ،واسبانيا ،وألمانيا . أما ايطاليا فقد اكتفينا بدمجها في علاقات المغرب مع الدول السالفة الذكر اقتناعا منا بان دورها كان ثانويا خلال كل الفترات ،كما أنها كانت بيد السياسة الانكليزية والألمانية لمعاكسة فرنسا (2) .

أ ـ العلاقات المغربية الأوربية الى مؤتمر مدريد (1880م) :

تختلف علاقات المغرب مع سائر الدول الاوربية المهتمة به ،من حيث تفاوت أهمية مصالحها فغرنسا صارت علاقاتها أنشط في القرن 19م ،بعد ما أصبحت تربطها بالمغرب حدود مشتركة (3) وأكثر من هذا فقد تحول المغرب مع جهات أخرى من افريقيا وآسيا بالنسبة لرجال الجيل الغرنسي الذى تلا سنة 1870م مثل الجزائر بالنسبة للجيل الفرنسي الذى تلا سنة 1815م ،اذ كانت تريد اكمال وضع يدها على المغرب العربي وربطه بممتلكاتها في افريقيا السوداء (4) ،ولو أن

---

(1) فارس ،ص 59 . (2) نفس المصدر ،ص 59 .

(3) صبحي ،ص 13-14 .

(4) نفس المصدر ،ص 49-50 . وكذلك :

— *Julien et Autres; "Hassan 1er ", J.A., p. 235.*

ذلك كان من أهدافها البعيدة ،لأن فرنسا في بداية الفترة التي تعنينا كانت لا تزال متأثرة بعوامل كهزيمتها في حرب السبعين التي قلصت في نشاطها الاستعماري فترة من الزمن "شغلت فيه بمداواتها جراحها التي خلفتها هذه الحرب" ،وكذلك توطيد أقدامها في الجزائر ،علاوة على شخصية الحسن الأول الذي عرف الى حد ما كيف يستغل الظروف الدولية والتنافس الأوربي للحصول ولو على بعض ما يريد (1).

أما انكلترا فكانت تطمح الى استمرار انفرادها بالتجارة الخارجية المغربية. فسعت الى المحافظة على ذلك. وكان من اولوياتها تمرير القطن والشاي والمواد الغذائية لا سيما وهي تراقب منافذ البحر المتوسط وفي مقدمتها مضيق جبل طارق و تحول دون تمركز قوة أوربية على الضفة المقابلة لها تأمينا لتجارتها (2) ،وساعدها في ذلك ثقة المغرب في قوتها ،تلك القوة التي حمته من خطر فرنسا بعد معركة "ايسلي" (1844م) ومن اسبانيا في أحداث تطوان (1860م) مما جعل المغرب يثق في انكلترا الى حد كبير ومن ذلك ثقته في دبلوماسييها الذين رحب السلطان الحسن بدورهم الاستشاري (3).

أما اسبانيا التي لها -على غرار فرنسا- حدود مشتركة مع المغرب من خلال ممارسة سيطرتها على مجموعة من الحاميات ،كسبتة ومليلية ،و "بادس" ،والحسيمة ، كما تشاطر انكلترا في حرية مضيق جبل طارق التي تشكل بالنسبة لها أكثر من ضرورة (4).

وكان اهتمام ألمانيا وايطاليا بالمغرب حديثا حداثة تحقيق وحدتيهما (5) ،تلك الوحدة

---

(1) فارس ، ص 72-73.

(2) - *Terrasse*; p. 338. - *Brignon*; p. 297.
-*Julien et Autres*; "Hassan 1er", J.A., p. 235.

(3) - فارس ، ص73 . وكذلك : - *Terrasse*; p. 338.
- *Ordega*; R. P. L., p. 788.

(4) - صبحي ، ص12-13. وكذلك : - *Kerdec*; p. 315 et 323
- *Brignon*; p. 297; -*Julien*; et Autres; "Hassan 1er", J.A., p 235.

(5) كانت هناك علاقات بين الموانئ الألمانية والايطالية من جهة والمغرب من جهة ثانية. وقد وصل أول مقيم ألماني لدى الحكومة المغربية عام 1873م. أنظر :
- حركات ، ج 3 ، ص 271. وكذلك : - صبحي ، ص 45-46.

التي مكنتهما من الدخول في معترك السياسة المغربية · وكانت مصلحة ألمانيا في المغرب سياسية دبلوماسية قبل كل شيء ،اذ اتخذته كقاعدة للتشويش من خلاله على المستعمرة الفرنسية المجاورة وتوجيه رجال الجيش الفرنسي في الجزائر تارة ،و تارة أخرى لتشتيت السياسة الفرنسية وابعادها عن قضيتي الألزاس واللورين ،و باختصار فهي لعبة شطرنج كانت بيد بسمارك يستعملها مع باقي الدول الأوربية المتنافسة على المغرب والعالم ككل (1) .

أما السلطان الحسن فقد استحسن التعامل مع ألمانيا وأبدى المخزن فيها رأيا مسبقا ، وهو أنها قوة أوربية غير استعمارية يمكن الاعتماد عليها خاصة في حالة مواجهة مع فرنسا (2) .

ورث المغرب في عهد الحسن الأول مشاكل عديدة ولدتها التنازلات والامتيازات التي قدمها السلاطين - منذ النصف الثاني من القرن 18م- مختارين أو مضطرين الى الدول الأوربية (3) . ويعد نظام الحماية الدبلوماسية والقنصلية من أهم مواضيع فترة السبعينات ، لأن هذا النظام هو الذي مكن الدول الاوربية من تطبيق سياسة استيطانية تهدف الى تمكين جالياتها من الاستقرار لتحقيق الغرض التجاري والسياسي · من ذلك ازالة نفوذ السلطة المخزنية من المواطنين المغاربة واستبدالها بسلطة أجنبية مع استمرار الاحتفاظ بنفس الجنسية (4) · وسرعان ما صار لنظام الحمايه الدبلوماسية أبعاد عميقة وأهداف واسعة ،فلم تعد المطامع في المغرب مقصورة على الدول الاوربية الكبرى (5) فحسب وانما تعدتها الى الولايات المتحدة و بلجيكا والسويد وسردينيا ،علاوة على الدول التي نشأت بعد 1870م كألمانيا وايطاليا (6) .

---

(1) - Brignon ; p. 297·
- Miege; Le Maroc, t. IV, pp. 19-20·

(2) -Brignon; p. 297 ·

(3) الوثائق (4) ،ص114·
عن نظام الحماية الدبلوماسية والقنصلية ،أنظر بيبليوغرافية بالعربية والاجنبية ،نفس المصدر، ص117 الى 121·

(4) -Lahbabi; p. 152·
- Julien et Autres; "Hassan Ier", J.A., p. 235·
- خلف التميمي ،م · ت · م · ، ص 122·

(5) كانكلترا وفرنسا واسبانيا ·

(6) الوثائق (4) ، ص 30·

صادف انفتاح المغرب على اوربا حدوث تغيرات جذرية في الاقتصاد العالمي ،أعطت بعدا جديدا لعلاقات المغرب مع أوربا ،كانتصار الليبيرالية وظهور الاختراعات الكبرى ،وفتح قناة السويس ،وبناء السفن عابرات القارات وانطلاق الملاحة البخارية ، مما أدى الى تغيير معطيات الاقتصاد العالمي اذ أصبحت حبوب أمريكا وأصواف استراليا والارجنتين وجلود الهند ،تصل منذئذ الى أوربا بكميات هائلة و بأثمان أرخص من المواد التي تصل من المغرب (1) .

ومن ثم تحول المغرب شيئا فشيئا من بلد مصدر للحبوب والأصواف الى مستورد لها ، وكذلك الى بلد مصدر للموارد المنجمية . و نشأت بعض الشركات المدعمة بوسائل مختلفة فتحول المغرب الى ميدان لتنافس دولي مرير (2) . وصار الدبلوماسيون بطنجة والقناصل في الموانئ يراقبون بعضهم بعضا فيعمل كل منهم على تدعيم وسائل النفوذ والتأثير و تشجيع اقامة مواطنيهم ـ في اطار ما يخوله لهم نظام الحماية الدبلوماسية وما لم يخوله لهم ـ و زيادة عدد محميهم لتكثيف شبكة رجال الأعمال المجندين داخل البلاد من سماسرة وشركاء وجواسيس وغيرهم (3) .

وجدت الدول الأوربية في مؤسسة " الحماية الدبلوماسية " خير وسيلة للوصول الى الهدف خاصة بعد ما حصلوا على فوائد تجارية كبيرة دون عناء الحملات العسكرية وعن طريق المواطنين المغاربة أنفسهم (4) . و تفاقم الوضع وازداد خطورة بتدخل القناصل فيما لا يعنيهم وهو ما يفسر لنا كثرة المراسلات بين نائب السلطان السيد بركاش بطنجة والحسن الأول (5) .

ترى ما موقف السلطان من هذا الخطر الداهم والتحدى السافر؟

لم يكن السلطان غافلا عن هذه المؤسسة الخطيرة على مستقبل المغرب ،بل كان كثير الاهتمام والتفكير فيها منذ توليه الحكم ،ينظر اليها بعين ملؤها القلق لأنها مصدر للخلافات القائمة بين المغرب والحكومات الأجنبية . كما أنها تشكل عقبة أمام كل تجديد داخلي ،ومن

---

(1) -*Brignon* ; p. 292.

(2) نفس المصدر ،ص292 .

(3) - *Ayache* ; p. 59-60.

-*Brignon*; pp. 294-295

(4) -*Lahbabi* ; p. 152

(5) الوثائق (4) وثيقة 585 ص 404 وغيرها كثير.

أنظر كذلك أمثلة عن سوء سيرة بعض الدبلوماسيين : نفس المصدر ،ص 56 .

هنا فقد اقتنع بضرورة وضع حد لها وللتعسفات الناتجة عنها (1) .

لا شك أن السلطان الحسن الأول وضع من أولويات أهداف السياسة الاصلاحية اصلاح نظام الحماية الدبلوماسية والقنصلية . لكن ما السبيل الى ذلك؟ وهل كان في وسع السلطان التراجع بسهولة عن امتيازات منحها أجداده للدول الأوربية ؟ وهل من المعقول أيضا أن ترضى هذه الدول بالتخلي عن حقها في نظام الحماية المتفق عليه في معاهدات ــ وهو الذى حقق لها من النتائج ما قد تعجز عن تحقيقه بجيوشها الجرارة ؟

لا شك أن هذه الاسئلة وغيرها دارت في مخيلة السلطان ، وانتهى الى ان الحل أولا وأخيرا بأيدى الدول الأوربية نفسها . ومن هنا كان عليه اصلاح نظام الحماية (2) اعتمادا على دولة أو دول يثق فيها أو في قناصلها على الأقل . وبالفعل كان السلطان يعول على مساعدة " هاى " (3) وزير انكلترا المفوض والى حد ما على " تيسو " وزير فرنسا المفوض (4) .

كان اعتماد السلطان على " هاى " يقوم على مناصرة هذا لفكرة اصلاح نظام الحماية ، وقد يبدو هذا عجيبا للوهلة الأولى لكن على راى المثل : " اذا عرف السبب بطل العجب " ، ذلك أن نظام الحماية على الصورة التي كان عليها هو ((أفيد لتجارة التصدير غير البريطانية منها

---

(1) Miege; Le Maroc, t. III , p. 267. -

(2) سبق أن فكر السلطان محمد بن عبد الرحمن في عقد موءتمر للنظر في تعسف نظام الحماية الدبلوماسية وذلك عام 1869 ــ 1870 م ولكن الحرب الفرنسية الالمانية صرفت أنظار الدول فلم يتحقق لهذلك . أنظر : الوثائق (4) ، ص 18 ــ 23 . وكذلك ص 58 ــ 60 .

(3) كان " هاى " يزود السلطان بأسرار دقيقة عما كان يروج في قلب اسبانيا ، لما كان السلطان في أمس الحاجة الى معرفة ما يجرى في المحيط الدولي ، وفي اسبانيا بالذات التي لم تكن علاقاتها مع المغرب على ما يرام ، اذ زيادة على الوجود الاسباني بالموانىء المغربية ونظام الحماية الدبلوماسية للرعايا المغاربة ، كانت هناك مشكلة سبته ومليلية ، علاوة على التغلغل الاسباني بالجنوب . أنظر :

ــ الناصري ، ج 9 ، ص 164 . ــ حركات ، ج 3 ، ص 27 .

أنظر أيضا عن أسباب اعتماد السلطان على " هاى " : الوثائق (4) ، ص 19 .

(4) Miege; Le Maroc, t. III, p. 267. -

لتجارة التوريد البريطانية .)) [1] أما " تيسو " فيرى في نظام الحماية المعرقل للآمال التي يريدها أن تجعل المغرب خالصا لفرنسا دون غيرها من الدول [2] .

دفع تأييد الدبلوماسيين للسلطان الى أن قرر الاتصال مباشرة بالدول الأوربية ، فأرسل في شهر ماى 1876م السيد حاج محمد الزبدى الرباطي الى انكلترا وفرنسا و بلجيكا وايطاليا لغرض لفت أنظار حكومات هذه الدول تجاه مشكلة نظام الحماية القنصلية والدبلوماسية [3] . ولقد انطلقت مع البعثة مرحلة من الصراع حول موضوع اصلاح نظام الحماية استمرت قرابة خمس سنوات في طنجة أولا ثم في مدريد ثانيا [4] .

عاد السفير الزبدى من أوربا ببعض الوعود ، فاعتمدها السلطان [5] على قلتها وقرر طرح القضية ومناقشتها مع جميع ممثلي الدول الاجنبية في طنجة ، فاصدر أمره الى بركاش بتسليم مذكرة اليهم في 10 مارس 1877 ، تشتمل على تسع عشرة نقطة [6] ، اقترح فيها الاصلاحات التي يجب ادخالها ودعاهم الى الاجتماع في مؤتمر للنظر في قضية نظام الحماية [7] . وكانت غاية مطالب السلطان هو ايقاف الدول الاجنبية عند حدود المعاهدات والاتفاقيات [8] .

استغرقت مناقشة المذكرة مدة شهر (9 جويلية الى 10 اوت) ثم تواصلت المفاوضات بقية عام

---

(1) الوثائق (4) ، ص 61_62 . (2) نفس المصدر ، ص 61_62 .

(3) كان من أهداف الزيارة أيضا الرد على زيارة سفراء هذه الدول السلطان لتهنئته بعد ما تمت له البيعة . أنظر : ابن زيدان ، اتحاف ، ج 2 ، ص 279 .

_ الوثائق (4) ، ص 62 . -Miege; Le Maroc, t.III , p. 268.

(4) نفس المصدر ، ص 268 .

(5) أنظر عن تفاصيل زيارة السفير الزبدى :

_ ابن زيدان ، اتحاف ، ج 2 ، ص 279 الى 313 .

(6) أنظر تحليل المذكرة : الوثائق (4) ، ص 65 .

(7) نفس المصدر ، ص 63 . -Miege; Le Maroc, t. III, p268_269.

(8) الوثائق (4) ص 65 .

1877، وطيلة 1878م بين الممثلين الأجانب وحدهم تارة ، بينهم و بين وزير الخارجية السيد بركاش تارة أخرى (1).

واذا جاز لنا أن نتساءل عن الأجواء التي تمت فيها المباحثات للوقوف على النوايا المبيتة فانه تجدر الاشارة الى تفاقم وضع نظام الحماية في هذه الظروف بالذات اذ غذي بعوامل جديدة كازدياد نشاط البعثات " التبشيرية " المسيحية في المغرب بتشجيع من حكومات الدول الأوربية (2). فتمكن مبعوثو الفرنسيسكية (3) الاسبان تدريجيا من الانتشار في كامل المدن الساحلية المغربية تحت تأثير الأب " *Lerchundi* " (4). كما استجاب السلطان لرغبة فرنسا ، فوضعت تحت تصرفه بعثة للتدريب العسكري كلّفت بتنظيم و تدريب فرق الجيش السلطاني (5). ولم تكن البعثة في حقيقة الأمر سوى هيئة مخابرات و تجسس على

---

(1) نفس المصدر، ص 68. وكذلك : -Miege; Le Maroc, t.III, p. 272.

(2) صبحي ، م 8.

(3) أو الفرنسيسية ، نسبة الى *Saint François d'assise* وهو رجل دين ايطالي يعود الى القرنين 12 و13م (1182–1226م) أنشأ طريقة الرهبان الصغار أو " الاخوان الصغار ". اما عن البعثات المسيحية في المغرب فقد ظلت قليلة الى عام 1875م وكانت تنحصر في المدن الساحلية ، ثم بدأ نفوذها يكبر ويمتد نحو الداخل ليصبح عددها ست (6) مؤسسات تجمع 75 بعثة وكان من أهمها البعثة الفرنسيسكية التي تؤازرها الحكومة الاسبانية.
_ أنظر : -Miege; Le Maroc, t. IV, pp. 316_317.
- Brignon; p. 293.

(4) ولد عام 1836م بـ " *Orio* " وصار قسيسا ابتداء من 1858م ثم عين ارساليا بابويا في فبراير عام 1861م وكلف بزيارة الكنائس المختلفة بموانئ المغرب ، وفي عام 1867م عين رئيسا لبعثة تطوان ثم للبعثة الفرنسيسكية ككل في المغرب عام 1877م. وتوفي "لورشندى" بطنجة في 8 مارس 1896م. أنظر :
- A.M.G. 3H6, Rapport de Schlumberger du 24/6/1892.

(5) ضبطت البعثة العسكرية الفرنسية قانونا صارما ارغم عناصرها على تعلم العربية وأعطيت لهم الأوامر بعدم التدخل في أى مسألة سياسية و تحاشي أى صدام ، والتحلي باللياقة و تكوين علاقات طيبة ومفيدة ، وذلك في ظل احترام حاشية السلطان. أنظر :
_A.M.G. 3H32, Le Gouverneur général civil Chanzy, Alger le 4/8/1877
-- A.M.G. 3H32, Septembre 1898.
—

المغرب و نفوذ الدول الأوربية فيه (1) ومن هنا فقد كانت سابقة خطيرة اذ أصبحت كل دولة من الدول المتنافسة على المغرب تطالب أن تكون لها بعثة مثل البعثة الفرنسية في المغرب (2) .

لم تكن العلاقات المغربية الفرنسية ـ في هذه الأثناء ـ على ما يرام ، اذ في الوقت الذى يبدو أن فرنسا لا ترغب في ازعاج المخزن بمتابعتها للمجاهدين ، بموجب حق المتابعة المتفق عليه بين الدولتين ، تتسبب للسلطان في متاعب بدفع المجاهدين على الحدود الى الاصطدام بالمخزن لتحقيق هدفين اثنين ، الأول وهو اضعاف المجاهدين بمضايقتهم من طرف السلطة الاستعمارية وسلطة المخزن ، والثاني هو اسقاط اعتبار السلطان في أعين رعيته باشراكه في التصدى لأعداء فرنسا من الجزائريين . و بالفعل دفعت فرنسا بالسلطان الى القيام بدور شرطي الحدود . ولم يكن ليقوم بذلك الا مكرها ، فضلا عن صعوبة هذه المهمة أمام نشاط الثوار المتزايد بين أقصى شمال الحدود ووادى غير (3) .

---

(1) كلفت البعثة بتقديم تقرير اخبارى شهرى مفصل عن حالة البلاد وتشمل المعلومات الواردة في التقرير اخبار المناطق التي تقيم او تمر بها البعثة وكذلك معلومات عن النظام المخزني و باختصار كل المعلومات التي لها علاقة بمصلحة ما من مصالح فرنسا ونفوذها في المغرب . أما الاحداث الخطيرة فيقدم عنها تقرير خاص وعاجل الى وزارة الحربية . أنظر :
_A.M.G. 3H32, Chanzy, Alger, le 4/8/1877.

(2) عرفت بريطانيا منذ بداية حكم الحسن الأول كيف تجذب اهتمامه نحو الامور العسكرية وذلك بتدريب فرقة من حرسه بعثت بها اليه مدربة تدريبا متقنا في ميدان الرمي مرتدية بدلة حمراء زاهية . وسيصير " Mac Lean " ابتداء من عام 1880م مكلفا بتدريب عدد من الحرابين ليكونوا نواة لضباط الجيش المغربي . أنظر :
ـ ابن زيدان ، العز والصولة ، ج 2 ، ص 152 مع ترجمة لـ " ماك لين "
ـ صبحي ، ص 156 .
-Miege, Le Maroc, t. IV, pp. 68_69.

(3) كان في مقدمة المجاهدين اولاد سيدى الشيخ الذين أصبحت ترد الشكاوى في حقهم الى المخزن من السلطة الاستعمارية في الجزائر . فكان ان نشأت مراسلات بين السلطان وعمال مناطق الحدود لتهدئة المجاهدين في البداية ثم ارهابهم في نهاية الأمر . وقد وردت في الموضوع رسائل نذكر منها :
ـ رسالة من السلطان الى السيد الحاج عبد السلام شريف وزان في شأن أولاد سيدى الشيخ وتوارد شكاوى فرنسا في حقهم . أنظر :
—A.O.M. 30H8, 19 do el Hedja 1292 (15 Janvier 1876).

أما على الصعيد الاقتصادي لعلاقات المغرب مع الدول الأوربية ـ دائما في ظروف المفاوضات ـ فقد انقلب الوضع عام 1878م على اثر الازمة الفلاحية اذ عندما كانت الصادرات أهم من الواردات ازدادت الهوة في مجال التبادل ورجحت كفة الميزان لغير صالح المغرب(1).

وقد حدثت محاولة لعقد اتفاقية تجارية وسياسية عرضها الطرف الألماني على المغرب من بينها بيع مدافع "كروب" كبداية لتمركز شركة "كروب" في المغرب(2).

أدى تفاقم تعسف المحميين الى ازدياد مراسلات السلطان مع وزير الخارجية السيد محمد بركاش في شأن مشكلة نظام الحماية والمفاوضات الجارية(3) التي لم تصل بعد الى نتيجة(4).

ولما نفد صبر السلطان وأدرك ان الممثلين الأجانب غير جادين في عملهم وغير صادقين في وعودهم أوحى الى بركاش بالكتابة اليهم ثم طلب من ممثلي الدول في 13 فبراير 1879

== ـ نسخة من كبير وزراء السلطان "سي موسى" الى أولاد سيدي الشيخ وكبيرهم السيد قدور ابن حمزة يخبرهم بشكوى الفرنسيين منهم ويحذرهم من مغبة الرجوع الى ذلك، أنظر :

6 ربيع الثاني 1294هـ (1877م) 30H 32 ـ A. O. M.

ـ رسالة من السلطان الى ذوي منيع في وادي غير، يناشدهم بالامتناع عن مساندة اولاد سيدي الشيخ . أنظر نفس المصدر.

(1) Brignon; p. 306.

(2) سجلت أيضا محاولات للاتصال العثماني بطنجة عام 1877م لصالح برلين، وهذا الافتراض حسبما يدعيه "Miege" شخصته مجهودات "Weber" و "Testa" فيما بعد (t.4 p. 32) لكن الأصح على ما يبدو ان الاتصالات المغربية العثمانية قامت بمحض ارادة الجانبين ولكنها استغلت من طرف ألمانيا .

(3) أنظر عن المفاوضات الجارية : الوثائق (5) و : 637، 646...

وكذلك عن تعسف المحميين، أنظر : الوثائق (5) و : 644، 648، 651، 654...

(4) يعود السبب في ذلك الى تعنت بعض الممثلين الأجانب منهم وسوء نية البعض الآخر . أنظر : الوثائق (4)، ص 70.

أن يطلعوه على النتائج المترتبة عما بعثوا به الى حكوماتهم بعد مفاوضات 1877-1878م[1].
كما دعاهم أيضا الى الاجتماع في أقرب الآجال للاتفاق على رأى نهائي فيما يخص الحماية الدبلوماسية[2].

أبدى ممثلو الدول استجابتهم لهذه الدعوة الأمر الذى دفع " هاى " بصفته عميد السلك الدبلوماسي الى توجيه الدعوة الى زملائه لعقد اجتماع. ولم يكن هذا الاجتماع هو الأخير بل تلاه أحد عشر اجتماعا آخر خلال شهرين (بين 21 فبراير و29 جويلية 1879م)[3].

انتقد " هاى " في تدخلاته بعنف الحماية غير القانونية ،كما عرّض تعريضا سافرا ببعض تجار الحماية من نواب الدول وقناصلها ،ولم يكن ذلك من باب حب المغرب ولكن لأن تجارة انكلترا مع المغرب كانت أكبر بكثير من تجارة كل الاقطار الأخرى مجتمعة[4] ،كما كان "هاى" خبيرا بشؤون المغرب ،ومن هنا فقد كان واقع المغرب يؤيد بالفعل تدخلاته ، فالمجاعة والأوبئة والصعاب التي يواجهها المخزن بسبب نظام الحماية ،كل ذلك أعجز السلطان عن الامساك بمقاليد الحكم ،وهو ما دفعه الى اللجوء الى المحلات ردعا للعصاة و تحذيرا للطامعين وكذلك لاثبات حقوقه و تأكيد سلطته في المناطق التي مد اليها الأجانب أعينهم[5].

لعل السؤال الذى يطرح نفسه هنا يدور حول كيفية تمادى الدول الاوربية في هذه السياسة وهي تعلم أكثر من غيرها بأنها أضرت بالمغرب ،حيث لم يعد السلطان قادرا على القيام باصلاحات ، لفراغ الخزينة ؟ لكن حسبنا أن الغرابة لا تكمن في موقف الدول الأوربية من اصلاح نظام الحامية الدبلوماسية ،ولكن في تمادى السلطان في طلب " مفتاح سجنه من سجانه " !

نعم ! كيف ينتظر من ممثلي الدول الأجنبية ان تناقض نفسها وممثلوها في طنجة ومن ورائهم حكوماتهم ،الذين سعوا جميعا سعيا جادا لتردى الأوضاع في المغرب وتدهور

---

(1) Miege, Le Maroc, t. III, pp. 269-273.
(2) نفس المصدر، ص 71. وكذلك : الوثائق (4)، ص70-71.
(3) Miege, Le Maroc, T3, 268-269, وكذلك : الوثائق (4)، ص 71.
(4) Terrasse, p. 338 - وكذلك : الوثائق (4)، ص 72.
(5) Miege, Le Maroc, t3, pp. 274, وكذلك : الوثائق (4)، ص 72-73.

أحواله ؟ فمن المتلقي اذن ،أن لا يناقض ممثلو الدول حكوماتهم التي أرسلتهم لتطبيق سياسة تربي الى عرقلة كل نهضة يحتمل وقوعها في المغرب (1) .

ومثلما كان متوقعا ،كادت مفاوضات طنجة أن تنتهي الى طريق مسدود وهو ما استفاد منه المخزن درسا جعله متخوفا من واقع جديد قد يتفق عليه الممثلون الأجانب ،مما حمل بركاش الى الاسراع في الكتابة اليهم يوم 12 افريل 1879م يرجو منهم عقد اجتماع عنده لسماع آراء المخزن وملاحظاته قبل أن يرفعوا تقاريرهم الى حكوماتهم . واستجاب النواب للنداء فعقدوا بمنزله الاجتماع الثاني عشر والأخير (2) . وانتهوا الى الاجماع على نقاط قليلة لم تكن في الواقع سوى تمنيات أو توصيات لابد أن توافق عليها أيضا دولهم (3) .

لعل أبرز ما يمكن أن نسجله من نتائج هو أن "هاى" أصبح مقتنعا شيئا فشيئا بأن ((مداولات تجرى فوق تراب المغرب و بين نواب يعنيهم من أمور الحماية ما يعنيهم لن تؤدى الى حلول حقيقية للمشاكل القائمة ،مضيفا بأن انعقاد مؤتمر خارج المغرب يتداول فيه عن الدول مندوبون من غير ممثليها المعتمدين بطنجة هو الكفيل وحده بحل المشكلة .)) (4) وسرعان ما انضم الى هذا الاقتناع السلطان الحسن ،بناء على التأكيدات التي قدمها له "هاى" بالنجاح ، على الرغم من مخاوف السلطان من تدويل القضية المغربية (5) .

سافر " هاى " الى لندن في صيف عام 1879م وأجرى هناك مباحثات مع موظفي وزارة الخارجية في شأن نظام الحماية الدبلوماسية ،واقترح عليهم في نفس الوقت فكرة عقد مؤتمر خارج المغرب (6) ،وهو المؤتمر الذى كان السلطان قد وافق عليه . فما كان منهم الا أن وافقوا

---

(1) نفس المصدر ،ص 72–73 . وكذلك : Miège; Le Maroc, t.3, p. 274 .

(2) أنظر محضر الاجتماع المنعقد بمنزل النائب بركاش يوم 19 يوليوز 1879م ،الوثائق (5) ،673

(3) أنكر حقوق المغرب كل من "ديفورنويي" الفرنسي و"سكوفاسو" الايطالي و"فيليكس ماتيوس" ممثل الولايات المتحدة ،فيما أيد موقف "هاى" من الحماية و"بير" الألماني و"ديوسداد و" الاسباني .

(4) الوثائق (4) ،ص 76 . وكذلك : Cambon; p. 93 .

(5) Miège; Le Maroc, t. 3, pp. 276–277 .

(6) Cambon; p. 93 .

بد ورهم على رأى " هاى " المعجبين به و بد بلوماسيته في المغرب· و بدأ ،بالفعل ،وزير خارجية انكلترا " مركيز سلزبورى " يوم 7 اكتوبر 1879م يسعى في هذا الشأن ، فبعث الى سفراء انكلترا المعتمدين لدى الدول التي يهمها أمر الحماية بالمغرب مذكرا اياهم بأن حكومته ترى — في حالة الموافقة على عقد المؤتمر — أن تكون مدريد خير مكان يصلح لهذا الاجتماع(1) .

أما اسبانيا فتلقت الاقتراح بارتياح كبير(2) والتقت السياستان الانكليزية والاسبانية ، وصار ممثلو الدولتين يعملون بانسجام في العواصم التي يهمها أمر المغرب(3) .

واما على الصعيد الداخلي للمغرب ،ففي الوقت الذى تحركت فيه الدبلوماسية المغربية — بين السلطان ونائبه بركاش من جهة وبين هذا وممثلي الدول من جهة ثانية لنقل المباحثات الى مدريد —(4) ،تحركت الطائفة اليهودية التي يعنيها أمر الحماية ما يعنيها (5) ،بغية تعكير الاجواء ،من خلال مضاعفة اليهود المحميين استفزازاتهم للمسلمين وخلقهم الأحداث لكي يلفتوا بها أنظار الاوربيين نحوهم وليحولوا دون عقد المؤتمر وبالتالي عدم تجريدهم من الحماية التي منحت لهم بغير حق (6) .

---

(1) الوثائق (4) ،ص 77—78·
يبرر اختيار اسبانيا بقربها من المغرب وكذلك اهتمام حكومة وشعب اسبانيا بحالته واظهار حكومة اسبانيا وجهة نظر ليبيرالية معتدلة من شأنها في نظر الانكليز ان توصل الى تسوية عادلة· — انظر: نفس المصدر،ص 77—78·
لكن انكلترا تهدف في حقيقة الامر الى ارضاء الكبرياء الاسباني وتحقيق الغرض الانكليزى المتمثل في الحيلولة دون قيام تكتل فرنسي — اسباني اثناء المؤتمر·
(2) تخلت اسبانيا عن سياسة التهديد وعن كثير من المطالب في المغرب·
(3) الوثائق (4) ،ص 80·
(4) انظر : الوثائق (5) ،و 698، 721، 732، 733·
(5) كان العنصر اليهودى اكثر العناصر استظلالا بمظلة الحماية·
(6) الوثائق (4) ،ص 80—81· — *Miege; Le Maroc, t. III, pp 279-280*
كان زعماء اليهودية الدولية " كالبارون ادموندى روتشيلد *Baron Edmond de Rothschild* يتجسمون مصاعب السفر الى طنجة بين الحين والآخر لتشجيع الطائفة= = =

ومما زاد في تعقيد الأمور ،قرار السلطان الحسن في شهر فبراير 1880م ،الذى يقضي برفض شهادات التجنيس التي تمنحها دول أجنبية الى رعايا مغاربة يقيمون بعض الوقت فوق أرضهم ريثما يحصلون عليها (1) . وبمجرد أن بلغ القرار الى ممثلي الدول غضب البعض وأبرقوا الى حكوماتهم ، فثارت ثائرة فرنسا وايطاليا والولايات المتحدة ضد القرار . وأكثر من هذا فانهم قاموا بتظاهرات بحرية _ بتحريض من ممثليهم في طنجة _ منذ بداية 1880م أمام شواطئ المغرب بدوافع استعمارية ونصرانية ويهودية (2) .

وامام هذه الظروف المحرجة والاوضاع المتوترة ،سعت اسبانيا من جهتها الى التحرك بسرعة من أجل عقد المؤتمر (3) . وكان ذلك يوم 10 افريل 1880م فاقترحت على الدول الموافقة أن يكون ممثلوها في المؤتمر المزمع عقده غير ممثليها لدى المخزن بحجة أن هؤلاء الممثلين ،قد تكون لهم مشاعر وآراء ذاتية هي منشأ الصعاب التي حالت دون نجاح مباحثات طنجة (4) .

ولما قبلت حكومات الدول بالاقتراح وجهت لها الحكومة الاسبانية الدعوة يوم 10 أفريل

== اليهودية على الصمود في مواقفها المتعجرفة واعداد المخطط وتدبير المكائد مع زعماء مثل "ليفي كوهن" الذى كان ينسق من طنجة أنشطتها في كامل المغرب ويعتمد في القيام بأعماله الهدامة على محفلها الماسوني وهو آمن من كل متابعة لأنه مستظل بمظلة الحماية الانكليزية .

_ أنظر عن تعسف واستفزازات اليهود للمسلمين : الوثائق (4) ،ص 80 الى 84 .

وكذلك : الوثائق (5) و : 713 -Miege; Le Maroc, t. III, pp 279-281

(1) كان القرار بوحي من " هاى " .

(2) الوثائق (4) ، ص 87 .

(3) -Miege; Le Maroc, t. III, p. 277.

(4) الوثائق (4) ، ص 87_88 .

ولما قبلت حكومات الدول بالاقتراح وجهت لها الحكومة الاسبانية الدعوة يوم 10 أفريل لحضور المؤتمر (1) . والحكومات التي وجهت اليها الدعوة بالفعل هي : البرتغال وفرنسا (2) وانكلترا وبلجيكا وهولندا والدانمرك ومملكة السويد والنرويج وألمانيا وايطاليا وروسيا والولايات المتحدة والبرازيل (3) .

ولعله من المفيد أن نذكر ولو باختصار ما كان يشكو منه المغاربة عشية انعقاد مؤتمر مدريد ، لادراك خطورة ما وصل اليه نظام الحماية . فالوزراء المفوضون ومن دونهم من القناصل والوكلاء القنصليين صاروا يتاجرون في الحماية - بعد خراب ذممهم - وكان منحهم الحماية لرعايا السلطان يعني تقوية النفوذ وتكثير الانصار والتدخل تبعا لذلك في شؤون المغرب الداخلية بدعوى الدفاع عن مصالح المحميين (4) . والواقع أن المحميين هم الذين سلكوا مسلكا تعسفيا واستفزازيا في تعاملهم مع المغاربة غير المحميين حتى عجز الولاة المغاربة عن انصاف المظلومين الأمر الذى دفع هؤلاء اليائسين من كل عدل وانصاف الى أن يتوجهوا نحو السفارات والقنصليات ودور التجارة الاجنبية للحصول على الحماية .

ومما زاد الطين بلة في هذا الشأن هو الاعتراف للأجانب بحق انشاء محاكم قنصلية او مشتركة واستثناء رعاياهم ومحمييهم من سريان حكم الدولة المغربية عليهم مما جعل القضاء المغربي عاجزا عن توفير الامن اذا كان الامر يتصل من قريب او بعيد بأجنبي أو بمحمي (5) .

---

(1) نفس المصدر ، ص 88 .

(2) كان من البديهي ان تبحث فرنسا المعنية بأمر الحماية أكثر من غيرها ، عن حليف قبل افتتاح المؤتمر ، وقد رسمت لنفسها هدفين :الاول يتمثل في عدم الموافقة على وضع يوقفها مع سائر الدول في قضايا المغرب على قدم المساواة ، والثاني هو عرقلة كل اصلاح يسهل على السلطان الامساك بزمام الحكم في المغرب .

(3) ابن عبود ، تاريخ المغرب ، ص 87 .
وكذلك : الوثائق (4) ، ص 88 .

(4) نفس المصدر ، ص 44-45 .

(5) نفس المصدر ، ص 44-45 .

وهكذا تسببت الحماية في خلق فوضى قضائية استظل المجرمون بمظلتها لارتكاب جميع أنواع الجريمة من غصب متاع الناس وهتك أعراضهم وتهديد امنهم واعتداء على كرامة الشعب ، والمساس حتى بسيادة الدولة. ويكفي القول — في هذا الشأن — أن احتماء مجرد راع من رعاة الغنم بالاجانب يستطيع أن يحمي دوارا كاملا ويشل بالتالي سلطة المخزن على قبيلة بأكملها . وباختصار فان الحماية القنصلية ، عشية انعقاد مؤتمر مدريد أذلت بالشعب المغربي وأضرت بهيبة الدولة وأفقرت بيت المال (1) .

ومهما يكن الأمر ، فقد افتتح المؤتمر يوم السبت 16 ماي 1880م (2) وعقدت أشغاله في ستعشرة جلسة كانت آخرها جلسة يوم 3 جويلية . وافترض في البداية أن على المؤتمرين أن يصادقوا بدون مناقشة على جميع النقاط التي تمت المصادقة عليها خلال مباحثات طنجة . فلم يكن من السيد بركاش الا أن قدم مطالب سنة 1879م مع التعديلات التي أدخلت عليها (3) .

---

(1) نفس المصدر، ص 44—45 .

(2) أرجىء افتتاح المؤتمر الى 19 ماي بسبب عدم وصول وثائق التفويض الى من لم تكن وصلته من الممثلين .

(3) تتلخص هذه المطالب فيما يلي :

— تقوم الحماية القنصلية على أساس الشروط المستخلصة من معاهدة 1856 واتفاقية 1861 وتسوية 1863 .

— لا يلزم تراجمة الممثلين الاجانب وخدامهم من العرب اداء أى ضريبة .

— لكل واحد من الوكلاء القنصليين بالموانىء الحق في استخدام ترجمان وحارس وخادمين لا يؤدون اى ضريبة .

— اذا عينت دولة أجنبية احد رعايا السلطان وكيلا قنصليا لها فان حمايتها تشمله واسرته .

— لا يمكن اختيار مستخدمي الممثلين الاجانب من بين موظفي الحكومة ولا من المتابعين قضائيا .

— ترسل قائمة المحميين كل سنة الى وزير خارجية السلطان والولاة المحليين .

— ليست الحماية وراثية .

— لا يتمتع بالحماية مستخدمو الكتاب والتراجمة الوطنيين .

— لا يتمتع بالحماية مستخدمو المستوطنين الاجانب ، على انه لا يمكن حبسهم دون اخبار القنصل ، وكذلك الحال بالنسبة للسماسرة .

— يؤدى السماسرة الضرائب سواء كانت على الانفس او على الاموال ولا يمكن اعتقالهم الا بعد اعلام القنصل باستثناء في حالة تلبسهم بالجريمة .

— يؤدى الرعايا الاجانب والمحميين العاملين في الفلاحة الضرائب الفلاحية . ...

اما النقاش الذى دار في قاعة المؤتمر فقد انحصر تقريبا بين متصارعين اثنين، وهما ممثل المغرب السيد بركاش وممثل فرنسا " الفيس امرال جوريس " . وكان السيد بركاش يسعى جاهدا لاخراج السماسرة من حظيرة المحميين وان تكون حرية التجار الأجانب في اختيار سماسرتهم محدودة (1) . اما ممثل فرنسا فكان يسعى بدوره جاهدا من أجل عدم التنازل قلامة ظفر عن الامتيازات التي حصلت عليها بلاده الى حد الساعة (2) .

انتهى الصراع برجحان الكفة الفرنسية (3) لان الوفد المغربي كان عاجزا عن الدفاع بسبب جهل بركاش واعضاء الوفد للغات المشاركين (4) . وهكذا، انهى المؤتمر أشغاله يوم 3 جويلية 1880 بتوقيع اتفاقية حددت قانون الحماية والتجنيس في 18 فصلا (5) .

وضعت اتفاقية مدريد حدا للعشوائية والفوضى اللتين كانت تعرفهما سوق التعسف وخرق القوانين، لأن المؤتمرين اتفقوا على تأكيد نظام الحماية واعطائه صبغة

=== - يخضع المغاربة المتجنسين بجنسية دولة اجنبية لحكم السلطان عند عودتهم الى المغرب
- أنظر : الوثائق (4)، ص 96 .

كانت غاية السلطان من المؤتمر هو الحد من منح حق الحماية وتحديد عدد المحميين ومنع الحماية خارج الموانئ وأن يكون السماسرة من الموانئ لا من البادية .
- فارس، ص 82 .

(1) يقصد بذلك عدم اختيارهم من بين موظفي الحكومة ولا من بين سكان البادية والمدن الداخلية اجتنابا لما ينشأ عن ذلك من اطلاع الاجانب على اسرار البلاد . كان ممثلا انكلترا واسبانيا يؤازران السيد بركاش في هذا .
- انظر، الوثائق (4)، ص 96 .

(2) ناصر ممثلا ايطاليا وألمانيا ممثل فرنسا في مؤتمر مدريد . صبحي، ص 46 .

(3) -Julien; Le Maroc face, pp. 33-34 .
وكذلك : الوثائق (4)، ص 96-102 .

(4) كانت تدخلات بركاش قصيرة وردوده مقتضبة وطلباته مكتوبة ولا تعدو أن تكون توسلات الى الدول . انظر : الوثائق (4)، ص 102 .

(5) كان علي أن أقدم تحليلا لوثيقة المؤتمر لولا ان مصادر كثيرة تناولتها بالشرح والتحليل. نشرت جريدة المبشر في عددها 2223 بتاريخ الاربعاء 1881/05/18 نص اتفاقية مدريد . انظر ايضا، نص الاتفاقية مع شرحها : A. O. M. 30 H 32 .
- حركات، ج 3، ص 275-284 . انظر كذلك عن نتائج المؤتمر :
- الوثائق (4)، ص 104-107 .
- Miege; Le Maroc, t3, p288-292.
- Cambon; p. 93.

قانونية (1) . وفي هذا المعنى قال الشاعر بيته الشهير :

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت ∴ حواشيه حتى صار ظلما منظما (2)

لم يحصل المغرب بذلك على شيء مما كان يرغب فيه على الرغم من ضآلته (3) ان لم نقل بأن المعاهدات والاتفاقيات السابقة ـ التي عقدت بين المغرب وبعض الدول الاوروبية ـ تعززت بمعاهدة مدريد ، اذ خولت للسفارات الاجنبية حق منح حمايتها لموظفي القنصليات والمتاجر الاجنبية وعائلاتهم ، مما أدى الى فتح الباب للتدخل الاجنبي في شؤون المغرب الخاصة وصار الاوروبيون يتمتعون بحق الملكية للارض والعقارات في المغرب (4) .

شعر السيد بركاش بثقل نتائج المؤتمر ، مما جعله يخجل في نقلها شخصيا الى السلطان وأكثر من هذا فقد طلب من " هاى " أن يكتب الى السلطان بأن نائبه (أى بركاش) قد عمل كل ما في وسعه في المؤتمر لكن " هاى " بدوره كان يشعر بخيبة أمل كبيرة (5) .

ان المراسلات التي دارت بشأن المؤتمر والمقالات التي كتبتها عنه صحف ذلك العهد (6) وادراج بعض المسائل غير نظام الحماية الدبلوماسية في جدول المناقشة كحرية المعتقدات وامتلاك الاجانب للعقارات وتقييد حرية المخزن في وضع القوانين الجبائية وتعليق تطبيقها على موافقة الهيأة الدبلوماسية ، كل ذلك ، أدى الى فتح باب تدويل القضية (7) . مما يجعلنا نقول بأن مؤتمر مدريد سجل بداية مرحلة جديدة لم يعد المغرب خلالها قادرا على المحافظة على استقلاله .

---

(1) ابن عبود ، تاريخ المغرب ، ص 87 .   (2) الوثائق (4) ، ص 107 .

(3) نفس المصدر ، ص 103 .   (4) ابن عبد الله ، تطور الفكر ، ص 15 .

(5) Miège; *Le Maroc*, t. III, pp. 290-291.

(6) أنظر في شأن حرية العقيدة :

ـ محمد المنوني ، " ملاحظات ... " ، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية ، العدد 9 ، ص 145-153 .

(7) دولت قضية المغرب ايضا بموجب المادة 17 من اتفاقية مدريد .

ب — العلاقات المغربية الاوربية منذ مؤتمر مدريد (1880م) :

صادفان عرفت فترة الثمانينات من القرن 19م تسابقا استعماريا كبيرا ،زادت في تنشيطه الأزمة الاقتصادية التي اجتاحت أوربا بين 1881و1885م، علاوة على الرحلات الاستكشافية والتوسع الاستعماري الاوربي في مناطق كثيرة من العالم (1) . فلا غرابة اذن ، وفي ظل منطق القوة ،أن لا تطبق بنود اتفاقية مدريد بخاصة الفصول المتعلقة منها بمصالح المغرب .

واذا بدا المغرب ضعيفا امام الدول الاستعمارية التي تربطه بها علاقات وقتذاك فمن الانصاف أن نقول بأن تنافس الدول الاوربية أصبح يشكل غطاء واقيا للمغرب ، اذ صار استقلاله المهدد منذ حرب " ايسلي " (1844م) مرهونا باتفاق الدول المتنافسة عليه (2) وخصوصا انطلاقا من المرحلة التي تعنينا . وهي المرحلة التي تميزت بما عرف بالمحافظة على الوضع الراهن . لكن ذلك لم يمنع أغلب الدول الاوربية التي يعنيها أمر المغرب من محاولة الخروج من دائرة المحافظة على الوضع الراهن باثارة حوادث واختلاق أخرى بغية انتهاز الفرصة من أجل فرض الحماية عليه أو على أجزاء منه على الأقل .

فكيف تطورت علاقات المغرب — بعد مؤتمر مدريد 1880م، مع كل دولة من الدول الاكثر اهتماما به — أي مع فرنسا وانكلترا واسبانيا وألمانيا .

— مع فرنسا :

كانت فرنسا أكثر الدول اهتماما بالمغرب اذ مع وصول الجمهوريين الى الحكم (3) وسيطرتهم على الشؤون الداخلية ،اتخذوا مواقف شديدة خارج اوربا . ووضعوا برنامجا

---

(1) كجنوب افريقيا ومنطقة الهند الصينية حيث الصراع بين فرنسا وانكلترا . أنظر :
_Miege; Le Maroc, p. 38.

(2) _ Djamel Guenane; Les relations Franco-Allemandes et les affaires Marocaines de 1901 à 1911, S.N.E.D., Alger, 1975, p. 13.

(3) توجهت بعثة مغربية الى فرنسا (1879—1880م) بقيادة علي المسفيوي ،وهو من كبار الفقهاء والامناء السابقين ،لتهنئة رئيس الجمهورية الجديد " Jules Ferry " .
_ أنظر : حركات ،ج 3 ،ص 271 .

خاصا بالمغرب منذ عام 1880 ركزت فيه الجهود على نقاط ثلاث ،منها انشاء سكة حديدية تربط الجزائر بالمغرب وذلك من تلمسان الى وجدة في مرحلة أولى على أن يمدد الخط في مرحلة أخرى الى فاس ،وكذلك انشاء تلغراف و مشاريع زراعية . وبدأت المفاوضات في هذا الشأن مع المخزن . وقد وكل العقيد Flatters (1) بالتعرف على خط السكة الحديدية الذى تنوى فرنسا تمديده نحو الصحراء . لكن سرعان ما اصطدم هذا المشروع بمعارضة السلطان فأوقفت اللجنة وأبعدت من المنطقة (2) التابعة للسلطان .

وقعت اتصالات كثيفة — في هذه الظروف — بين الوالي الفرنسي العام بالجزائر وعامل السلطان السيد احمد البلغيثي حول الخلافات القائمة على الحدود ومنها حركة أولاد سيدى الشيخ وموقف السلطان منها (3) .

كان انتباه فرنسا منصبا على الشؤون التونسية وكذلك مدغشقر وافريقيا السوداء والطونكان (شمال الفيتنام) ،لكن ذلك كله لم يمنع " Ordéga" من التحرك في المغرب والسعي الى اتباع سياسة تهدف في النهاية الى فرض فرنسا حمايتها عليه (4) ، وهي الحماية التي أصبحت مؤكدة غداة احتلال فرنسا تونس ،واتضح بأنها تريد كذلك ضم المغرب الى ممتلكاتها في افريقيا وانشاء وحدة الشمال الافريقي تحت رايتها . وصار المغرب منذئذ هدفا من أهداف السياسة الاستعمارية الفرنسية التي تبناها ساستها (5) .

---

(1) -Miège; Le Maroc, t. IV , p. 36 .

(2) نفس المصدر ،ص 295—296 .

(3) تبادل الطرفان مراسلات في هذا الشأن منها :

— رسالة شكر من طرف الوالي العام بالجزائر الى السيد احمد البلغيثي ، وتقديم الهدايا له مكافأة لقيامه " بالواجب " في نزاعات الحدود . أنظر :

— A.O.M. 30 H 30, Alger, le 16 Mars 1880.

ـ اخبار البلغيثي للوالي الفرنسي بما ورد من رسائل الى قبائل الصحراء حول سي حمزة و تأدية السلطان " لواجبه " في موضوع ما اتفق عليه بين الدولتين مطمئنا اياه بردع سي حمزة وأتباعه . أنظر : — 11 جمادى الاولى 1297 هـ (1880م) A.O.M. 30H 30

(4) -Miège; Le Maroc, t. IV , p. 36 .

(5) كان بسمارك يدفع فرنسا الى المزيد من الاستعمار ،لكن انكلترا كانت تقف في وجهها .

وكان السلطان شديد التخوف من هذه النتيجة، ومن اختلاق فرنسا لنزاع مع المغرب لا يستند الى حق مثل ما جرى مع باى تونس (1)، لذلك نجده يبعث بأوامره الصارمة الى جميع قبائل الحدود، يمنعهم من موالاة الثوار و يلزمهم بمعاملتهم معاملة الأعداء (2).

وإذا كان الموقف الأخير للسلطان مقبولا من وجهة النظر السياسية وعلى صعيد علاقاته مع فرنسا، فلم يكن الموقف يخدم السياسة الداخلية للسلطان وعلى المستوى الشعبي على الخصوص اذ ليس من المعقول أن تعادى الرعية الثائرين في وجه فرنسا في الوقت الذى كانت فيه أخبار الخشونة والبطش الذى استعمله القواد الفرنسيون في الجزائـر وكذلك في تونس، كانت تعبر الحدود لتصير حديث كل بيت، الأمر الذى زاد في مقت المغاربة للفرنسيين (3).

لكن سرعان ما اكتشفت فرنسا – علاوة على تحذير انكلترا لها وايقاظ مخاوف اسبانيا وايطاليا – بأن احتلال المغرب سيسبب لها مشاكل دولية لا قبل لها بها (4)، مع العلم ان المراسلات الواردة من المغرب وكذلك من الجزائر على وزارة الحربية، صارت بعد سنة فقط (1882م) من فرض الحماية على تونس تحث الحكومة والقادة العسكريين بضرورة ادخال المغرب ضمن النفوذ الفرنسي في شمال افريقيا (5).

لكن السياسة الفرنسية في المغرب صارت لا تظهر بمظهر الطامع في البلاد معلنة في آن واحد أنها لا تهتم بالمغرب الا بحكم وجود حدود مشتركة معه وكذلك لمصالحها التجارية هناك. وهكذا، ففي الوقت الذى يتلقى فيه الوزير الفرنسي تعليمات بألا يدخر

---

(1) صبحي، ص 55.

(2) -Miege; Le Maroc, t. IV, pp. 42–43.

(3) صبحي، ص 54.

(4) نفس المصدر، ص 52–53.

(5) A.M.G. 3 H 3, De Breuille, Lalla Marnia, le 14/6/1882.

وسعا في الابقاء على العلاقات الحسنة مع المخزن تميل السياسة الفرنسية على أرض الواقع الى رأى " دو فيرنو يين " حين قال عام 1880 : ((لا يحق لنا أن نتوقف في المغرب فاذا لم نتقدم فاننا نتأخر .)) [1] لذلك فقد كان الساسة في فرنسا يرون امكانية القيام بنشاطات حذرة تؤدى في النهاية الى السيطرة التامة على البلاد . ومن هنا تقدم فرنسا على مراقبة الأوضاع في المغرب وتعمل على زيادة مصالحها ونمو تجارتها . وأصبحت تردد رغبتها الشديدة في حفظ الحالة الراهنة في المغرب وعزمها الثابت على عدم تعديل التوازن على شواطئ شمال افريقيا [2] .

في ظل هذه السياسة الفرنسية " الجديدة " ، وصلت بعثة فرنسية الى مراكش بقيادة " *Ordéga* " [3] (خلال شهرى مارس وافريل 1882) ودخلت في مفاوضات مع المخزن الذى اعترف خلالها من جديد لـ "اورديقا " بحق فرنسا في متابعة المجاهدين داخل التراب المغربي [4] وتأديبهم ومن تعاون معهم . لكن السلطان عارض طلب " اورديقا " المتمثل في مرور السكة الحديدية بمنطقة توات ، لأن المشروع من شأنه أن يؤثر على التبادل التجارى بين المغرب والسودان [5] . وأمام اصرار " اورديقا " على الطلب الأخير ومناشدة حكومته بضرورة احتلال منطقة فقيق بحجة انها تشكل نقطة أمن هامة لفرنسا ، بدأت مؤشرات أزمة حادة في العلاقات المغربية الفرنسية [6] - استمرت الى نهاية صيف 1884 - اذ لما فشل " اورديقا " في اقناع المخزن بقبول مشروع السكة الحديدية وكذلك حكومته بالتحرك من أجل احتلال

---

(1) -Miege; <u>Le Maroc</u>, *t. IV* , p. 36 .

(2) <u>صبحي</u> ، ص 52-54 .

(3) أنظر عن المهمة : -Miege; <u>*Mission française à Marrakech*</u>

(4) كان حق المتابعة قد اعترف به لفرنسا في البند الرابع من اتفاقية 1845 . وكان السلطان قد ناشد قبائل الحدود بضرورة استقبال القوات الفرنسية الموالية والصديقة كلما دخلوا التراب المغربي خلال اتباعهم للمجاهدين .

(5) - Miege; <u>Le Maroc</u>, *t. IV* , pp. 42-43 .

(6) <u>نفس المصدر</u> ، ص 43-44 .

فقيق راح يعمل على تحقيق ذلك بمجموعة من الدسائس وبالتعاون مع بعض الشخصيات المغربية ذات النفوذ السياسي والديني ضاربا بنود اتفاقية مؤتمر مدريد عرض الحائط • ومدشنا في نفس الوقت ما عرف " بسياسة الطرق الصوفية " وهي السياسة التي سيتبعها أسلافه من بعده (1) .

بدأ " اورديقا " بارسال مبعوثين الى تافيلالت للتأكد من مساندة بعض المرابطين لفرنسا • وكان يعتقد أنه سينجح في مفاوضة سي سليمان بن قدور من أجل منحه قيادة واسعة في الجنوب المغربي من الجزائر ومن ثمة ضم الاجزاء الجنوبية الشرقية من المغرب بمساندة القوات الفرنسية (2) •وقد استغل " اورديقا " المشاكل الاقتصادية القائمة والحركات المناهضة للسلطان في تافيلالت وغيرها ،علاوة على الاعتقاد السائد بأن زعيم المنطقة ،محمد العربي الشريف ،ابن عم السلطان ،سيكون مرغما على الاتصال بالسلطات الاستعمارية الفرنسية امام الصعاب الاقتصادية والعسكرية التي تواجهه ، وعند ذلك ستتمر مساندة فرنسا له بتقديم تسهيلات من طرفه وفي مقدمتها قبول مشروع السكة الحديدية (3) .

أجهد السلطان نفسه في الوقوف ضد هذه الدسائس الخطيرة على سلامة وأمن التراب المغربي • فعمل على مراقبة مناطق الحدود وأكد نفوذه على هذه المناطق وكذلك على منطقة السوس التي راح يكثف الحملات العسكرية اليها (4) •وكان السلطان يبحث في نفس الوقت على مساندة انكلترا له ،لدفع هذه الدسائس •

ولعل الأخطر مما وقع في جنوب المغرب ،ما وقع في شماله باتفاق بين "اورديقا " وشريف وزان ،سي عبد السلام (5) بعد حصول الاخير على الحماية الفرنسية • وكان قرار

(1) نفس المصدر ، ص 44 •
(2) كان "اورديقا " قد حاول استغلال شريف وزان فبعثه في خريف 1881م الى الجنوب المغربي كمبعوث من الحكومة الفرنسية تمهيدا لهذه المساعي •
(3) Miege; *Le Maroc*, t. IV, pp. 44-45.
(4) فكر السلطان بالفعل في الخروج على رأس حملة الى تافيلالت عام 1883م ،اما السوس فقد زارها في عام 1882م •
(5) كان لشريف وزان علاقات قديمة مع السلطات الفرنسية ولكنه لم يدر وجهه نحوها بصفة نهائية الا بعد افتقاره الى المساندة الاسبانية والانكليزية وكذلك لحاجته المادية • فكان ...

الحماية قد ترك أبلغ الاثر في الاوساط المخزنية والشعبية على السواء [1] بسبب الاملاك الواسعة التابعة لطريقته . ونظرا للتأثير الديني الذى يحظى به الشريف وكذلك لتعسف الحماية الدبلوماسية التي عانى المخزن منها كثيرا ، وهكذا بدت المبادرة وكأنها موجهة ضد وحدة المغرب واستقلاله بانفصال جزء منه أو باحداث كيان داخل المغرب بزعامة شريف وزان . وكان المخزن يخشى من أن الشعب الذى عانى من ويلات ازمة 1878—1884م الغذائية ، سيضطر الى مباركة كل حركة انفصالية ومنها حركة الشريف فينضم اليه الافراد والقبائل [2] .

أقلقت مساعي "اوردیقا" نواب الدول في طنجة مما دعا " هاى " الى أن يكشف للسلطان بأن مؤامرة خفية تدبر لفرض الحماية الفرنسية على المغرب .

وكان "سكوفاسو" يشاطره في الرأى وصرح بأنه يتقاسم نفس الرأى ايضا مع زملائه الالمان والاسبان : " انني على يقين من أن فرنسا ستقدم على انتزاع مناطق تافيلالت وتوات من المغرب بمجرد تحقيق أهدافها في " الطونكان " ومدغشقر." [3] لكن " اوردیقا " واصل مساعيه ، فراح يضاعف من عدد محميه كما شرع في حملة دعائية لصالح شريف وزان بل صار يبحث عن اختلاق حادثة من شأنها أن تكون حجة للتدخل الفرنسي وفي نفس الوقت أعلن " الكونت د وفينياك " عن نيته في النزول بمنطقة الريف وذلك في جانفي 1884م .

اما السلطان الحسن الاول الذى كان يجرى كل شيء امام سمعه و بصره ، فقد كان حريصا كل الحرص على الابتعاد عن أى نزاع مع فرنسا خاصة بعد حادثة طرد قائده بمدينة وزان من طرف عبد الجبار بن الشريف و تدخل " اوردیقا " في القضية لصالح عبد الجبار.

ولكن صبر السلطان نفد امام نشاط " اوردیقا " فقرر ارسال السيد بركاش الى باريس

=== ان طلب الحماية الفرنسية ودخل تحت سلطتها القضائية لحل مشاكله السياسية مع المخزن واستغلال ممتلكاته كمناجم الفحم والنحاس والبترول . أنظر : -*Miege; Le Maroc, t. IV, p. 50.*

وكذلك ، ترجمة للشريف : صبحي ، ص 60 .

(1) وصل السيد بركاش الى حد طلب الاستقالة .

(2) -*Miege; Le Maroc, t. IV, p.* 51 .

(3) نفس المصدر ، ص 52 .

لاطلاع " جول فيرى " (1) على ما كان يجرى في المغرب (2)!

وماذا عسى أن تعود به هذه البعثة من باريس؟ وهل كان السلطان فعلا ينتظر حلا من طرف أناس هم أدرى منه بما كان يحدث حقيقة في المغرب، او على الأقل، هم مصدر هذه الاحداث؟

ان أبرز ما توصلت اليه البعثة من نتائج هو وقوفها على أن ليس هناك ما يشير الى أن " جول فيرى " يفكر في دفع القضية الى درجة القطيعة والتدخل لا لكونه يعارض " اورديقا " في مساعيه في المغرب ولكن لأن الصعاب التي تواجه فرنسا في الفيتنام وكذلك الظروف الدبلوماسية لم تكن في صالح فرنسا، وفي المغرب بالذات، لأن دسائس " اورديقا " المكشوفة والمتصاعدة منذ عام كامل، اثارت مخاوف القوى الاوربية وحملتها على التحالف ضد الخطوة الفرنسية (3). ومن هنا تأتي استحالة اقدام فرنسا على عمل مسلح في المغرب عندئذ. وسنعرف مواقف الدول المتنافسة بالتحديد من خطوة " اورديقا " في حينها.

ولعل الذى يهمنا هنا أن سياسة الدول الاوربية في المغرب صارت تقوم على تحالف طرفين لايقاف مشاريع الطرف الثالث وهكذا ... (4)

لم يبق لحكومة باريس بد من الوقوف عند هذا الحد والرضوخ الى الامر الواقع مؤقتا على الاقل. فأقدم " فيرى " على قطع الصلة بدسائس " اورديقا " وحذره في مذكرة بتاريخ 19 جوان 1884م بأن حكومة الجمهورية لا تريد مشاريع في المغرب، وأمره في آن واحد أن يغير من لهجة " *Le Reveil du Maroc* " وكذلك التزام الهدوء والليونة والحكمة. وما كان من " فيرى " الذى اختار سياسة المحافظة على الاوضاع الا أن قام بابعاد " اورديقا " (5) عن المغرب واستبداله بـ " *Feraud* ".

---

(1) رئيس الوزراء الفرنسي، وقد شغل هذا المنصب من سبتمبر 1880م الى نوفمبر 1881م ثم من فبراير 1883 الى مارس 1885م. وكان "فيرى" من كبار الساسة في فرنسا والمناصرين للتوسع الاستعمارى. وقد عصفت به من منصبه حادثة "لانج صول" بالفيتنام عام 1885م.

(2) استقبل "فيرى" السيد بركاش يوم 12/5/1884. -Miege; <u>Le Maroc</u>, t. IV, pp 54-55.

(3) <u>نفس المصدر</u>، ص 59.   (4) <u>نفس المصدر</u>، ص 73.

(5) عين "اورديقا" في ديسمبر 1884 قنصلا ببوخاريست. اما شريف وزان الذى مست سمعته كثيرا فقد انتهى الى التسامح مع المخزن.

اجتهد الساسة في فرنسا في تعيين شخص " فيرو " قنصلا لفرنسا نظرا لشعورهم بثقل المهمة الملقاة على عاتق رئيس الدبلوماسية الفرنسية الجديد في المغرب بعد تركة "اورديقا " الثقيلة . وقد وجد " فيرو " نفسه امام مجموعة كبيرة من الصعاب . فكان عليه أن ينشئ علاقات شخصية جديدة مع السلطات المخزنية ومع السلطان نفسه . وقد نجح في ذلك كما عرف ايضا كيف يكون لنفسه شعبية بين المغاربة (1) .

لكن السياسة الفرنسية الجديدة لم تعمر طويلا امام تحديات ألمانيا بعد قيام الحلف الثلاثي (4 ماي 1887م) على الخصوص ، ومواقف الدول الاخرى وكذلك السلطان ، الامر الذي دفع فرنسا الى مراجعة مواقفها في المغرب . واستغل الطرف الفرنسي المعارض لسياسة " فيرو " الفرصة لاسيما " Etienne " (2) و " الكونت Dechavignac " ومن ورائهما الصحافة الفرنسية والصحافة الاستعمارية في الجزائر وصحافة طنجة وكذلك ادعاءات شريف وزان وأتباعه (3) .

صارت فرنسا بعد هذه التطورات ومراجعة نفسها اكثر اصرارا من اجل العودة الى سياستها في مطلع الثمانينات (عهد "اورديقا ") وهي السياسة التي بدأت تميل اليها بالفعل بعد وفاة " فيرو " عام 1888م . ولعل ابرز ما يمكن تسجيله بعد سنة فقط (1889م) هو ميلاد هيئة فرنسية تسمى " لجنة افريقيا الفرنسية " ، تتكون من سبعين عضوا اختيروا بعناية بين رجال السياسة والفكر وضباط الجيش والبحرية وكبار موظفي الحكومة ومن مختلف الجمعيات الجغرافية والاستعمارية والغرف التجارية ومحررى الصحف وأصحابها (4) . وقد

---

(1) كان من أبرز مساعدى "فيرو" الدكتور " Linarès " وهو من اعضاء البعثة العسكرية الفرنسية . وكان "ليناريس" يتمتع بثقة السلطان .
- أنظر : -Cambon; p. 91, et Miege; Le Maroc, t.IV, pp. 233-234.
- وكذلك ترجمة لليناريس : -Miege; Une mission française, pp. 305-306.
(2) نائب وهران في البرلمان الفرنسي .
(3) -A.M.G. 3 // 5, Tanger, le 8/08/1887.
-Miege, Le Maroc, t. IV, p. 237.
(4) كان من بينهم ايضا " G. Hannoteau " وزير الخارجية السابق و " Jules Siegfried " الذى صار وزيرا للتجارة و "Paul Revoil" الحاكم العام للجزائر و " Eugène Etienne " وكيل وزارة المستعمرات السابق وغيرهم . انظر : صبحي ، ص 61 .

أخذت الجمعية تعمل على تنوير أذهان الفرنسيين بالمسائل الافريقية ومنها المسألة المغربية التي تناولتها بالبحث ووضعت لها سياسة تتفق والمصالح الفرنسية (1) .

عادت فرنسا من جديد الى سياسة التحدى منذ مطلع التسعينات وأكدت حكومتها بأن واحات فجيج ستدخل ان عاجلا أوآجلا ضمن التواجد الفعلي لفرنسا ،وقررت شن حملة على المنطقة ابتداء من جويلية عام 1891 (2) . لكن السلطان تشجع هذه المرة وبادر بمنافسة فرنسا في المنطقة ،فأقدم على تعيين قائد مغربي فيها وهو " محمد أو سالم " في شهر جانفي 1892م (3) .

لم تجد فرنسا نفسها وحيدة هذه المرة في ميدان التحدى ان لم نقل بأنها اصطدمت بمن هم أكثر منها جرأة ،لأن الحملة التي كانت متوقعة من طرفها ، تأخرت بسبب ما طرأ من أزمة في العلاقات المغربية الانكليزية ثم العلاقات المغربية الاسبانية ، وهما الازمتان اللتان طفتا على سواهما من أحداث وانتهتا تقريبا مع وفاة السلطان الحسن الاول عام 1894م . وسنعرف موقف فرنسا من الأزمتين خلال تعرضنا لعلاقات المغرب مع انكلترا ثم مع اسبانيا .

---

(1) استطاع "دلكاسي" وزير الخارجية الفرنسي (1898-1905م) ،على ضوء هذه السياسة تصفية المسألة المغربية مع ايطاليا ثم انكلترا واسبانيا عام 1904م .
ـ انظر: صبحي ،ص 61 .

(2) -Miege; Le Maroc, t. IV , p. 255 .

(3) اتفق الساسة والعسكريون في فرنسا في شهر افريل 1893م على بسط نفوذهم على منطقة واحات القورارة وتوات و"تيديكلت" من خلال عمل مسلح ،وهذا العمل المسلح هو الذى سبقهم السلطان اليه بتافيلالت ،اذ تمكن من خلاله من اعادة قبضته على القوى الدينية والسياسية بمنطقة الجنوب الشرقي من المغرب ،وهو العمل نفسه الذى توفي السلطان في اثناء العودة منه .
ـ انظر : Miege; Le Maroc, t. IV, p255 -

مع انكلترا :

كانت العلاقات المغربية الانكليزية تقوم على شخص الوزير المفوض "هاى" الذى كان من أبرز ممثلي أوربا في المغرب لعمادته للسلك الدبلوماسي وطول اقامته فيه (1) وتمثيله لدول النمسا والمجر وهولندا والدانمارك ، فضلا عن دولته انكلترا (2) .

ونظرا لتأثير انكلترا ومكانتها لدى المخزن ، صارت بمثابة حامية للمغرب وأصبح ممثلها بمثابة مستشار السلطان (3) .

والجدير بالملاحظة ، أنه ما كان "لهاى" أن ينجح في سياسته وتقربه من المخزن لولا تأثيره واعتماده على عناصر مقربة من المخزن وفي مقدمتهم "ماكلين" (4) مع مجموعة من الأعوان الذين يشكلون شبكة وهم موزعون على مختلف مصالح المخزن ، خاصة حول الوزير سي عباس بن العربي مختار (5) وكاتبه الفقيه سي الطاهر ابن جلون (6) . وعلى هذا الأساس ، تمكن "هاى" من كسب ثقة السلطان التي ظلت

---

(1) استمر "هاى" في منصبه في المغرب حوالي نصف قرن .

(2) الوثائق (4) ، ص 69 .　　(3) فارس ، ص 93 .

(4) عمل "ماكلين" مدربا بالجيش السلطاني فساعد على تكوين فرقة للمشاة . وتوطد نفوذه تدريجيا حتى بدا في أعين المغاربة كشخصية مخزنية . وأخذ عادات المغاربة . من ذلك أن زوجته وبناته لم يكن يظهرن الا بالحايك (الحجاب) . وقد اكسبت ليونة "ماكلين" صداقة السلطان فكلفه بمهام تجارية استغلها "ماكلين" حين ضم أخاه اليه ، فصار الاخير مقتصد السلطان الخاص . وزاد تأثير "ماكلين" لا سيما بعد رحيل "اركمان" الفرنسي وذلك عام 1883م . - انظر :

- صبحي ، ص 156 .

(5) Miege; Le Maroc, t. IV, p. 67. -

(6) في هذا الاطار عمل "هاى" على تثبيت اسم سي بوبكر ضمن قائمة محميي انكلترا حتى لا يكشف عن نشاطه في المخزن وتغطية ارتباطاته بالمفوضية الانكليزية . وقد صار سي بوبكر ابتداء من 1881 العضو البارز في السياسة البريطانية في المغرب ، اذ أصبح مكلفا بايواء الاجانب الذين يكونون في مهام في المغرب من غير ضيوف السلطان . فهو دليلهم مع اتصاله الدائم بـ "هاى" . وقد مكن سي بوبكر الوزير "هاى" من الاتصال المباشر بالسلطان وبدون واسطة سي بركاش . - أنظر :

-Miege; Le Maroc, t. IV, pp. 67-68.

كبيرة فيه الى موءتمر مدريد حيث سجلت ذبولا . ولما أدرك " هاى " ذلك صار يتحين الفرص لاسترجاعها . وسرعان ما توفر له الجو مع بروز السياسة الفرنسية الجديدة منذ عام 1881، وكذلك مع بداية تصلب مواقف اسبانيا ،اذ عاد " هاى " الى جهوده الرامية الى المحافظة على " الوضع الراهن " بالمغرب ،والتقدم المعقول للتجارة . وكان "هاى " يلح — في خلال ذلك — على المخزن ان لا يتنازل على نقاط ثلاث ،وهي : سلامة التراب المغربي ،ورفض الامتيازات الفلاحية والمنجمية والسكة الحديدية (1) .

وجد رئيس الدبلوماسية الانكليزية في احتلال فرنسا لتونس وكذلك في بداية تحركات " ايرديقا " في المغرب الفرصة الذهبية من أجل استرجاع مكانة بلده وثقته لدى المخزن . ومما زاد في حظ " هاى " أن مثل هذه الظروف السالفة الذكر دفعت السلطان نفسه الى اللجوء الى انكلترا (2) عندما بات من الواضح ان احتلال تونس هو النتيجة الطبيعية لاحتلال الجزائر وهي النتيجة نفسها التي ستوءول لا محالة الى احتلال المغرب . لذلك أبدى السلطان رجاءه في أن يبلغ "هاى" لندن قلقه الشديد ورغبته في أن تتخذ حكومته الخطوات الحاسمة للحيلولة دون اقدام فرنسا على احتلال المغرب (3) . وبالفعل أقدمت انكلترا على تحذير فرنسا من أي خطوة من شأنها أن توءدى الى فرض الحماية على المغرب (4) .

يجد موقف انكلترا هذا ما يبرره ،اذ كانت متخوفة من استيلاء قوة كفرنسا على الشاطىء الشمالي للمغرب سواء عن طريق الاحتلال او الحماية (5) ،وهي ترى بذلك ان الفائدة الاستراتيجية لمغرب مستقل تفوق كل افتراضات الفوائد الاقتصادية في المغرب . وتدعيما لهذا ،يوصي "هاى" خلال وجوده في لندن بضرورة التفاهم بين القوى التي يهمها أمر المحافظة على استقلال المغرب ،اذ في ظل تحقيق هذا الشرط لا يمكن للسلطان الا أن يقبل بالاصلاحات اللازمة وتحسين وضعية التجارة (6) .

---

(1) نفس المصدر ،ص 69—70 .

(2) عبد الكريم محمود غرايبة ،دراسات في تاريخ افريقيا العربية (1918—1958) ،مطبعة جامعة دمشق ،1960 ،ص79 .

(3) ذهب السلطان الى ابعد من هذا فذكر لـ"هاى" انه اذا كان لابد من فرض الحماية على المغرب فانه يفضل انكلترا عن فرنسا . (4) صبحي ،ص 54 .

(5) *Miege; Le Maroc*, IV, 69—70 . (6) نفس المصدر ،ص 70 .

كان "هاى" أكثر ادراكا من غيره للعوائق القائمة منذ حوالي اربعين سنة والمتمثلة في استحالة الحصول على اجماع للدول المهتمة باستقلال المغرب في اطار ما عرف "بسياسة المحافظة على الوضع الراهن" لذلك نجده يمضي في طريق تجديد مناداته بسياسة التقارب الواسعة ويقاوم – في آن واحد – المؤامرات التي بدأها "اورديقا" مع شريف وزان (1)، وهي المؤامرات التي دفعت السلطان مجددا الى طلب مساندة انكلترا، الامر الذى جعل "هاى" يقدم على مراقبة تحركات "اورديقا" من قريب ويخبر السلطان ببعض دسائسه التي انتهت بالفشل – كما سلف – (2).

ومع ما كان "هاى" يقوم به من نشاطات، تبدو في الظاهر في صالح المغرب، بدأ الموقف الانكليزى يعرف تغيرا تدريجيا (3)، اذ هناك من زار المغرب من الانكليز كالرحالة "ستيفيلد" عام 1883، وكتب كتابه "المغرب" كاشفا اهميتها، وأوصى باستعمار مراكش قائلا : "يجب على انكلترا ان تتخذ لها في البلاد نواة مستعمرة." وهذه النواة في رأيه سوف تتسع الى ان تصير منتجة للقمح الذى يمكن انكلترا من أن تستغني عن باقي العالم ولو تضاعف عدد سكانها (4).

لم تكن انكلترا تتجه هذه الوجهة وحدها ولكننا نجد أغلب الدول المهتمة بالمغرب تغير من لهجة تخاطبها مع السلطان ابتداء من منتصف الثمانينات . وقد رأينا كيف شددت الصحف – في طنجة – الخناق على السلطان من خلال شن حملة ضد المخزن وموظفيه وعامة الشعب المغربي ثم كيف أنها ذهبت الى حد مطالبة الدول الاوربية بضرورة فرض حمايتها

---

(1) نفس المصدر، ص 70.

(2) أرسل "هاى" في نوفمبر عام 1883 مذكرة الى السلطان يخبره فيها باقتراحات الوزير الفرنسي الهادفة الى تقسيم المغرب بين فرنسا وبريطانيا ناصحا اياه بضرورة الصمود في المسائل الاساسية كسلامة التراب المغربي والمصالحة والتنازل في الامور الثانوية . – أنظر :
- *Miege; Le Maroc, t. IV, p. 46.*

(3) لم يزدهر عهد الامبريالية خلال فترة رئاسة "جلادستون" للوزراء (1880–1885م) لكن المهم انه انطلق وقت ذاك . – انظر :
-*René Girault; Diplomatie Européenne et Impérialisme: 1871-1914, Paris, 1979, pp. 95-96.*

(4) صبحي، ص 19.

كان "هاى" أكثر ادراكا من غيره للعوائق القائمة منذ حوالي اربعين سنة والمتمثلة في استحالة الحصول على اجماع للدول المهتمة باستقلال المغرب في اطار ما عرف "بسياسة المحافظة على الوضع الراهن" لذلك نجده يمضي في طريق تجديد مناداته بسياسة التقارب الواسعة ويقاوم — في آن واحد — المؤامرات التي بدأها "اورديقا" مع شريف وزان (1)، وهي المؤامرات التي دفعت السلطان مجددا الى طلب مساندة انكلترا ، الامر الذى جعل "هاى" يقدم على مراقبة تحركات "اورديقا" من قريب و يخبر السلطان ببعض دسائسه التي انتهت بالفشل — كما سلف — (2).

ومع ما كان "هاى" يقوم به من نشاطات ، تبدو في الظاهر في صالح المغرب ، بدأ الموقف الانكليزى يعرف تغيرا تدريجيا (3) ، اذ هناك من زار المغرب من الانكليز كالرحالة "ستيفيلد" عام 1883 ، وكتب كتابه "المغرب" كاشفا اهميتها ، وأوصى باستعمار مراكش قائلا : "يجب على انكلترا ان تتخذ لها في البلاد نواة مستعمرة ." وهذه النواة في رأيه سوف تتسع الى ان تصير منتجة للقمح الذى يمكن انكلترا من أن تستغني عن باقي العالم ولو تضاعف عدد سكانها (4).

لم تكن انكلترا تتجه هذه الوجهة وحدها ولكننا نجد أغلب الدول المهتمة بالمغرب تغير من لهجة تخاطبها مع السلطان ابتداء من منتصف الثمانينات . وقد رأينا كيف شددت الصحف — في طنجة — الخناق على السلطان من خلال شن حملة ضد المخزن وموظفيه وعامة الشعب المغربي ثم كيف أنها ذهبت الى حد مطالبة الدول الاوربية بضرورة فرض حمايتها

---

(1) نفس المصدر ، ص 70 .

(2) أرسل "هاى" في نوفمبر عام 1883 مذكرة الى السلطان يخبره فيها باقتراحات الوزير الفرنسي الهادفة الى تقسيم المغرب بين فرنسا و بريطانيا ناصحا اياه بضرورة الصمود في المسائل الاساسية كسلامة التراب المغربي والمصالحة والتنازل في الامور الثانوية . — أنظر :
- *Miege; Le Maroc, t. IV, p. 46.*

(3) لم يزدهر عهد الامبريالية خلال فترة رئاسة "جلادستون" للوزراء (1880 — 1885م) لكن المهم انه اطلق وقت ذاك . — انظر :
-*René Girault; Diplomatie Européenne et Impérialisme: 1871-1914, Paris, 1979, pp. 95-96.*

(4) صبحي ، ص 19 .

على المغرب وذلك خلال عام 1884، ثم في عام 1885، (1) .

وسرعان ما اتضح هذا الاتجاه الجديد في سياسة انكلترا تجاه المغرب، وذلك منذ وصول " Green " (2) ومغادرة "هاى" للمغرب في مارس 1886، اذ لم تمض سنة حتى صار رجال الدولة في انكلترا يفكرون في فرض حمايتهم على المغرب. وفي هـذا المعنى صرح " سالسبورى " عام 1887، انه : " في حالة ما اذا وقع تقسيم لأراضي المغرب فستكون شهيتنا طيبة. " (3) . ولما زار " قرين " السلطان خلال بعثة افريل وماى 1887، قدم له قائمة من المطالب تتلخص في مجموعة من الامتيازات (4) . فما كان من السلطان الا أن عارضها كغيرها من مطالب الدول الاخرى المقدمة في مناسبات عديدة. لكـن الذى يهمنا من هذه البعثة هو ما يلاحظ من اختفاء لهجة الثقة بين المفوضية الانكليزية والمخزن (5) ، كيف لا وقد كان "هاى" قبل رحيله بسنة فقط هو الذى ينصح السلطان بعدم الرضوخ للمطالب المقدمة من طرف الدول الاوربية الاخرى.

والحقيقة أن سنة 1887 سجلت تغيرا بارزا في علاقة انكلترا وفرنسا وألمانيـا بالمغرب. اذ حاول الانكليز من ناحيتهم الاستقرار في الطرفاية (6) . مسجلين بذلك بداية

---

(1) -Microfilm D 45 - Per Micu D 45-53, Le Temps du 11/8/1886.

(2) انظر ترجمة له في : - Miege; Le Maroc, t. IV, p. 152.

(3) -Ayache; Le Maroc , p. 59.

(4) كان من بين المطالب المقدمة، اقتراح استغلال بعض أراضي الساحل الغربـي والسماح لانكلترا باقامة خط برقي بين جبل طارق وطنجة الخ ..

(5) - Miege; Le Maroc , t. IV, pp. 259-260.

(6) امام احداث الشغب التي قام بها الانكليز هناك، أعلن السلطان أن هذه الجهات لا تدخل في نطاق دولته (من وادى درعة الى رأس بوقادور) ولكنه دفع الثمن فيما بعـد حين باعت له انكلترا المنطقة بمبلغ 50 الف جنيه . — أنظر :

— الناصرى، ج 9 ، ص 182 .

لسلسلة من الأزمات دفعت فرنسا الى مراجعة بعض مواقفها ،كما سلف . وحين مرض السلطان ، في اكتوبر من نفس السنة ، توترت الحالة بشكل دعا الدول الى التأهب للتدخل فعبأت اسبانيا جيوشها و تحركت انكلترا مقترحة على حكومات : باريس وروما ومدريد ارسال سفن حربية الى المياه المغربية . وفي اثناء ذلك ناقشت الدول بصورة فعلية مسألة احتلال الساحل المغربي (1) .

وقد كان السلطان على يقين من أن تفاهما دوليا لن يحدث ، نظرا لتناقض مصالح الدول وأطماعها في المغرب ، ولأنه من ناحية أخرى كان يعرف كيف يبعد المضايقات الأجنبية ، اذ عندما يريد التخلص من خلاف قائم بينه و بين دولة أوربية يبدي رغبته في عرض أمر الخلاف على باقي الدول ، لأن التجربة علمته بأن هذه الدول لا ترحب بدعاوى بعضها البعض في المغرب (2) . ومع نهاية الثمانينات دخلت الدول في تنافس حاد من أجل زيادة تأثيرها في المغرب .

وهكذا ، شهدت العلاقات المغربية الانكليزية أزمة حادة شبيهة بأزمة العلاقات المغربية الفرنسية في بداية الثمانينات .

بدأت هذه الازمة مع وصول " *Sir Charles Euan Smith* " الى طنجة في 3 ديسمبر 1891 ، خلفا لـ"قرين" . وقد شرع في رسم برنامج لنفسه يتلخص في نقاط ثلاث وهي : مضاعفة العلاقات التجارية بين البلدين ، و تقديم المساعدة الكافية للمؤسسات الانكليزية في المغرب والتعجيل بتطبيق كل المعاهدات الموقعة بين البلدين (3) .

ولعل الأهم من هذا كله هو أن " سميث " قد جاء الى فاس ليطلب من السلطان باسم الدول عقد معاهدة تجارية تشتمل على شروط جديدة من أجل الحصول على حق الملكية للأجانب في المغرب مع امتيازات أخرى (4) .

---

(1)

(2) صبحي ، ص 111 .

(3) نفس المصدر ، ص 109–110 . وكذلك : *Miege; Le Maroc, t. IV, p. 263.*

(4) نفس المصدر ، ص 114 .

لكن قبول السلطان للمطالب كان يعني قبوله بنصف حماية انكليزية ،لأنها تفتح البلاد بلا قيد أمام الشركات الانكليزية (1) . وقد أضاف " سميث " شرطا مهينا للسلطان زاد في تعقيد المفاوضات و توتر العلاقات ،لما صرح بأنه لن يغادر الا بعد قبول هذه المطالب .وكان يعتمد على مساندة قوى الحلف الثلاثي (ألمانيا - النمسا - ايطاليا) (2) .

يبدو أن السلطان قد تعود على هذه الأزمات لأنه اهتدى الى حل يتمثل في أنه كان يعادل مطالب " سميث " ويقاومها بالنصائح التي كان الدكتور " Linarès " والصحفي " De Kerdec " يزودانه بها (3) . وقد لجأ السلطان في 22 و25 ماي 1892م الى عقد مجلس للعلماء بهدف مناقشة مطالب بعثة " سميث " وانتهى المجلس الى رفض مطالب النائب الانكليزي (4) .

اما " ليناريس " فقد نصحه بالحذر لأن التسرع والقطيعة من شأن انكلترا استغلالها لفرض التدخل في المغرب. واما " سميث " فقد أصدر بيان المطالب بعد تخليه عن ثلاثة منها (5) وادعى بأنها آخر محاولة منه . وكان جواب السلطان ثابتا ،الأمر الذى اغضب "سميث" فقاطع المفاوضات وراح يقدم على تصرفات لا تليق بمقامه (6) ،ثم انتهى

(1) تخفض فيها حقوق التصدير بالنسبة للحبوب و تسمح بتصدير المواشي ،وفتح حرية الملاحة في السواحل ،وحرية شراء الاراضي من طرف الاجانب وفي المقابل يلغى نظام الحماية والمحاكم الثنائية والرق . - أنظر :
-Miege; Le Maroc, t. IV, p. 269.

(2) نفس المصدر،ص 270 .

(3) كان " دى كردك " يشن حملة على انكلترا من خلال جريدة " Le Reveil du Maroc " ،وذهب الى حد تقديم مشروع " لانهاض المغرب " اعتمادا على الرأسمال الفرنسي واليد العاملة المصرية المطرودة من طرف الانكليز . - أنظر :
-Miege; Le Maroc, t. IV, p. 271.

(4) نفس المصدر،ص 272- 273 .

(5) هي خط التلغراف والبنك المغربي وحرية استيراد الأسلحة .

(6) أقدم على رفع العلم البريطاني فوق مقر اقامته ومزق المعاهدة التجارية يوم 10 جويلية 1892م . - انظر حول تمزيق "سميث" للمعاهدة : Le Temps du 17/07/1892 -
وكذلك عن سير المفاوضات واتصالات "سميث" باللورد " سالسبورى " :
- Le Temps du 10/08/1892

الى مغادرة فاس مما دعا السلطان الى كتابة رسالة احتجاج الى الملكة "فكتوريا" (1) . وكان جواب الاخيرة يفيض بالمجاملة، ومرفوقا برسالة من اللورد " سالسبوري " الى وزير خارجية المغرب .

يفهم من رد الحكومة الانكليزية رغبتها وحرصها على توقيع الاتفاقية التجارية (2) ، لكن استدعاء " سميث " في شهر جانفي 1893م وضع نهاية للمحاولة الانكليزية في فرض حمايتها على المغرب (3) . وبدا للجميع تراجع الحكومة الانكليزية عن السياسة الديناميكية التي دشنتها عام 1890م ، خاصة وأن البعثة الجديدة الى المغرب التي كان على رأسها " Sir West Ridgeway " كلفت باعادة علاقات الصداقة بين البلدين والشعبين . وسرعان ما تنفجر أزمة جديدة ، لأن "رد جواي" قام بزيارة لشواطئ مغربية وهي الزيارة التي تركت البعض يفهم بأنها تمهيد لاستيلاء انكليزي على بعض النقاط الساحلية . وكان الرأي العام الاسباني في مقدمة المتخوفين من مشروعات انكليزية شبيهة بما حدث في راس جوبي . وفي هذا الجو بالذات اندلعت أحداث ووقع نزاع دموي بين الاسبان والمغاربة حول مدينة مليلية ، وهي الأحداث التي طغت على ما عداها من مشكلات والتي سنتعرض لها في حينها (4) .

---

(1) Miege; Le Maroc, t. IV, pp. 274-275.

(2) صبحي ، ص 127-128 .

(3) Desfeuille; p. 11 .

(4) صبحي ، ص 32 .

كانت اسبانيا حريصة على مصالحها في المغرب وهي ترى بأن ادعاءات الانكليز في رأس جوبي مثلا والاقليم المحيط به كانت شبيهة بما كان يدعيه الفرنسيون في مناطق الحدود مع المغرب . وكانت اسبانيا ايضا تخشى من الاعتراف بالقضية الفرنسية في واحات فقيق وتوات مما يمكن فرنسا من الزحف حتى شاطئ المحيط في مواجهة جزر الكناري .

ـ انظر : نفس المصدر، ص 99 .

مع ألمانيا :

أعلن بسمارك عشية انعقاد موتمر مدريد أنه ليس لألمانيا مصالح في المغرب . لكن تضافر جهود ألمانيا وانكلترا تركت المؤتمر يقرر مبدأ المساواة في التجارة لكل الدول في المغرب ، مما جعل ألمانيا تخرج من المؤتمر وهي أكثر الدول استفادة بحصولها على حقوق مماثلة لبقية الدول التي كان لها علاقات قديمة معه (1) . ثم عمل المستكشفون والدبلوماسيون الألمان على الاستفادة من هذه الحقوق الجديدة (2) .

وكان موضوع العلاقات المغربية الألمانية - في مطلع الثمانينات - لا يزال هو التجارة (3) ، لأن السياسة الألمانية لا تزال في هذه الفترة - على الاقل - مطابقة لسياسة بسمارك الرامية الى تشجيع فرنسا في توسعاتها الاستعمارية و تمتين علاقاتها خارج أوربا وشغلها عن قضية الألزاس - لورين (4) ، لذلك نجدها تبارك احتلال فرنسا لتونس ولو أن هذا الموقف لبسمارك كان يحرجه لأنه كان مدعوا الى التوفيق بين ايطاليا الموالية وإسبانيا الصديقة وفرنسا التي يريد كسبها (5) .

وفي المغرب بالذات كان الموقف الألماني مساندا لفرنسا من خلال مجهودات " أوردیقا " الرامية الى فرض الحماية على المغرب ، اذ صرح وزير ألمانيا " Weber " لأورديقا " بأن ألمانيا لا تعارض السياسة الفرنسية في المغرب (6) .

---

(1) - نفس المصدر ، ص 46 . وكذلك : - فارس ، ص 112 .

(2) نفس المصدر ، ص 112 .

(3) -Miege, Le Maroc, t.IV, P. 200.

(4) -Guillen; p. 100.

(5) - Miege; Le Maroc, t. IV, pp.59-61.

لا يزال بسمارك وقتذاك يرغب في ان يحتفظ للرايخ بالتفوق القاري من خلال سياسة قارية تهدف الى حماية ألمانيا من الأخطار المحتملة باقامة أسوار حولها من التحالفات وأن يعزل فرنسا في اوربا وهي السياسة التي ستستمر حتى عام 1890م . - أنظر :

- فارس ، ص 110-111 .

(6) - Guillen, p. 106.

لم يدم مثل هذا الموقف لألمانيا تجاه فرنسا طويلا اذ حدث ما جعل بسمارك يعدل عن هذه السياسة بعد الذى أحرزته المؤسسات التجارية الألمانية من تفوق وكذلك أمام التطور الاقتصادى الضخم (1) . وهكذا فلم تمض سنة 1885م حتى قفزت ألمانيا في ميدان الاستعمار الى مرتبة ثالث دولة في افريقيا ، وتبنت فكرة عقد مؤتمر برلين (1884 – فبراير 1885م) لتسوية مسائل حوض الكونغو (2) . ولم تعد ألمانيا ابتداء من 1885 تناصر فرنسا في سياستها التوسعية الا ظاهريا (3) . ولعل في استدعاء "ويبر" في هذه السنة بالذات وارسال " Testa " (4) مكانه ما يعبر عن اتجاه جديد لا يجد تفسيراته سوى في اهتمامات ألمانيا الاوربية وأخرى مغربية ، لا سيما وان مصلحة ألمانيا تطورت بالمقارنة مع 1873م (5) .

وصل " تستا " الى المغرب في 17 اكتوبر 1885 ، وكان يأمل في جعل بعثته الدبلوماسية نقطة بداية لمرحلة جديدة في العلاقات المغربية الالمانية (6) . وقد وجد بالمفوضية الالمانية بطنجة مساعدا هاما له وهو المترجم " منصور ماء المالح " ، وكذلك " علي بوطالب " (7) اللذين عوضا " تستا " عن فقدان بركاش المعروف بميله لألمانيا

---

(1) فارس ، ص 111 . وكذلك : صبحي ، ص 34 .
(2) نفس المصدر ، ص 36–37 . (3) -*Guillen*; p. 115 .
(4) أول ترجمان في سفارة القسطنطينية ، له خبرة في الشؤون المغربية . – أنظر :
-*Miege*; *Le Maroc*, *t. IV*, p. 69 .
(5) نفس المصدر ، ص 23 .
(6) نفس المصدر ، ص 169 .
(7) لا نعرف عن الاول اكثر من أن له دراية بالشؤون المغربية . اما الثاني فقد تعرف عليه " تستا " في القسطنطينية وهو رجل اعلامي محنك .

وثقته في مساعدتها للمغرب في التصدى لأطماع الدول (1) .

وما ان حلت سنة 1886م حتى حلت بالموانئ المغربية ست شركات ألمانية ، هي فروع لشركات " هامبورغ " و" بريم " و " ستيتن " (2) كما تعرض الشاطئ المغربي الى حملة تجارية عرضت خلالها عينات من المنتجات الالمانية المحمولة على ظهر سفينة " Goltop " وتم خلال ذلك التعرف على اهتمامات السوق المغربي في الدار البيضاء واقامة صلات مع تجار مغاربة (3) .

هذا في الوقت الذى كان فيه الرحالة " ولفس " و "ياناخ " و"لنز" وغيرهم يمدحون للشعب الالماني فوائد الاستيلاء على المغرب. وقد لفتت تقاريرهم السرية انتباه الامبراطور ومستشاره الى أهمية المغرب (4) . ولما كان من الطبيعي أن تنمو مصالح ألمانيا كنتيجة لجهود هؤلاء واهتمام الرأى العام الالماني بالمغرب ، فقد بدأت السياسة الالمانية تتحول تدريجيا من معاكسة فرنسا وتأييد ايطاليا أو اسبانيا أو انكلترا ، الى ظهورها كمنافس لفرنسا في المغرب بعد الحلف الثلاثي (4 ماى 1887م) (5) .

وهكذا ، فمع حلول سنة 1888م تقدمت ألمانيا الى السلطان بطلب الحصول على محطة او مستودع فحم . وبالرغم من ميل السلطان الى ألمانيا واعتماده عليها في هذه الظروف لمقاومة اطماع فرنسا واسبانيا وانكلترا ، الا أنه رفض الطلب خشية مطالبة الدول الاوربية بمثله أو معارضتها له (6) .

---

(1) Miege; Le Maroc, t. IV, 170-171. - (2) نفس المصدر ، ص 192 .
(3) فارس ، ص 112 . وكذلك : Ayache ; p. 54 .
(4) نفس المصدر ، ص 110 .
(5) صبحي ، ص 44 . وكذلك : فارس ، ص 115 .
(6) نفس المصدر ، ص 115 . وكذلك : صبحي ، ص 46-47 .
بدأ الايطاليون في هذه الظروف يخوفون السلطان من الدول التي لها مدفعية على مرمى من طنجة أو التي تملكها حاميات تضغط على الحدود المغربية وظلوا يقنعونه انه اذا كان يرغب في الحفاظ على دولته من هذا الخطر فعليه تأسيس نظام للدفاع واعداد أسلحة مستقلة عن الصناعة الاجنبية . واقترحت ايطاليا مساعدة السلطان في بناء مصنع للبنادق وتكوين اسطول . وهو ما قبل به السلطان وشرع في انجازه في مطلع التسعينات . أنظر : صبحي ، ص 79 .

لم يؤثر الطلب المرفوض على العلاقات الودية القائمة بين المغرب وألمانيا ، اذ أمضى السلطان في اعتماده على ألمانيا التي جددت مساندتها للسلطان سواء في الرسالة التي بعث بها " Waldthauzen " الى المخزن (1) أم من خلال اعلان الامبراطور غليوم الثاني للسفارة المغربية ـ التي ذهبت لتهنئته بمناسبة جلوسه على كرسي العرش ـ بأن السلطان يستطيع الاعتماد عليه في كل وقت (2).

ما فتئ اهتمام ألمانيا يزداد بالخارج على العموم والمغرب على الخصوص ، ولعلنا نلمس ذلك في النداء الذي وجهته جريدة " *Export* " الى الشعب الألماني بتاريخ 23 افريل 1889م ، دعته فيه الى فتح باب البحث في موضوع المزايا التي تجعل المغرب في القمة ، وارسال شخص يدرس في سنة واحدة الكيفية التي بها تستطيع التجارة والصناعة والعلوم الألمانية أن تنمو في المغرب (3).

وعلى أى حال ، فقد نجحت ألمانيا عام 1890م في عقد معاهدة تجارية (4) سمحت للألمان أن يشتروا بأنفسهم بكل حرية في الأسواق المغربية المواد التي عينتها المعاهدة كما حصل الألمان على حق استيراد الحبوب وتحديد الرسوم على الواردات والصادرات . وقد بدأ الألمان منذ ذلك الوقت يوسعون نشاطهم الاقتصادى في المغرب ، اذ ظهرت في نفس السنة ثلاث شركات ملاحية ألمانية بين " هامبورغ " والموانئ المغربية وكذلك هامبورغ وافريقيا الغربية مرورا بالموانئ المغربية (5).

---

(1) فارس ، ص 112 . — *A.M.G. 3 H 5, Berlin le 14/03/1889.*

— *Miege; Le Maroc, t. IV, pp. 185-186.*

(2) فارس ، ص 112 . (3) صبحي ، ص 44 .

(4) بفضل جهود " *Tattembach* " الذى صار وزيرا مفوضا لألمانيا في المغرب منذ 1890م . وقد أحرز نجاحا شخصيا وصار له نفوذ في البلاط . — أنظر :

— فارس ، ص 112 .

(5) صبحي ، ص 47-48 .

— فارس ، ص 113 . — *Desfeuille; p. 11.*

— حركات ، ج 3 ، ص 272 . — *Kerdec; pp. 170-171.*

وليس من المستبعد أن تكون المغرب ضمن برنامج ألمانيا الاستعماري وسعيها في خلق امبراطورية واسعة لمواجهة حاجات الصناعة والتجارة وازدياد السكان، اذ حاول الألمان في أوائل 1892م الاستقرار بين وادي درعة ووادي نون مقتفين في ذلك أثر الانكليز ومحاولتهم في " رأس جوبي ". لكن الألمان لم يلقوا الترحيب (1)، كما أن السلطان نفسه بدأ يعود عن ميله لألمانيا ويبدي قلقه تجاه طلبات الامتيازات والدعاية الألمانية والتطور السريع لتجارتها، كما سجله " ليناريس " (2). وقد بات من الواضح في العشرية الأخيرة من القرن التاسع عشر أن ألمانيا صارت تتهيأ لأخذ مكانة بريطانيا باستعمال نفس الوسائل التي مكنتها من احتلال مركز الصدارة في المغرب (3).

مع اسبانيا :

ذكر سفير فرنسا في اسبانيا عام 1881م أن الاخيرة قررت اتخاذ الاجراءات اللازمة لتدعيم وجودها في المغرب متى سمحت لها الفرصة بذلك (4). وكان للسياسة الاسبانية الجديدة، التي ترغب انتهاجها في المغرب ما يبررها، لأن مشاريع فرنسا بالصحراء وتدخلها في تونس ايقظت مخاوف اسبانيا (5).

لم تمض سنة عن الحدث الاخير حتى عقد في مدريد (1882م) مؤتمر للجغرافية الاستعمارية والتجارية انبثقت عنه لجنة *La Société Espagnole des Africanistes* et des Colonisateurs ". وقد انتهت خطب ونشرات الجمعية الى أن أي تهديد للمغرب

---

(1) صبحي، ص 85.

(2) -Miege; Le Maroc, t.IV, p 206.

(3) -Guenane ; p. 61.

(4) -Miege; Le Maroc, t.IV, p 74.

(5) ازداد اهتمام الرأي العام الاسباني بالمغرب خاصة وافريقيا عامة بعدما تخلصت اسبانيا من مشاكلها الداخلية.

هو تهديد ضد استقلال اسبانيا نفسها وأوضحت بأنها ضد احتلال فرنسا للمغرب واحتلال انكلترا لطنجة كما سعت اللجنة الى دفع الرأى العام الاسباني للاهتمام بالمسألة المغربية (1) ·

لم يكن للاتجاه الجديد صدى كبير ، لأن الواقع الاسباني لم يكن يسمح بمثل هذه السياسة النشيطة كما لم يكن في صالح القيام بعمل ما في المغرب (2) لذلك سرعان ما تغير موقف اسبانيا وسياستها التي صارت تقوم على أساس المحافظة على المغرب الى غاية تحسن وضعيتها الدبلوماسية والاقتصادية (3) · وهكذا فقد دعا " ديو سداد و" الحكومة من جديد في مذكرة طويلة له في مارس 1883م بضرورة الرجوع الى مواقفها بين 1878م و 1880م ، والمتمثلة في تأييد " هاى " للجهود الرامية الى المحافظة على الوضع الراهن في المغرب ·

وقد أثمرت هذه الدعوة مع نهاية 1883 وبداية 1884 بتقارب وجهات النظر للوزيرين الانكليزى والاسباني في طنجة (4) · كما سلكت اسبانيا سياسة الموالاة لانكلترا للتعبير عن عدم رضاها عما كان يقوم به وزير فرنسا " اورديقا " من ممارسات في المغرب · ومع ذلك ، ظلت اسبانيا مستحفظة في آن واحد ، من اللعبة الثلاثية للسياسة الاوربية الجديدة في المغرب والمتمثلة في تحالف طرفين لايقاف مشاريع الطرف الثالث (5) وهكذا · ولعلنا نجد فيما كانت تبحث عنه اسبانيا من فرصة مواتية للتحرك في المغرب ما يبرر تحفظها لأن سياسة المحافظة على الوضع لم تمنع اسبانيا عام 1884م من فرض حمايتها على طرفاية لتقطع على فرنسا طريق التقدم نحو الشاطيء المغربي الجنوبي المواجه لجزر الكنارى (6) ·

---

(1) فارس ، ص 108 ·

(2) كان في نية اسبانيا الاستيلاء على المغرب ولكنها كانت أضعف بكثير من أن تحاول ذلك فلم يكن لديها الطاقة ولا الموارد لتنفيذ ذلك مباشرة مما اضطرها الى الاكتفاء بالأمل في المستقبل · وقد دفعها عجزها السياسي والعسكرى والاقتصادى الى التمسك بمبدأ المحافظة على الوضع الراهن · — أنظر :

— نفس المصدر ، ص 109 ·

(3) · 75 - Miege; *Le Maroc*, t. IV, p.

(4) نفس المصدر ، ص 289—290 ·   (5) نفس المصدر ، ص 73—76 ·

(6) فارس ، ص 109 ·

استمر القلق الاسباني كبيرا امام طموحات فرنسا في المغرب الى عام 1885م، ولا أدل على ذلك مما كانت تنشره الصحف معلنة عن الحملات الفرنسية نحو فقيق ودرعة وغيرهما ... (1)

وما دمنا بصدد العلاقات المغربية الاسبانية فانه يجدر بنا أن نلاحظ أنه في الوقت الذى تم فيه استيفاء نواب الاسبان في مراسي المغرب لما كان قد وقع الصلح عليه اثر حرب تطوان — بدفع 10 ملايين مما تبقى من الـ20 مليونا المفروضة على المغرب — (2) لم يعرف التبادل التجارى بين البلدين تطورا، بل ظل ضعيفا مما جعل اسبانيا تأتي في المرتبة الرابعة بعد انكلترا وفرنسا وألمانيا (3).

ولعل هذه المكانة التي لا تحسد عنها اسبانيا في المغرب هي التي جعلتها تعمل على المحافظة على الوضع الراهن، فصارت تميل اكثر نحو سياسة التقارب والانضمام الى الاحلاف الدولية الموجهة ضد فرنسا في أحوال كثيرة (4). وهكذا، فقد ساعدت المصلحة المشتركة لكل من اسبانيا وايطاليا على افساد خطط فرنسا في المغرب. ومن ذلك نرى ان اسبانيا تؤيد طلب الحكومة المغربية في ديسمبر 1887م لتعديل اتفاقية مدريد، ثم تقترح في افريل 1888م عقد مؤتمر دولي جديد بقصد مراجعة قرارات المؤتمر الأول، لولا أن المشروع لقي صعوبات وانتهى بالفشل (5).

ان الجو العدائي الذى استمر يحيط بالحاميات الاسبانية في المغرب حال دون

---

(1) Miege; *Le Maroc*, t. IV, p. 79.

(2) كان الامناء الاسبان بالمراسي يأخذون نصف الدخل الى عام 1885. — أنظر: — الناصري، ج 9، ص 177—178. وكذلك : — المنوني، ص

(3) فارس، ص 107.

(4) كان لحقد اسبانيا على فرنسا بخصوص المغرب، ولميول " Moret " أثره في عقد " مورى " للاتفاق السرى بين اسبانيا وايطاليا (4 ماى 1884م) والذى كان سببا في ربط اسبانيا بالحلف الثلاثي بطريقة غير مباشرة. وقد كان " مورى " وزير خارجية اسبانيا، يود أن يضم اسبانيا الى الحلف الثلاثي ولكن رئيس الوزراء كان يعارض ذلك. — أنظر: — صبحي، ص 63.

(5) صبحي، ص 63. وقفت فرنسا ضده لأنها لم تكن واثقـــــــــة ===

تحسين العلاقات بين البلدين • وقد ظلت الحوادث تتكرر في هذه المناطق وفي منطقة مليلية على الخصوص ،التي نشبت بها أحداث خطيرة عام 1893م ، بالرغم من توقيع اتفاقيتين فيها بشأن الحدود المغربية الاسبانية ، ذلك عام 1891م [1] •

بدأت الازمة في العلاقات بين البلدين اثر انتزاع الاسبان الاذن من السلطان بتوسيع حدودهم الترابية في مليلية • ولما هموا ببناء بعض المنشآت بجوار ضريح " سيدى ورياش " عمد السلطان الى هدمها ،فتطورت الحادثة الى حرب حقيقية بين قبيلة قلعية الزناتية من جهة والجيش الاسباني المدعم بالمدافع والامدادات [2] • وثارت القبائل القاطنة على الحدود لنصرة اخوانهم من رجال الريف [3] •

لم تكن اسبانيا مستعدة لخوض غمار حرب عامة مع المغرب ،وكانت خشيتها كبيرة من تدخل دولي في قضيتها ، لذلك أبدت رغبتها في انهاء المشكلة مع السلطان وديا • ولم يكن السلطان اقل رغبة من الحكومة الاسبانية في/حسم النزاع وديا ،لذلك نجده يرد على الاحتجاج الاسباني باظهار اسفه لما حدث ثم راح يضغط على القبائل من أجل تهدئتها بل انه دخل ابتداء من يوم 29 فبراير 1894م مع الماريشال " مارتينيز كامبوس " [4] بمراكش في مفاوضات ،لكنها لم تسفرعن أى اتفاق ،نظرا لمطالب اسبانيا المجحفة التي تقضي بقمع حركات التمرد العامة بالقوة وتسليم الرهائن الى اسبانيا ،ومن جهة اخرى كان السلطان يخشى أن يعرض نفسه وأسرته لأخطار القبائل • وقد أعلن عجزه عن دفع الغرامة التي قدرت بخمسة وعشرين مليونا من الفرنكات [5] • دفع ذلك كله اسبانيا بالتلويح بخطر

=== في الحصول على ضمانات ولا مواجهة أطراف النزاع في مؤتمر دولي قد يطرح المسألة المغربية ككل وفي وقت لم تكن الظروف مواتية • — أنظر: -Miege; Le Maroc, t. IV; p. 157.

(1) فارس ،ص 107 • وكذلك : — ابن زيدان ،اتحاف ،ج 2 ،ص 331—349 •

(2) حركات ،ج 3 ،ص 273 • (3) صبحي ،ص 273 •

(4) كان "كامبوس" صحبة ثلاثين من الضباط والدبلوماسيين والتراجمة • — أنظر : — حركات ،ج 3 ،ص 274 • وكذلك : — صبحي ،ص 137—138 •

(5) -A.M.G. 3 H 8 , Maroc ,le 6/2/ 1894 •

الحرب اذا فشلت بعثة " كامبوس " كما جاء على لسان الأخير وكذلك على لسان سفراء اسبانيا في الخارج (1) .

لم يبق للسلطان امام تهديد اسبانيا وضغوط فرنسا غير الرضوخ والقبول بعقد اتفاقية بين الطرفين — وكان ذلك في 5 مارس 1894م — وهي الاتفاقية التي وصفها " كامبوس " بأنها مشرفة لاسبانيا وللسلطان ، ولكن الاتفاقية لم تكن في الواقع سوى شروط أملتها اسبانيا على المغرب (2) .

ومما لا شك فيه أن ما جاء في الاتفاقية ، زاد مالية المخزن ارتباكا وأتاح الفرصة للدول من أجل زيادة نفوذها على حساب الاستقلال الحقيقي للمغرب ، بالرغم مما ذاقه من محاولات السيطرة التي جربتها الدول — بصورة أو بأخرى — والتي سبق تناولها (3) . وزاد الامور حرجا و تعقيدا وفاة السلطان في 6 جوان 1894م ، وعقد البيعة لابنه عبد العزيز ، ولم يكن قد تجاوز السادسة عشر من عمره . وقد فتحت بذلك صفحة جديدة في تاريخ المغرب الاقصى كدولة تتداعى و تسير قدما في منزلق خطير كانت نهايته فرض الحماية الفرنسية عام 1912م .

---

(1) صبحي ، ص 148 .

(2) نفس المصدر ، ص 148 . وكذلك : . . Cambon, p.90 -

مما جاء في الاتفاقية : حددت قيمة الغرامة بخمسة ملايين "بيزيتا " نقدا وخمسة عشر مليونا أخرى تدفع على اقساط في مواعيد معينة و بفوائد قدرها 6% اذا تأخر الدفع . كما احتوت الاتفاقية على بعض الفقرات السرية ، منها منع السلطان من عقد اى قرض خارجي دون الاتفاق مع حكومة مدريد ، وكما صار للحكومة الاسبانية حق تعيين وكلاء لها في فاس ومراكش وحق رفض القضاة الذين يعينهم السلطان لينوبوا عنه في جهات الريف . — أنظر :

— صبحي ، ص 149 .

(3) حتى ايطاليا ، سجل السلطان استياءه ، في بداية 1893 ، من النتائج الضئيلة التي حققتها المكينة التي بنتها . وقد اضطر السلطان الى غلقها في بداية عام 1894م . — أنظر :

A.M.G. 3 H 8, Le Ct Schlumberger au ministère de la guerre (2ème bureau); Fez, le 01/09/1894.

كان المغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر و بخاصة في الثلث الأخير منه يمر بمرحلة حاسمة في تاريخه الحديث ،ذلك انه كان مهددا في أمنه على الصعيدين : الداخلي والخارجي • وصار مدعوا الى توفير أسباب الأمن والبقاء داخليا ،ودحر الأخطار المحدقة به خارجيا •

ولم يجد المغرب في استجابته لهذا التحدى غير سبيل الاصلاح والتحديث• وهكذا ، فقد تبين لنا من خلال الدراسة التي قمنا بها لكافة ميادين الحياة خلال عهد السلطان الحسن الأول (1873ـ1894م) محاولات للاصلاح والتجديد شملت مختلف هذه الميادين ولكن بنسب متفاوتة •

تعود محاولات الاصلاح الى قبيل منتصف القرن التاسع عشر عندما بدأ المغرب يشعر بالضعف الذى أدركه لا سيما بعد حرب ايسلي وتطوان ،فعمل على ادخال اصلاحات• وطبيعي أن يقلد المغلوب الغالب في ذلك •

جاءت الاصلاحات في المغرب متأخرة على غرار الدولة العثمانية ومصر وتونس • وقد توجت الاصلاحات في البلدين الاخيرين بفرض الحماية عليهما في مطلع الثمانينات ومع ذلك فلم يتمكن المغرب من مراجعة نفسه وحساباته مع الدول الاوروبية التي صارت تتطلع الى فرض الحماية عليه •

لقد صار السلطان بذكائه ودهائه ومعرفته الواسعة للبلاد وكأنه يدرك تلك النتيجة المؤلمة التي سينتهي اليها المغرب عام 1912م • لذلك عمل على مواصلة اصلاحات والده محمد ، فشملت جهازى المخزن المركزى والاقليمي وكذلك الجيش الذى أخذ من ذلك حصة الأسد •

كان المغرب في هذه الفترة يعاني من ضعف في وسائل المخزن الأمر الذى جعل بعض أقاليمه النائية أقل انضباطا من المناطق القريبة من مدن الدولة الرئيسية (فاس ،مكناس ، الرباط) • واذا كان الاوربيون يعزون ذلك الى تشبث المغرب بالنظم الاسلامية القديمة التي تجاوزها الزمن ـ على حد زعمهم ـ فان الواقع الذى انتهينا اليه يثبت غير ذلك ، لأن السلطة المخزنية وقتئذ لم تكن اسلامية في اجهزتها ولا هي وطنية بالمعنى الذى نفهمه

اليوم بل كانت سلطة قائمة على أساس قبلي شريفي اقطاعي . ومن هنا فأحكام المغربيين المتطاولة على السلطة المخزنية لا تجد مبرراتها سوى في انطلاقها من فكرة تعود في أساسها الى التمهيد للوجود الاوربي في المغرب أو تبرير تواجده بالنسبة للكتابات التي جاءت بعد فرض الحماية .

ومهما قيل عن الاصلاحات في عهد الحسن الاول ، فالمهم أنها لم تحقق الأهداف المرسومة لها نظرا لظروف الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي كان المجتمع المغربي يمر بها وقتئذ .

ان الدارس لمعضلة فشل الاصلاحات ليجد نفسه عاجزا عن فهم وادراك السر الكامن وراء الفشل قبل الوقوف على الظروف التي كان يحياها المجتمع المغربي .

فعلى صعيد البيئة الاجتماعية لعبت الروح الدينية السائدة دورا هاما في تلطيف عملية الاهتزاز والانتماءات عند العناصر المكونة للمجتمع المغربي من جهة ، ومن جهة ثانية في تخفيف تناقض المصالح في مجتمع تتنوع فيه الحياة الاجتماعية من بداوة وحضارة وغنى وفقر وأمية . ولم يكن التفاوت في الثروة والجاه من الفداحة بحيث كانت هناك طبقية في البيئة الاجتماعية كطبقة العلماء والتجار والوجهاء والاشراف ، ثم طبقة التجار الصغار والحرفيين والصناع ، ثم طبقة العامة من فلاحين ومأجورين وما الى ذلك . وكان لكل طبقة أعراف وعادات تقليدية محترمة في الغالب ولكن الأهم من ذلك ان هذه الطبقات لم تكن متصارعة بحدة ، لأن الروح الدينية كانت تحل في الغالب كل المشاكل عن طريق (القناعة) .

أما على صعيد الحياة الاقتصادية فقد كانت الزراعة عتيقة في أدواتها وتقنياتها ، وهو الأمر الذي يجعل الانتاج قليلا ومتوقفا على العوامل المناخية . وقد عرف المغرب في هذه الفترة بالذات صعوبة كبيرة تعود الى الجفاف خاصة بين 1873 و1884 .

وكانت الصناعة بدائية ومرتبطة بالانتاج الزراعي وكذلك التجارة . وقد تضرر الزراع والصناع على حد سواء بسبب الأزمات النقدية والمالية والتجارية الناتجة عن عوامل ظرفية طرأت على الحياة في المغرب من جراء النفوذ الاوربي في الحياة الاقتصادية بالذات .

واذا ما استثنينا — في المجال الثقافي — بعض الاشعاعات الخافتة والمستترة لجماعة قليلة من الناس كعبد الله السنوسي ، فان ظاهرة كانت سائدة في اوساط العلماء والفقهاء ، وهي تحريم كل اختراع ، ووقوفهم ضد كل تجديد . وقد كان التأليف — على سبيل المثال — في عهد الحسن الاول لكسب العيش ولمجاملة أصحاب النفوذ وكذلك الشأن بالنسبة للتعليم الذى لم يكن يساير العصر ولا كان قادرا على تقبل التجديد والاصلاح .

واضح اذن ان الظروف لم تكن مواتية للاصلاحات بل قل انها لم تهيأ لتقبل هذه الاصلاحات على مختلف الاصعدة .

ومن سوء حظ الاصلاحات ان حاجتها الى الاموال تزامنت مع تزايد الحاجة اليها في ميدان المطالب الداخلية كدفع مرتبات الجند واصلاح القصور وكذلك مطالب الدول الاجنبية وغيرها ...

ولما كانت هذه الموارد المالية يحصل عليها المخزن عن طريق الضرائب التي تؤخذ من العامة الذين كان الانتاج لا يكاد يكفي قوتهم ، فقد نشأت علاقة توتر ومعارضة ، الأمر الذى جعل المخزن يرى في الحملات العسكرية وسيلة فعالة لضمان استخلاص الضرائب .

وساهمت الحملات بذلك في زيادة نفور السكان من المخزن وتفشي ظاهرة تمرد القبائل ضد المخزن وممثليه . وزاد في تغذية التمرد قلة الانتاج وتدخل العنصر الاجنبي في اطار ما عرف بنظام الحماية وصار المجتمع المغربي في غليان ، وهو ما عبر عنه السلطان نفسه حين سئل عن حالة البلاد ، فقال : ((انها تغلي كالقدرة وأدعو الله أن لا تتفجر بين يداى (كذا) .))

ومما زاد الطين بلة تنافس الدول الاوروبية على المغرب وفي عهد الحسن الاول بالذات من خلال ممارسة مجموعة من الضغوط على الحدود مع فرنسا واسبانيا ، وكذلك الضغط على الصعيد الداخلي من خلال نظام الحماية حتى صار المغرب مهددا بفقدان استقلاله أو عاجزا — على الاقل — عن المحافظة عليه ، وهو ما عبر عنه السلطان نفسه في مطلع الثمانينات اذ خاطب وزير بريطانيا دماى ، قائلا : ((اذا كان لابد من فرض الحماية على المغرب فانني افضل الحماية البريطانية (كذا) .))

والحق أن التقاليد في المغرب كانت في هذا العهد تتحكم وتكاد تطغى على كل مجالات الحياة . كما كان الخطر الخارجي داهما . على أن أوضاع المغرب وقتئذ لم تكن ظاهرة خاصة به ولكنها كانت قائمة في معظم الاقطار الاسلامية .

بقي علينا أن لا نبخس الناس أشياءهم اذ من الانصاف أن نقول في النهاية بان السلطان الحسن الاول عمل جاهدا على توطيد نفوذ حكمه في الداخل واسترجاع هيبة الدولة في نظر الدول الاخرى من خلال محاولات الاصلاح ، وعرف ايضا كيف يعالج قضاياه ويقلل في معظم الاحيان من الازمات المالية التي وقع فيها غيره . واذا كان لم يوفق الا قليلا في مسعاه فقد وفق في جلب الاحترام والتقدير لشخصه وهو التقدير الذي تتفق عليه المصادر العربية والاوروبية على السواء .

واذا كان هناك من جديد في الموضوع فهو المساهمة في البحث والتحليل والترتيب والبناء التاريخي لأحداث المغرب الاقصى في الفترة المدروسة بالذات التي امتاز المغرب فيها بصراع مع نفسه ومع عالمه الخارجي في آن واحد .

ويبرز البحث من خلال جوانبه المتعددة الضعف الذي كان المغرب يعاني منه في ظل ظاهرة التقاليد التي كانت أقوى من كل محاولة للاستفاقة والنهوض من أجل البناء الحضاري والعودة الى صنع الاحداث التاريخية . ثم اذا كانت الابحاث السابقة قد عالجت في عمومها جانبا أو آخر من الموضوع فقد عولجت بأقلام أوروبية متحاملة او مغربية متعاطفة . وقد حاولنا نحن أن نسلك في هذا مسلكا وسطا . ومع ذلك فان الدراسة والاستنتاجات التي توصلنا اليها لا تعدو أن تكون الا مساهمة متواضعة في بحث لا يزال يحتاج الى مجهودات كبيرة من طرف الباحثين قصد اعطائه حقه من الدراسة والعمق .



1 - السلطان مولاي الحسن الأول
اخذت له هذه الصورة الفتوغرافية سنة 1876



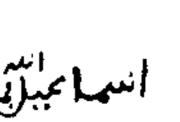
1 - طابع السلطان مولاي الحسن
لما كان خليفة



2 - إمضاء السلطان مولاي الحسن
لما كان خليفة



3 - أول طابع صغير للسلطان مولاي الحسن
بعد توليه الملك



4 - إمضاء الأمير مولاي إسماعيل بن محمد
الخليفة السلطاني بفاس



5 - إمضاء الحاجب الوزير
موسى بن أحمد البخاري



6 - إمضاء الوزير الصدر
محمد بن العربي الجامعي



7 - طابع القائد الشهير
أحمد بن مالك

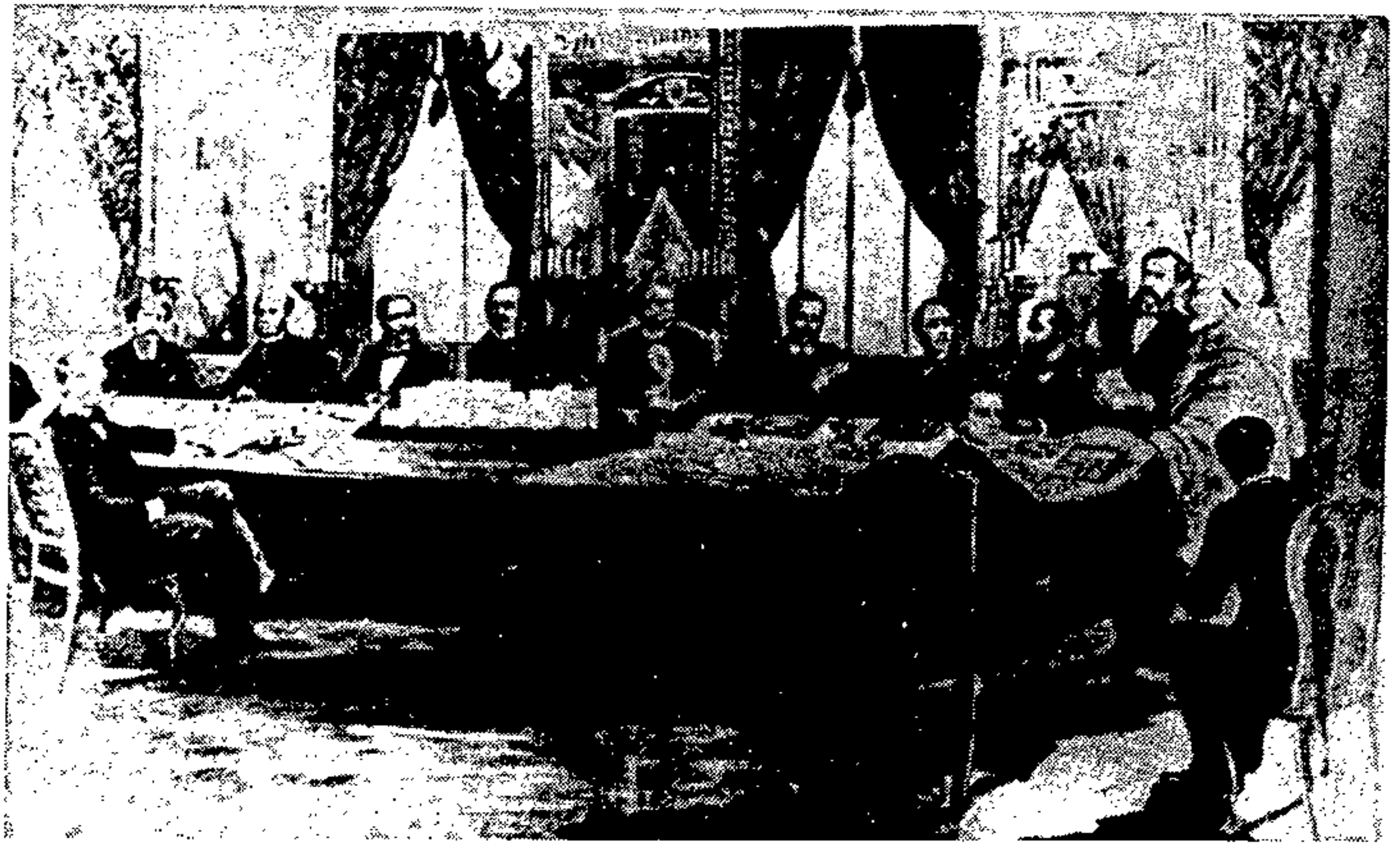
2 - نماذج من الأختام والامضاءات المخزنية.*

الوثائق (3)، ص 280 .



3 ـ السير جون هاي دريموند هاي وزير بريطانيا المفوض في المغرب
مثل بلده حوالي نصف قرن في المملكة المغربية ، وكان صديقا حميما للمغرب ومدافعا عن حقوقه ، وهو الذي اقنع حكومته بدعوة الدول الاجنبية لعقد مؤتمر دولي خارج المغرب للنظر في مشكـــلة الحماية القنصلية .

الوثائق (4) ، ص 19



4 - السيد محمد بركاش وزير الخارجية المغربية يخطب في الجلسة الافتتاحية لمؤتمر مدريد يوم 19 ماي سنة 1880
الوثائق (4) ، ص 96 – 2

جدول قناصل أهم الدول الأوروبية بطنجة
(1894 _ 1873)

بداية التمثيل	القناصل بطنجة	الدولة
1873	Tissot تيسو	فرنسا
1877	De Vernouillet دوفيرنويي	
1882	Ordêga أوردیقا	
1885	Féraud فيرو	
1889	Patenotre فاتنوتر	
1891	Aubigny اوبيني	
1845	Hay هاى	انكلترا
1887	Grëen قرين	
1892	Smith سميث	
1893	West Ridgeway ويست ريدجواى	
1877	Y Colom ايكولوم	اسبانيا
1882	Diosdado ديوسدادو	
1889	De Figueras دونيقاريس	
1894	Campos كامبوس	
1877	Weber ويبر	ألمانيا
1885	Testa تيستا	
1890	Tattenbach تاتنباخ	
1874	Scovasso سكوناسو	ايطاليا

جدول مسكمل للخرائط الملخصة لجولات السلطان
وحركاته من 1873م/ 1290هـ الى 1894م/1311هـ .

رقم الخريطة	رمز الجولة	رقم الجولة	السنة م/هـ	أماكن مرور الحركة
1	— — —	1	1290/1873	مراكش ، مكناس ، فاس
	- - -	2	1291/1874	فاس ،وجدة ، فـــاس
	—·—·—	3	1293/1876	فاس ، مراكش
	XXXXXX	4	1293/1876	مراكس ، فاس
	0000	5	1294/1876	فاس ،وجدة ، فاس
	· · · ·	6	1294/1877	فاس ، مراكش
2	— — —	7	1295/1878	مراكش ، فاس
	—·—·—	8	1298/1880	فاس ، مراكش
	- - - -	9	1299/1882	مراكش ، السوس
	XXXXXX	10	1300/1883	مراكش ،مكناس
	0000	11	1302/1885	مكناس ، مراكش
	· · · ·	12	1303/1886	مراكش ،السوس ،قوليمين مراكش .
3	— — —	13	1304/1887	مراكش ،الرحامنة ،مكناس
	—·—·—	14	1305/1887	مكناس ،بني مغيل ،مكناس
	- - - -	15	1305/1888	فاس ،تطوان ،طنجة ، مكناس ، فاس
	XXXXX	16	1307/1890	فاس ، مراكش
	0000	17	1309/1891	مراكش ،مكناس
	· · · ·	18	1310/1893	فاس ،تافيلالت ،مراكش
	———	19	1311/1894	مراكش نحو مكناس(وفاة السلطان .)

المصادر المعتمدة في الجداول :

- جدول قناصل أهم الدول الاوروبية بطنجة (1873-1894م) :

- عبد العزيز ابنعبد الله ، السفارة والسفراء بالمغرب عبر التاريخ ، الرباط ، 1985، ص 79 الى 140 .

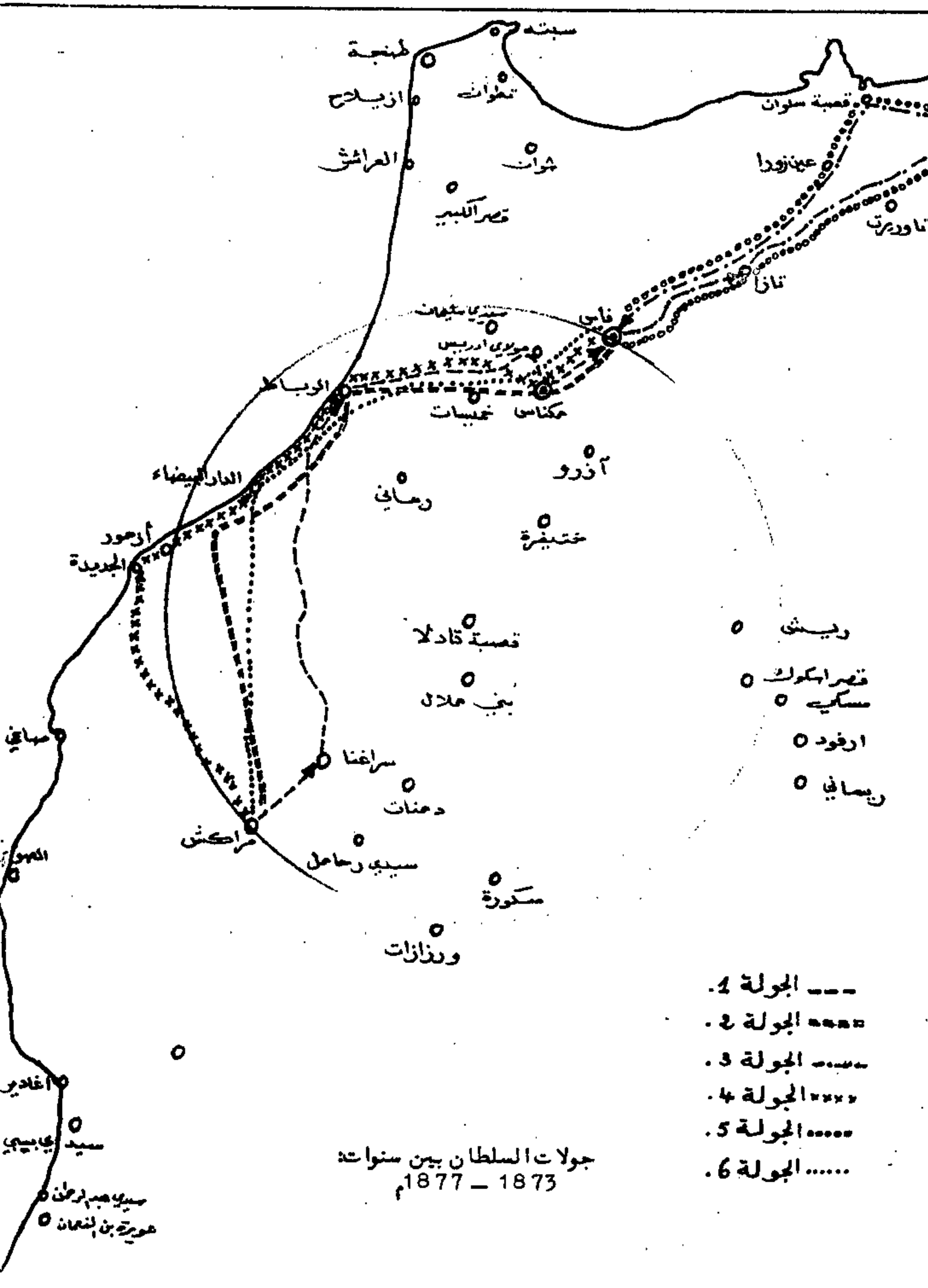
- الوثائق (4)، ص 29 الى 115 .

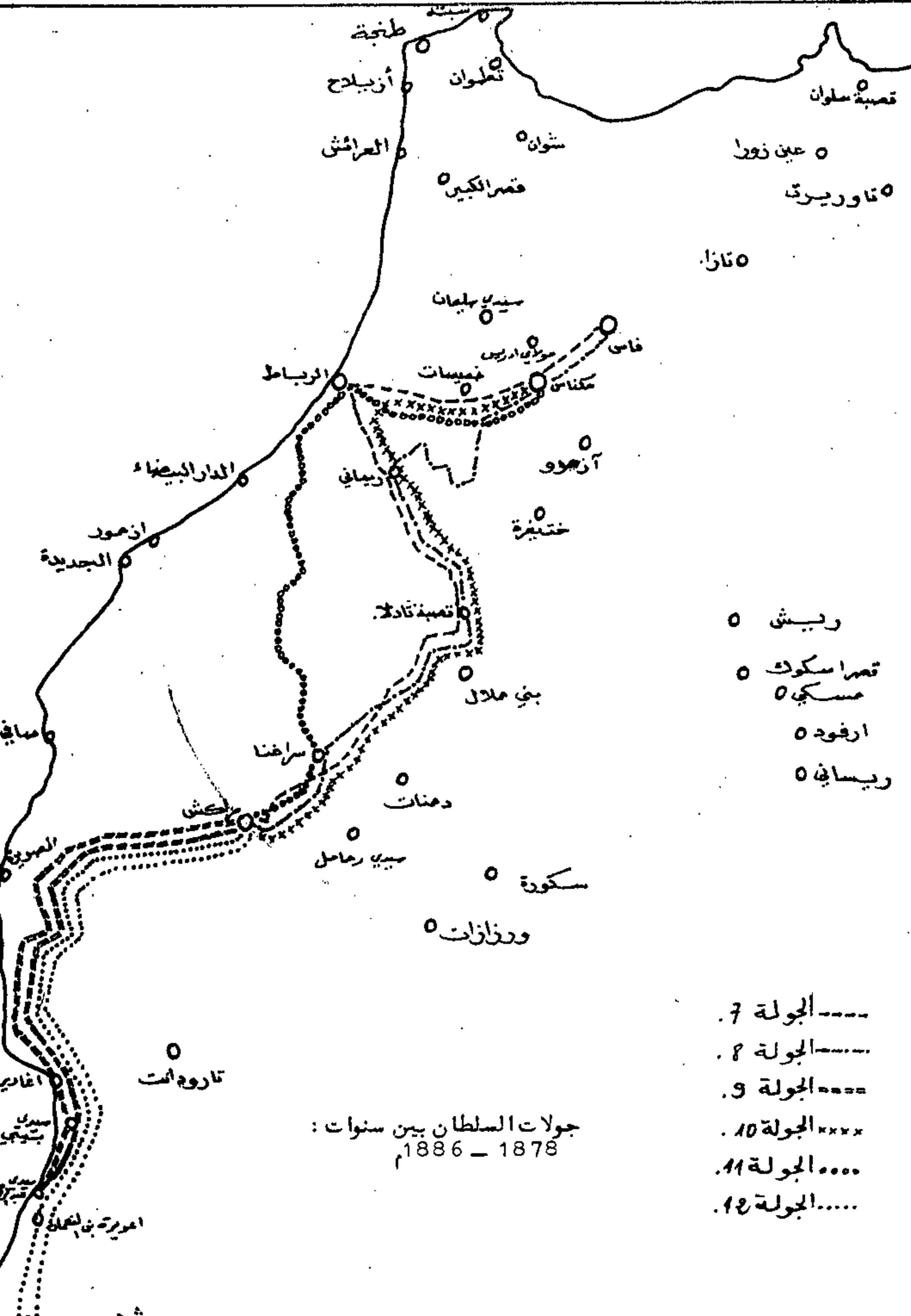
- جدول جولات السلطان وحركاته (من 1873م/1290 هـ الى 1894م/ 1311 هـ) :

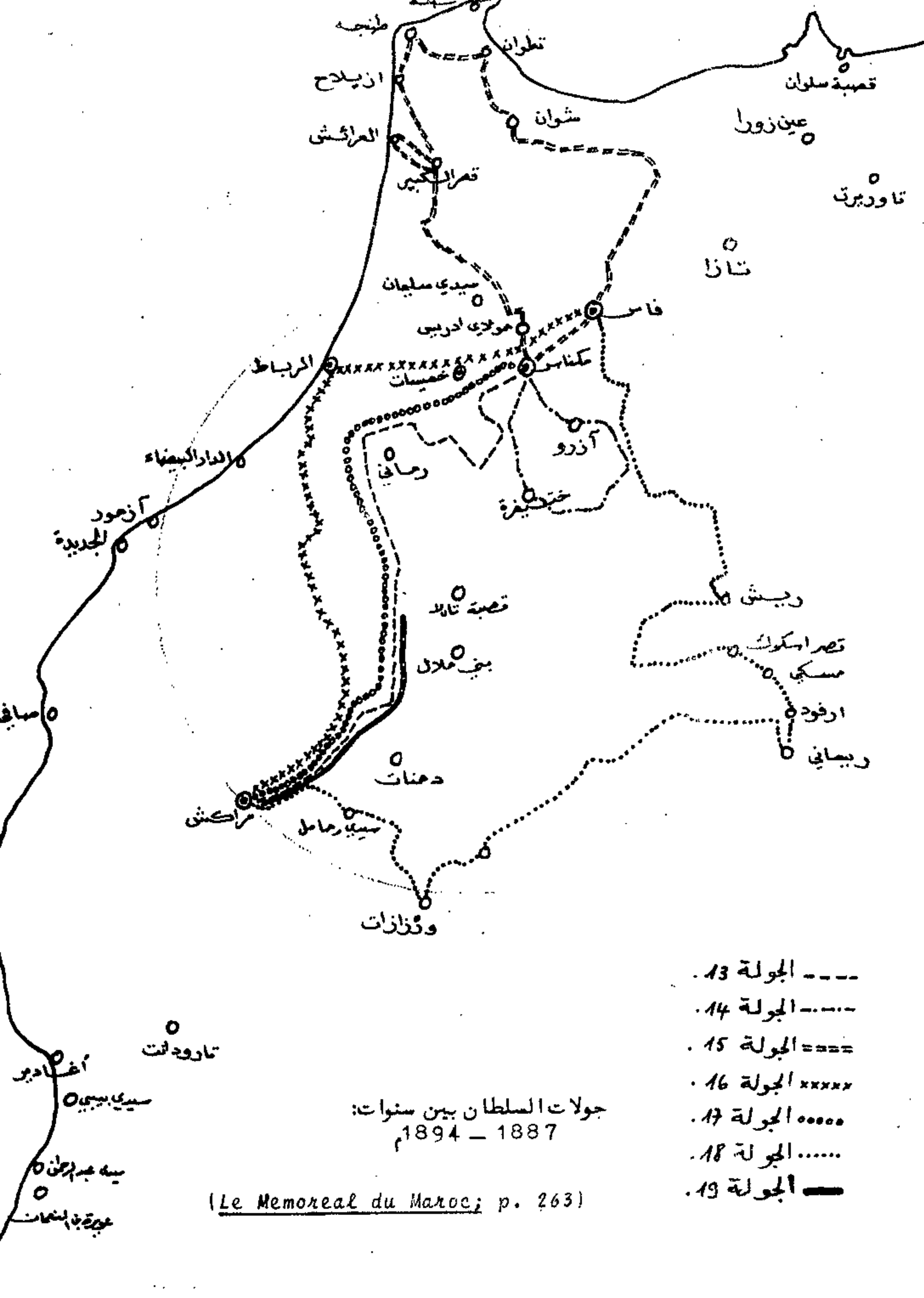
- احمد المكناسي مصطفى الكوشي ، وثائق لدراسة تاريخ المغرب : مراسلات مولاي الحسن الاول (1294-1311هـ/1877-1894م) ، القسم الاول ، مجموعة 1 ، المكتبة العامة والمستندات ، تطوان ، 1961، ص 95 الى 99 .

- ابن زيدان ، اتحاف ، ص 277-279 .

- الناصري ، الاستقصا ، ص 128 - 209 .


سبتة
طنجة
تطوان
ازيلا
العرائش
شوان
قصر الكبير
قصبة سلوان
عين زورا
تاوريرت
تازا
فاس
مكناس
خميسات
الرباط
الدار البيضاء
ازمور
الجديدة
آزرو
خنيفرة
قصبة تادلا
بني ملال
سراغنا
دمنات
مراكش
سيدي رحال
سكورة
ورزازات
ريش
ارفود
اغادير
الجولة 1
الجولة 2
الجولة 3
الجولة 4
الجولة 5
الجولة 6
جولات السلطان بين سنوات:
1873 _ 1877م

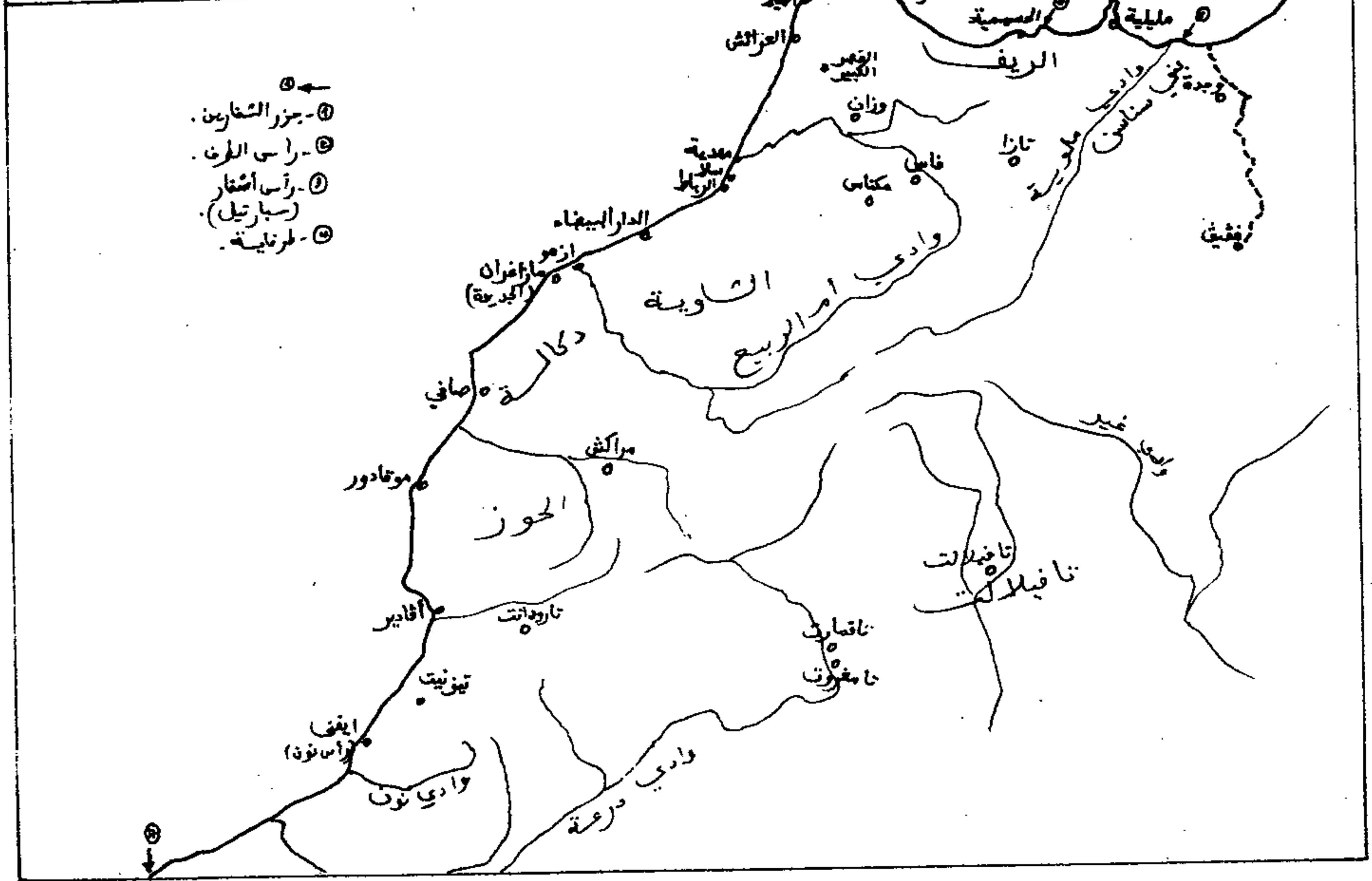

طنجة
تطوان
أزيلاح
العرائش
شوان
قصر الكبير
قصبة سلوان
عين زورا
تاوريرت
تازا
سيدي سليمان
فاس
مولاي ادريس
خميسات
مكناس
الرباط
آزرو
الدار البيضاء
ازمور
الجديدة
خنيفرة
قصبة تادلا
بني ملال
ريش
قصر اسكوك
مسكي
ارفود
ريساني
سراغنا
دمنات
مراكش
الصويرة
سيدي رحال
سكورة
ورزازات
تارودانت
اغادير
الجولة 7.
الجولة 8.
الجولة 9.
الجولة 10.
الجولة 11.
الجولة 12.
جولات السلطان بين سنوات :
1878 _ 1886م



جولات السلطان بين سنوات:
1887 _ 1894م

(Le Memoreal du Maroc; p. 263)

خريطة المغرب : الأقاليم والمدن .



معاهدة مسليلية (1894م/ 1311 هـ)

كانت اسبانيا من الدول الاوروبية التي أثارت متاعب المغرب في النصف الثاني من القرن 19م . وتعود هذه المتاعب في أسبابها الى الحدود التي تربط اسبانيا بالمغرب من خلال حامياتها . وقد وقعت أخطر مواجهة — بعد حرب ايسلي — بين الطرفين في حرب تطوان 1860م، التي انتهت بعقد معاهدة فرضت من خلالها اسبانيا على المغرب ضريبة ظلت تستنزف دخل موانئ المغرب الى غاية 1884م .

ومع نهاية حكم الحسن الاول، وبالتحديد خلال شهري اكتوبر ونوفمبر من عام 1893م وقعت أحداث مشابهة لحرب تطوان السالفة الذكر، بين قبائل الريف من جهة والقوات الاسبانية المتواجدة بمسليلية من جهة ثانية، ثم تطورت الأحداث وانتهت بمفاوضات طويلة انجرت عنها معاهدة وقعت يوم 5 مارس 1894م الموافق لـ 26 شعبان 1311 هـ.وكانت المعاهدة مخزنية للمغرب في شروطها ومضنية فيما فرضته عليه من ضريبة زادت في انهاك قواه . والحقيقة ان المعاهدة لم تبرم بارادة كلا الطرفين ولكنها مفروضة على المغرب .

وقد عثرنا على وثيقة المعاهدة بالفرنسية في ارشيف ما وراء البحار(A.O.M.) ضمن ملف رقم 39 30H . وفيما يلي تعريب النص الفرنسي للاتفاقية (بعد الديباجة) :

— <u>البند الأول</u>: ان جلالة سلطان المغرب، بموجب الشروط التي نص عليها البند السابع من اتفاقية السلام والصداقة الموقعة بين اسبانيا والمغرب في تطوان بتاريخ 26 افريل 1860م، والموافقة لتصريحات سفير جلالة ملكة اسبانيا المفوض فوق العادة أثناء مقابلته العلنية بمراكش يوم 31 جانفي من السنة الجارية(1894) ، يلتزم بمعاقبة أهل الريف، المتسببين في أحداث مسليلية خلال شهري اكتوبر

ونوفمبر 1893 . وسيلحق بهم العقاب في أقرب وقت ممكن، وأثناء الربيع المقبل على أكثر تقدير ، وذلك بموجب القوانين والاجراءات المغربية .

تفرض الجلالة الكاثوليكية على الجلالة الشريفة تطبيق عقوبات أكثر فعالية على أهل الريف اذا رأت بأن الاجراءات الاولى غير كافية ، دائما في اطار القوانين والاجراءات المغربية .

البند الثاني : تسعى الحكومتان اللتان يعنيهما أمر تعيين لجنة مكونة من ممثلين اسبان ومغاربة، لضمان التطبيق التام للبند الرابع من اتفاقية 24 أوت 1859م والشروط المتعلقة باختراق الحدود لساحة مليلية والمنطقة المحايدة بتاريخ 26 جوان 1862، ورسم المضلع الذى يحدد المنطقة المحايدة المتاخمة لأراضي المغرب ، من خلال وضع معالم من حجر في كل رأس زاوية ، وكذا قوالب من البناء تبعد عن بعضها ب 200م .

تعتبر المنطقة المحصورة بين المضلعين منطقة محايدة . ولن تكون هناك طرق سوى تلك التي تربط أراضي اسبانيا بأراضي المغرب والعكس، ولن يسمح بعد اليوم برعي المواشي ولا زراعة الاراضي .

لا يحق لجنود كل منطقة التوغل داخل المنطقة الاخرى فيما يرخص المرور لرعايا البلدان دون أن يسمح لهم حمل أسلحة.

يتم جلاء السكان القاطنين حاليا بالمنطقة المحايدة، يوم فاتح سبتمبر من السنة الجارية، وتهدم البيوت وتتلف المحصولات بواسطة أهلها في التاريخ نفسه ، باستثناء الاشجار المثمرة التي يمكن نقلها وغرسها خلال فترة تمتد الى 1 مارس 1895 .

البند الثالث : تحاط المقبرة وبقايا آثار مسجد سيدى ورياش بسور يترك له باب يمكّن السكان (المغاربة) من الدخول، دون أسلحة، لاداء الصلاة في هذا المكان الطاهر. لكن لا يسمح لهم بدفن موتاهم بالمقبرة من الآن فصاعدا .

يتولى قائد السلطان الذى يعينه البند الموالي أمر مفتاح الباب المذكور .

البند الرابع : يلتزم جلالة ملك المغرب بتنصيب قائد دائم بضواحي مليلية رفقة فرقة تتكون من 400 جندى تابعين للملك ، تفاديا لكل محاولة اعتداء جديدة من طرف أهل الريف وكذا لضمان تطبيق شروط البند (6) من معاهدة 26 ابريل 1860 .

تشكل أيضا قوات مغربية دائمة قرب الحاميات الاسبانية بالشفارين، وبينون دو فيليز والحسيمة ، طبقا لشروط المادة (6) من الاتفاقية المتعلقة بحدود مليلية التي تعود الى 24 اوت 1859 وكذا البند (5) من معاهدة السلام والصداقة بين اسبانيا والمغرب ، بتاريخ 26 ابريل 1860 . وتخضع هذه القوات بدورها لقائد مليلية . كما توضع قوات أخرى كافية تحت امرة قائد لنفس الغرض ، قرب الحدود مع سبتة .

البند الخامس: يعين موظف كبير من المملكة برتبة باشا يكلف بمنطقة مليلية و يحكم من منزلته الرفيعة مقدما ضمانات كافية من أجل المحافظة على علاقات حسنة ومنسجمة وصداقة مع سلطات مليلية .

تستشير الحكومة المغربية جلالة ملكة اسبانيا في أمر تعيين أو عزل القائد .

يقوم الباشا ، بحكم صلاحياته ، بالتفاهم مع حاكم مليلية لحل المسائل المتعلقة بالمطالب أو الاحتجاجات المحلية .

يعرض الخلاف بين السلطتين — في حالة حدوثه — على نائبي الدولتين في طنجة ، باستثناء المسائل ذات الاهمية الكبرى التي تتطلب تدخل الحكومتين مباشرة .

البند السادس: فيما يتعلق بالنفقات الواجب تسديدها للخزينة الاسبانية بسبب الاحداث الطارئة بضواحي مليلية في شهرى اكتوبر ونوفمبر 1893، فان الجلالة المغربية تتعهد بدفع مبلغ 4 ملا يين دورو للحكومة الاسبانية، أى ما قيمته 20 مليون بيزيتا ، وذلك على النحو الآتي :

— مليون دورو يدفع نقدا خلال 3 أشهر ابتداء من 5 مارس 1894، تاريخ

توقيع هذه المعاهدة الموافق لـ 26 شعبان 1311 هـ. على ان تنتهي المدة يوم 4 جوان من السنة الجارية .

اما الثلاثة ملايين دورو الباقية فتدفع خلال سبع سنوات ونصف على شكل أقساط نصف سنوية بمعدل 200.000 دورو.

يكون أداء المبلغ الاول بين 5 جوان و4 ديسمبر 1894، الثاني يوم 4 جوان 1895، الثالث يوم 4 ديسمبر 1895 ، الرابع يوم 4 جوان 1896 ، الخامس يوم 4 ديسمبر 1896 ، السادس يوم 4 جوان 1897، السابع يوم 7 (هكذا) ديسمبر 1897، الثامن يوم 4 جوان 1898، التاسع يوم 4 ديسمبر 1898، العاشر يوم 4 جوان 1899، الحادى عشر يوم 4 ديسمبر 1899، الثاني عشر يوم 4 جوان 1900، الثالث عشر يوم 4 ديسمبر 1900، الرابع عشر يوم 4 جوان 1901، الخامس عشر والاخير يوم 4 ديسمبر 1901 .

تدفع المبالغ الآنفة في مينائي طنجة مازاغران (1) في التواريخ المذكورة وتسلم لمندوب اسبانيا المؤتمن في هذا الشأن بالذات من طرف حكومته . يتم الدفع بالعملة الجارية في اسبانيا وكذا بالدورو المعروف ايضا بالايزابيلي باستثناء انصاف انصاف الدورو وبيزيتا الفيليبيين .

تعتبر جلالة ملكة اسبانيا ان وعد السلطان كاف كضمان للدفع وفي الآجال المحددة .

تنتفع الحكومة الاسبانية بفائدة تقدر بنسبة 6٪ من المبلغ اذا تجاوزت الحكومة المغربية الآجال المحددة لدفعه .

اذا تجاوز الأجل بسنة يمكن لاسبانيا أن تتدخل في جمارك الموانئ المغربية الاربعة وهي طنجة والدار البيضاء ومازاغران وموقادور (2) ، ولها الحرية في أن لا

---

(1) مدينة الجديدة .

(2) مدينة الصويرة .

تمارس هذا الحق .

واذا افترضنا ان المبلغ المتفق عليه وهو أربعة ملا يين دورو ، لم يسدد جملة ، فلا يحق للحكومة المغربية أن تقترض من حكومات البلدان الاخرى ولا من خواص يطلبون كضمان مداخيل جمارك الموانئ المغربية .

اذا رغبت حكومة جلالة السلطان المغربي الحصول على قرض للتسديد في الآجال المحددة ، فعليها أن تتفق في ذلك مع الحكومة الاسبانية .

تحتفظ الحكومة المغربية بحق الدفع المسبق ، أى قبل الآجال المحددة اذا كانت ترى مصلحتها في ذلك .

البند السابع : تتم المصادقة على هذه الاتفاقية من طرف جلالة ملكة اسبانيا وجلالة ملك المغرب ، و يتبادل المصادقة خلال الستين يوما القادمة .

اثباتا لذلك ، فان المتفاوضين الموقعين أدناه ابرما هذه المعاهدة في عدة نسخ ووضعا عليها خاتمهم ووقعاها بمدينة مراكش يوم 5 مارس 1894 م الموافق لـ 26 شعبان من السنة الهجرية (1) .

ارسينيو مارتينيز دو كامبوس .

محمد المفضل بن محمد غرنيط .

---

(1) الموافق لـ 1311 هـ.

البيبليوغرافية

الوثـائـق المـخطوطـة

تعد الوثائق المصدر المباشر والأساسي للكتابة التاريخية . فهي التي تساعد المؤرخ على اعادة نسج وتركيب الأحداث تركيبا يقربه ما أمكن من الحقيقة التاريخية ، بعيدا عن الظن والاحتمال ولوك ما في الكتب . والحق أن المخلفات المادية التي تركتها الوقائع المتعلقة بموضوعنا كثيرة ومتنوعة . ولكن الصعوبة تكمن في تعدد أماكن تواجد هذه المخلفات ، كالمغرب الأقصى (الرباط ، تطوان . . .) وفرنسا (قصر فانسين، ايكس – آن – بروفانس) ، وكذلك اسبانيا وانكلترا وألمانيا على الأقل هذا من جهة ، ومن جهة أخرى صعوبة الوصول اليها والتفرغ لاستغلالها ، اذا أردنا انجاز موضوع كامل مستكامل .

ومهما يكن الأمر فقد وقفت مثل هذه الصعوبات وغيرها في طريقنا ، الأمر الذى حال بيننا وبين تحقيق الافضل من هذا البحث . وها نحن نورد مادة البحث فيما يلي :

أ – وثائق أرشيف وزارة الحربية الفرنسية بباريس (A. M. G.) :

تأتي هذه الوثائق المتعلقة بالمغرب تحت عنوان : " العلاقات الفرنسية، البعثة العسكرية ، العلاقات والحدود الجزائرية المغربية بين 1805و1902" . ويلي العنوان سلسلة أرقام مرفوقة بعناوين فرعية والفترة الزمنية المناسبة . وقد مكنتنا الارقام من طلب محافظ انتقينا منها مجموعة لا بأس بها من الوثائق نقتصر هنا على ما استعملناه منها في البحث :

- 3 H 2, Maroc, le 1er Avril 1879, Erckmann, Lieutenant au 33 ème d'artillerie

يحتوى التقرير على معلومات طبوغرافية عن مدينة مراكش وضواحيها وأحيائها والنظام بداخلها ونظام الدفاع عنها . كما نجد ضمن التقرير معلومات عن الجيش المغربي كالفرق والاسلحة وعدد الجنود و نظام الانخراط والمرتبات واللباس والمؤونة والتنظيم العام ونفسية الجنود . وتتألف الوثيقة من 13 صفحة .

- 3 H 2, Septembre 1898.
  La mission militaire française au Maroc, à l'Etat Major de l'armée (2eme bureau).

وثيقة في صفحتين، تؤرخ للبعثة العسكرية الفرنسية بالمغرب منذ نشأتها عام 1877 الى عام 1898م .

- 3 H 3, 1883, Congrégation religieuse

وثيقة تتناول مبادئ التصوف كاعطاء الورد ، والطرق الصوفية كسيدى عبد القادر الجيلالي ، ودرقاوة، والسنوسية ، والعيساوية ، وجمعية المخزن . يقع التقرير في خمس صفحات.

- 3 H 3, Lalla Marnia, le 14 Juin 1882.
  - Rapport de la mission militaire française envoyé au Maroc.
  - Chapitre IV - Agriculture- Commerce et Industrie- Système monétaire- Organisation des douanes- Maison de commerce françaises - Consults et agents consulaires de notre nation.

يقع التقرير في 184 صفحة وهو بخط اليد أصلا

3 H 4, Meknès, Le 20 Aout 1884.
Le Commandant le Vallois, chef de la mission militaire française au Maroc à Monsieur le Ministre de la guerre (Etat Major général - 2eme bureau).

رسالة في أربع صفحات تتناول موضوع طلب السلطان الحسن الأول لـ25 مهندسا عسكريا فرنسيا .

- 3 H 5, Tanger, le 8 Aout 1887.

تحتوى الوثيقة ـ التي تقع في أربع صفحات مكتوبة أصلا بالآلة الراقنة ـ على معلومات تتعلق بتنقلات شريف وزان وكذلك تسليح اسبانيا وبريطانيا لبعض القبائل المغربية .

-3 H 5, Madrid, le 9 Avril 1888.
Le général;Campruby, Commandant la demi-brigade.

رسالة من جنرال اسباني الى شخصية فرنسية يطلعه فيها على الوضعية الحرجة التي يمر بها السلطان الحسن و يحذره من المخاطر التي قد تنجر عن هذه الوضعية وبأن اسبانيا سوف لن تتخلى عندئذ عن حقوقها في المغرب .

-3 H 5, Paris, le 7Mai 1888.
M. Féraud Ministre de France à Tanger, à M.Goblet, Ministre des Affaires étrangères.

تتضمن الوثيقة معلومات عن الحالة العامة في المغرب وخاصة ما يتعلق باعلان شريف درقاوة الجهاد في سبيل الله ضد السلطان.

-3 H 5, Berlin, le 14 Mars 1889.

تقرير عن اتصالات التحالف بين المغرب وألمانيا في حالة قيام حرب مع دول أوربية .

-3 H 6, Paris, le 14 Juin 1890.

مراسلة حول اهتمام السلطان الحسن الاول بمصنع الاسلحة الذى بناه الايطاليون بفاس ومعلومات أخرى .

-3 H 6, 23 Ramadan 1308 (2/05/1891).
-Sid Mohammed Gharnit, Ministre des Affaires étrangères de S. M. chérifienne à M. Patenôtre, Ministre de France au Maroc.

حول مضايقة البعثة العسكرية الفرنسية المتواجدة بالمغرب للسلطان الحسن الاول وكذلك لباقي ممثلي الدول الاوربية الذين صارت دولهم تتطلع بدورها الى ارسال بعثات مماثلة .

-3 H 6, Fez, Le 1er Février 1892.
-Le Commandant Canchemez, Chef de la mission militaire française au Maroc à Mer le Ministre de la guerre 2eme bureau (Rapport sur l'armée Marocaine).

تقرير مفصل عن الجيش المغربي يقع في 22 صفحة .

-3 H 7, Tanger le 20 Février 1893,
-Le Commandant d'Aubrigny, Ministre de France à Tanger à Mer Devalle Ministre des Affaires Etrangères à Paris.

تقرير في عشر صفحات يتضمن معلومات عن البعثة العسكرية الفرنسية التي كانت محل نزاع ومنافسة من طرف اسبانيا وانكلترا وغيرهماه وكذلك معلومات عن التطورات في المغرب .

-3 H 6, Fez, le 2 Mars 1892.

_Le Commandant Canchemez, Chef de la mission militaire française au Maroc à M. le Ministre de la guerre, 2eme bureau.

تقرير في 13 صفحة عن التنظيم الاداري للمغرب كالجهاز المخزني والادارة الاقليمية .

- 3 H 8, Maroc, le 6 Février 1894.

تتضمن الوثيقة معلومات مفادها ان السلطان لا يرغب في ردع القبائل المهاجمة للحاميات الاسبانية .

- 3 H 8, Fez, le 1er Septembre 1894.

-Le Commandant Schlumberger au Ministère de la guerre (2eme bureau), rapport mensuel du mois d'Aout .

معلومات متنوعة .

ب - وثائق أرشيف ما وراء البحار - ايكس آن بروفانس

(A. O. M.)

تكمن أهمية هذه الوثائق في انها تعكس لنا العلاقات بين المخزن من جهة والسلطة الاستعمارية الفرنسية بالجزائر، ولا يخرج محتوى الوثائق عن نطاق الاساليب التي عالج بها الفرنسيون أحداث الحدود وهذا في اطار تثبيت أقدامهم في الجزائر كمرحلة أولى، ثم التمهيد لابتلاع المغرب تدريجيا . والوثائق في عمومها عبارة عن تقارير ومراسلات ترد على السلطات الفرنسية في الجزائر حول أوضاع سكان المغرب المجاورين للحدود، وكذلك مراسلات بين السلطة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر والمخزن او مع الولاة المغاربة على الحدود علاوة على بعض الاتفاقيات .

وفيما يلي الوثائق التي استعملناها في موضوعنا :

19 ذو الحجة 1292 هـ (15 جانفي 1876م) - 30 H 8

رسالة من السلطان الى سيدى الحاج عبد السلام شريف وزان في شأن اولاد سيدى الشيخ وتوارد شكاوى فرنسا منهم .

- *30 H 15 - Tanger, le 10 Septembre 1844.*
  - *Traité de Tanger, convention conclue à Tanger, le 10 Septembre 1844 pour régler les differends entre la France et le Maroc.*

- المعاهدة الموقعة بلالة مغنية بين الدولتين الفرنسوية 15 والمغربية يوم 18 مارس 1845م .

ـ كذلك النص الفرنسي للاتفاقية .

ـ خريطة المغرب تعود الى عام 1843م - 30 H 19 -

ـ 6 ربيع الثاني 1294 هـ(1877م) - 30 H 32 -

نسخة من كبير وزراء السلطان " سي موسى " الى اولاد سيدى الشيخ وكبيرهم السيد قدور بن حمزة يخبرهم بشكوى الفرنسيين منهم و يحذرهم من مغبة الرجوع الى ذلك .

ـ11 جمادى الاول 1297 هـ(1880م) - 30 H 30 -

ـ رسالة من مولاى احمد العربي البلغيثي الى الوالي الفرنسي العام بالجزائر تتعلق بما ورد من رسائل الى قبائل الصحراء حول سي حمزة و تأدية السلطان" لواجبه" في موضوع ما اتفق عليه بين الدولتين مطمئنا اياه بردع سي حمزة وأتباعه .

- 30 H30 - Alger, le 16/05/1880.

ـ رسالة شكر من طرف الوالي الفرنسي العام بالجزائر الى السيد احمد البلغيثي و تقديم الهدايا مكافأة له على قيامه" بالواجب " في النزاعات على الحدود .

ـ 6 ربيع الثاني 1294 هـ(1877م) - 30 H 33 -

ـ رسالة من الوزير " سي موسى " الى ذوى منيع في وادى غير يناشدهم بالامتناع عن مساندة اولاد سيدى الشيخ .

فاتح رجب 1305 هـ(1888م) - 30 H 34 -

ـ رسالة من محمد غرنيط الى وزير فرنسا " فيرو" حول تحركات الدرقاويين وعودتهم الى الدعوة للجهاد .

- 30 H 39 - *Convention entre l'Espagne et le Maroc*

(معاهدة مليلية 1894 م) .

جـ — وثائق أرشيف الخزانة الحسنية بالقصر الملكي بالرباط

تعد هذه الخزانة من أغنى الخزائن في ميدان الوثائق التي لها علاقة مباشرة بموضوعنا، اذ تحتوى على 750 محفظة لا تزال على الرفوف تنتظر التصنيف والترتيب والتنظيم . وهنا تكمن صعوبة استغلال هذه الوثائق في الموضوع اذ تتطلب من الباحث وقتا كبيرا واقامة طويلة . ولم نقض في هذه الخزانة اكثر من اسبوعين وهو ما لم يمكننا من العودة الا بمجموعة قليلة من الوثائق . ومع ذلك لم نستعملها في هذا الموضوع ، لأننا وجدنا ما يعوضها في وثائق مطبوعة سنعرض لها في الفقرة الموالية وهي منتقاة من نفس النوع من الوثائق ومن غيرها اذ هناك ما يكملها كوثائق خزانة تطوان التي تدور مواضيعها حول العلاقات الخارجية للمغرب في الفترة التي تعنينا ، هذا علاوة على وثائق لا تزال بأيدى الخاصة ممن كانت لهم علاقة بالمخزن وقتذاك .

الوثائق المطبوعة

ان الزيارة التي قمنا بها الى المغرب مكتنا من الحصول والاستفادة من وثائق رسمية هامة ونعني بها تلك التي قامت بنشرها مديرية الوثائق الملكية . وكانت استفادتنا منها على النحو الآتي :

الوثائق (3) : اصدارات مديرية الوثائق الملكية، المطبعة الملكية، الرباط 1976 .

- صورة لمجموعة من الطوابع والامضاءات ضمنها :

طابع السلطان الحسن الاول لما كان خليفة .
امضاء السلطان الحسن الاول لما كان خليفة .
طابع صغير للسلطان بعد توليه الحكم .
امضاء الحاجب الوزير موسى بن احمد البخارى . (أنظر : ص 280) .

- و : 409: - 25 شعبان عام 1290 هـ (18 اكتوبر 1873م) .
- رسالة من وزير الحرب عبد الله بن احمد البخارى الى القائد بوشتا بن البغدادى يشيد فيها بموقفه من فتنة فاس.

- و : 453: - 20 شعبان عام 1290 هـ
- رسالة من السلطان مولاى الحسن الاول الى امين الامناء محمد بن المدني بنيس تتعلق بمطالب تاجر انكليزى بالصويرة في اداء دين عليه للمخزن .

- و : 488: - 4 ذى الحجة عام 1294 هـ
- رسالة من الحاجب الوزير موسى بن احمد البخارى الى باشا فاس تتعلق بتعيين السيد عبد الله بن سودة خطيبا للسلطان .

ـ و : 475 : ـ 25 رجب عام 1292 هـ

ـ رسالة السلطان مولاى الحسن الاول الى باشا طنجة الجيلالي بن حمو البخارى تتعلق باعداد 15 طالبا مغربيا يتوجهون الى اوربا لتعلم الهندسة والفنون الحربية .

ـ و : 493 : ـ 27 محرم 1296 هـ

ـ رسالة من محمد بن عبد الله بن احمد البخارى الى اخيه الحاج المختار تتعلق بوفاة الحاجب الوزير موسى بن احمد البخارى .

الوثائق (4) : اصدارات مديرية الوثائق الملكية ، المطبعة الملكية، الرباط 1977 .

ـ عبد الوهاب بنمنصور ، الحماية القنصلية (بحث) ، ص 5 ـ 121 .

ـ و : 518 : ـ 8 ربيع الثاني 1279 هـ(3 اكتوبر 1862م)

ـ رسالة من النائب السلطاني السيد محمد بركاش الى جلالة السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن تتعلق باحتيال المستوطنين الاجانب لادخال السلع الى المغرب دون اداء رسوم جمركية .

ـ و : 576 : ـ 8 جمادى الثانية عام 1286 هـ

ـ رسالة من عامل مراكش ابراهيم الجراوى الى وزير الخارجية السيد محمد بركاش تتعلق بادعاءات كاذبة لتجار فرنسيين بمراكش .

ـ و : 584 : ـ 10 صفر 1289 هـ(19 ابريل 1872م)

ـ رسالة من السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن الى وزير الخارجية السيد محمد بركاش تتعلق بحضور القناصل ونوابهم في مجالس الاحكام الشرعية .

ـ و : 585 : ـ 28 ربيع الثاني عام 1289 هـ(5 يوليوز 1872م)

— رسالة من عامل تطوان احمد الخضر السلوى الى وزير الشؤون الخارجية السيد محمد بركاش في شأن تدخل القناصل فيما لا يعنيهم .

— و : 590 : — 29 جمادى الاخير (كذا) 1293 هـ

— رسالة من السلطان مولاى الحسن الاول الى نائبه في الشؤون الخارجية السيد محمد بركاش تتعلق بتمادى القنصل الامريكي في طنجة على منح حماية دولته للرعايا المغاربة بدون حق .

— و : 592 : — 3 جمادى الثانية 1294 هـ (15 يونيو 1877م)

— رسالة من السلطان مولاى الحسن الاول الى وزير الشؤون الخارجية السيد محمد بركاش تتعلق باغراء محمي بالاجانب عشيرته على الامتناع من القيام بالواجبات الوطنية .

— و : 611 : — 11 رمضان 1296 هـ (29 غشت 1879م)

— رسالة من القائد محمد بن عبد السلام السفياني الى وزير الشؤون الخارجية السيد محمد بركاش تتعلق بامتناع دوار كامل من اداء الضرائب لمجرد مرور سفير انكلترا بهم .

الوثائق (5) : اصدارات مديرية الوثائق الملكية، المطبعة الملكية، الرباط، 1981 .

— و : 637 : — 12 جمادى الاولى 1294 هـ (25 ماى 1877م)

— رسالة من السلطان مولاى الحسن الاول الى نائبه في الشؤون الخارجية السيد محمد بركاش يأمره فيها بالجد في معالجة مشكلة الحماية القنصلية .

— و : 641 : — 14 محرم 1295 هـ (18 يناير 1878م)

— رسالة من السلطان مولاى الحسن الاول الى نائبه في الشؤون الخارجية السيد محمد بركاش تتعلق بالخلاف بين عامل طنجة والقائم بأعمال المفوضية الفرنسية حول معاقبة لصوص محتمين .

— و : 644 : — 15 ربيع الاول عام 1295 هـ (19 مارس 1878م)

ـ رسالة من السلطان مولاى الحسن الاول الى نائب الشؤون الخارجية السيد محمد بركاش تتعلق بنسبة ابل القوافل الى الاجانب والمحميين فرارا من أداء الضرائب .

ـ و : 645 ـ 16 ربيع الاول 1295 هـ(20 مارس 1878م)
رسالة من الحاجب السلطاني موسى بن احمد البخارى الى النائب السلطاني في الشؤون الخارجية السيد محمد بركاش تتعلق بنسبة ابل الحمالين المغاربة الى الاجانب والمحميين فرارا من أداء ضريبة الحافر.

ـ و : 646 : ـ 6 جمادى الاولى عام 1295 هـ(9 ماى 1878م)
ـ رسالة استدعاء من النائب السلطاني في الشؤون الخارجية السيد محمد بركاش الى ممثلي الدول الاجنبية المعتمدين بالمغرب لعقد اجتماع .

ـ و : 651 : ـ 16 رمضان 1295 هـ(13 اكتوبر 1878م)
ـ جواب النائب السلطاني في الشؤون الخارجية السيد محمد بركاش عن رسالة الحاجب السلطاني موسى بن احمد البخارى المتعلقة باحصاء المحميين .

ـ و : 652 : ـ 14 شوال 1295 هـ
ـ جواب الحاجب السلطاني موسى بن احمد البخارى عن رسالة عامل فاس عبد الله بن احمد البخارى المتعلقة بامتناع التجار المحميين من أداء رسوم مفروضة على السلع ووزنها بالميزان الرسمي .

ـ و : 654 : ـ 4 ذى القعدة 1295 هـ(30 اكتوبر 1878م)
ـ جواب النائب السلطاني موسى بن احمد البخارى المتعلقة بكتب القناصل ونوابهم الى عمال البوادى .

ـ و : 655 : ـ 14 محرم 1296 هـ(8 يناير 1879م)
ـ جواب الحاجب السلطاني موسى بن احمد البخاري عن رسالة النائب السلطاني في الشؤون الخارجية السيد محمد بركاش المتعلقة بتجنيس المغاربة بجنسيات دول أجنبية .

ـ و : 673 :
- *Tanger, le 19 Juillet 1879*
- *Procès verbal de la séance tenue chez Sid Mohammed Vargas (Bargach), Ministre des Affaires Etrangères de sa Majeste Sherifienne, a Tanger le 19 Juillet 1879.*

ـ تعريب المحضر السابق مباشرة(ص 222 الى 236) .

ـ و : 674 :
- *Extrait des differents Procès-Verbaux des séances tenues par les représentants étrangers pendant l'année 1879 au sujet de la protection irrégulière accordée par les officiers diplomatiques et consulaires au Maroc.*

ـ الوثيقة معربة ، ص 263 الى 287.

ـ و : 698 : ـ 19 ذى القعدة 1296 هـ(4 نوفمبر 1879م)
ـ جواب السلطان مولاى الحسن عن رسالة نائبه في الشؤون الخارجية السيد محمد بركاش المتعلقة بالمساعي المبذولة لنقل المذاكرات الجارية بشأن الحماية القنصلية من طنجة الى مدريد .

ـ و : 713 : ـ 7 ذو الحجة 1296 هـ(22 نوفمبر 1879م)
ـ رسالة من وزير الخارجية البريطانية المستر سالزبورى الـــى وزير بريطانيا العظمى المفوض بفرنسا مستر ف. او. ادامز تتعلق باهتمام المنظمات اليهودية في العالم بأحوال اليهود المغاربة .

- Foreign office, Décembre 3, 1879 : 721 : و ـ
- The Marquis of Salisb_ury to sir A. Paget.

ـ رسالة من وزير الخارجية البريطانية المستر سالزبوری الى سفير بريطانيا العظمى بايطاليا سير ا. باجيت .

ـ و : 732 : ـ 26 ديسمبر 1879م (12 محرم 1297 هـ)

ـ رسالة من سفير بريطانيا العظمى بايطاليا سير ا. باجيت الى وزير الخارجية البريطاني تتعلق بموافقة الحكومة الايطالية على عقد مؤتمر مدريد للنظر في مشكلة الحماية القنصليـــــة بالمغرب .

الكتـب المخطوطـة

تتوفر الخزانة العامة والخزانة الحسنية بالرباط على مخطوطات عديدة تعود الى الفترة المدروسة وهي تعالج مواضيع شتى تتعلق بالحياة الثقافية والسياسية وكذلك التراجم والوفيات والرحلات وغيرها . وقد وقفنا على بعضها لكن في فترة متأخرة من البحث .

ومن المخطوطات التي طالعناها :

1 — ابن الحسن علي السوسي السملالي ، منتهى النقول ومشتهى العقول ، أو ما يجب أن يقال من الاقوال ولا يقام به الا بعد التوازن في المقال توازن المثقال بالمثقال .

والمخطوط السالف الذكر عبارة عن رحلة قامت بها بعثة موفدة من قبل السلطان الحسن الاول الى حدود الجزائر لتسوية مشكلة الحدود المغربية الجزائرية مع فرنسا ، وكان ذلك حوالي سنة 1882 م .

2 — السباعي محمد بن ابراهيم المراكشي ، البستان الجامع لكل نوع حسن وفن مستحسن في عد بعض مآثر السلطان مولاى الحسن .

والمخطوط الآنف الذكر يتناول ترجمة وسيرة السلطان الحسن الاول .

وقد تبين لنا من خلال مطالعة هذين المخطوطين وتصفح البعض الآخر أن الغرض من تأليفهما هو كسب العيش والمجاملة . لكن ذلك لا ينقص من الفوائد التي يحتويان عليها والتي قد لا نجدها في غير المخطوطات .

نبذة عن المصادر المعاصرة المطبوعة

قمنا بتقسيم المصادر المعاصرة المطبوعة والقريبة من فترة البحث الى كتب ومقالات ثم صنفناها حسب اللغة المكتوبة بها الى عربية وأجنبية.

ففيما يتعلق بالمصادر العربية المطبوعة ، يمكن اعتبار كتاب الاستقصا المصدر الاساسي الوحيد في الموضوع مع ما يحمله من سلبيات كالمجاملة والتحيز أحيانا وسرد المعلومات حسب الطريقة القديمة (الحوليات) .

أما المصادر الاجنبية فهي من جهة لا تشمل سوى اشارات متفرقة عن الموضوع ومن جهة أخرى فانها تدخل في اطار الكتابات غير المتوازنة في معلوماتها كالممهدة للهيمنة الاوربية و تبرير ضرورة فرض الحماية مع بعض الاستثناءات مثل كتاب " Kerdec " . وهذا الحكم يصدق ربما اكثر على المقالات المعاصرة التي حررها نواب الدول (القناصل والوزراء) ك" Ordéga " ، أو أعضاء البعثات العسكرية التي جاءت الى المغرب لغرض التجسس ك" Erckmann " . ومن هنا فقد كانت كتاباتهم متحاملة في معلوماتها مع بعض الاستثناءات ، الامر الذى جعل موقفنا منها متحفظا الى حد ما .

نبذة عن المراجع المطبوعة المتأخرة
عن فترة البحث

أهم مراجع هذا الباب هي الكتب التاريخية والدراسات المتخصصة ، وقد قسمتها على نحو ما سلف ، حسب لغتها .

اما المراجع العربية فيمكن تقسيمها الى قسمين رئيسيين:

مراجع مغربية تعود الى فترة الثلاثينات والاربعينات من هذا القرن، وهي تدخل في اطار احياء تاريخ المغرب الاقصى في فترة امتازت بالبحث عن الذات والتحرر. ومن هنا نجد بعض مؤلفات ابن زيدان ك"الاتحاف" و" الدرر الفاخرة" وكذلك " الحركات

الاستقلالية" للفاسي . ويعتبر كتاب " الاتحاف" من أهم مراجع هذا الباب ، نظرا لاعتماده على الوثائق . ومع ذلك فهو لا يخلو من عيوب كالكتابة التقليدية (الحوليات) والمجاملة .

اما القسم الثاني من هذه المراجع فقد صدرت كلها بعد استقلال المغرب . ويمكن تقسيمها بدورها الى قسمين :

مراجع تدخل في اطار احياء التراث وبعث الشخصية والدولة المغربيتين، وأخرى تولدت عن البحث العلمي الاكاديمي والدراسات المتخصصة . ومن هذه الابحاث نجد " الامناء بالمغرب في عهد السلطان الحسن الاول " و " المسألة المغربية " و "العلاقات المغربية المصرية" ، وغيرها . . .

اما المراجع الاجنبية فتمتاز بالتنوع ، ويمكن تقسيمها بدورها الى قسمين رئيسيين:

مراجع تدخل ضمن التأليف الاكاديمي ، كالاطروحات الجامعية التي من أهمها كتاب : " *Miege* " " المغرب وأوروبا" وكذلك " *Guillen* " " ألمانيا والمغرب " ، ثم مراجع اخرى متخصصة لا تقل أهمية عما سبق ، ك" *Laroui* " : " الاصول الاجتماعية والثقافية للمغرب" ، و" *Lahbabi* " : " الحكومة المغربية " ، وغيرها من المراجع .

اما النوع الثاني فيدخل ضمن الكتابات الاوربية وبخاصة الفرنسية ، ذات النوايا والاغراض الاستعمارية ، كتبرير التنافس الاستعماري او تبرير فترة الحماية والدفاع عنها . وهي كتابات تمتاز في عمومها بعدم التوازن في معلوماتها ، ومن جهة ثانية فهي لا تؤرخ للمغرب وللمجتمع المغربي قدر تركيزها على التأريخ للوجود الاوربي او الفرنسي في المغرب . ولعل أهم ايجابية نسجلها لها هي تحكمها في تقنيات البحث .

وقد حاولنا قدر الامكان أخذ مادة البحث منها آخذين بعين الاعتبار الاغراض والميول والنوايا السالفة الذكر حتى لا يكون لها تأثير كبير على الاحكام والاستنتاجات التي توصلنا اليها .

وقد ثبتنا في الاخير بعض المراجع العامة وكذلك المقالات والمجلات والجرائد التي ساعدتنا على اكمال انجاز هذا البحث .

بيبليوغرافية المطبوعات

- الكتب المطبوعة المعاصرة والقريبة من فترة البحث :

أ - العربية :

- الناصري، أبو العباس احمد بن خالد، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى، جـ 8 و 9، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1956.

ب - الأجنبية :

-Berard, V.; L'affaire Marocaine, Paris, 1906.
-Campou, Ludovi-de; Un empire qui croule, le Maroc contemporain, Paris, 1886.
-Cour, Auguste; L'établissement des dynasties des Cherifs du Maroc et leur rivalité avec les turcs de la régence d'Alger (1509-1830), Paris, 1904.
-Kerdec, Cheny-le; Un boulevard de l'Islam, Madrid, 1895.

- المقالات المعاصرة والقريبة من فترة البحث:

- الأجنبية :

-Caille, J.; "Les Marocains à l'Ecole du genie de Montpellier (1885-1888)" Hesperis, t. H LXLI.
-Erckmann, Jules;" Maladie de l'Empéreur du Maroc", La Nouvelle Revue, 1er Novembre, 1887.
-Fontpertuis, Ad. F. de ;" Le Maroc: ses population, et son organisation interieure", La Nouvelle Revue,

tome 40, Mai-Juin, 1886.

-Martinière, H. de la; "Le règne de Moulay Hassan", Revue des Deux Mondes, LXIV, 4 eme période, tome 125, Septembre, 1894.

-Michaux Bellaire, H.; "L'héritage de Moulay Hassan", Revue des Deux Mondes, tome IX, 1909.

-Ordêga, L.; "Le Sultan Mulay Hassan, souvenirs personnels", Revue Politique et Littéraire, n° 24, 4 eme Série, tome I, 16 Juin 1894.

-Vasili, Comte Paul; "Le vrai Maroc", La Nouvelle Revue, tome 66, Septembre-Octobre, 1890.

– الكتب المطبوعة المتأخرة عن فترة البحث :

أ – العربية :

– ابنعبد الله، عبد العزيز، معطيات الحضارة المغربية، ج 2، دار الكتب العربية، الرباط، 1963.

– ________، السفارة والسفراء بالمغرب عبر التاريخ، الرباط، 1985.

– بنشنهو، عبد الحميد، النظام الاداري بالمغرب، مطبعة الامنية، ط 4، الرباط، 1963.

– ابن تاويت، محمد، وعفيفي، محمد الصادق، الادب المغربي، ط 1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1960.

- تشرشل ، شارل هنري، حياة الامير عبد القادر، ترجمة د . ابي القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر ، تونس 1974 .

- التميمي ، عبد الجليل، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي 1816-1871، ط 1 ، الدار التونسية للنشر، 1972 .

- جوهر ، حسن محمد، المغـرب ، دار المعارف ، مصر، 1964 .

- حركات ، ابراهيم، المغرب عبر التاريخ ، ج 3 ، الطبعة الاولى ، دار الرشيد الحديثة ، الدار البيضاء، 1985 .

- داود ، محمد، تاريخ تطوان، ج 8 ، الرباط ، 1979 .

ابن زيدان ، عبد الرحمن، اتحاف اعلام الناس بجمال حاضرة مكناس، ج 3 ، ط 1 ، المطبعة الوطنية ، الرباط ، 1930 .

- ـــــ ، ـــــ ، الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة، الرباط ، 1937 .

- ـــــ ، ـــــ ، العز والصولة في معالم نظم الدولة ، ج 1 و2 ، المطبعة الملكية ، الرباط ، 1961 .

صبحي ، حسن، التنافس الاستعماري الاوربي في المغرب(1884-1904) ، ط 1 ، دار المعارف ، مصر، 1965 .

- ابن عـبود ، محمد عبد السلام ، تاريخ المغرب ، ج 2 ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، 1963 .

- فارس ، محمد خير ، المسألة المغربية 1900-1912، مطبعة نهضة مصر، القاهرة ، 1961 .

- الفاسي ، علال، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، دار الطباعة المغربية ، تطوان ، المغرب ، بدون تاريخ .

- كنون، عبد الله ، مدخل الى تاريخ المغرب ، ط 3 ، تطوان، 1958 .

- ـــــ ـــــ ، النبوغ المغربي في الأدب العربي ، ط 2 ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1961 .

ـ لاندرو ، روم ، أزمة المغرب الاقصى ، ترجمة عبد العزيز الاهواني ، ج 1 ، القاهرة ، 1961 .

ـ ابيب ، رزق يونان ، ومزين ، محمد ، تاريخ العلاقات المغربية المصرية منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام 1912 ، دار النشر المغربية ، الدار البيضاء ، 1982 .

ـ المريني ، عبد الحق ، الجيش المغربي عبر التاريخ ، دون مكان الطبع ، بدون تاريخ الطبع .

ـ المشرفي ، محمد محيي الدين ، الجديد في تاريخ المغرب ، طنجة ، 1958 .

ـ المنوني ، محمد ، مظاهر يقظة المغرب الحديث ، الجزء الاول ، مطبعة الرباط ، 1973 .

ـ هراج التوزاني ، نعيمة ، الامناء بالمغرب في عهد السلطان مولاى الحسن ، الجزء الاول ، الرباط ، دون تاريخ الطبع .

ب ـ الأجنبية :

-Arnaud, Louis; Au temps des "Mehallas" ou le Maroc de 1860 à 1912, Casablanca, 1952.

-Ayache, Albert; Le Maroc, Paris, 1956.

-Brignon, J.; Amin, A.; Boutaleb, B.; Martinet, G.; Histoire du Maroc, Paris, 1967.

-Caille, Jacques; La représentation diplomatique de la France au Maroc, Pedône, 1951.

- ____ , ______ ; La petite histoire du Maroc, t. I,II, Casablanca, 1954.

- ____ , ______ ; Les accords internationaux du Sultan Sidi Mohammed ben Abdellah (1757-1790), Tanger, 1960.

-Cambon, H.; Histoire du Maroc, Paris, 1952.

-Collection, dirigé par Larbi Essakabi; Le Mémorial du Maroc 1666 - 1906 : de la grandeur aux intrigues, vol. 4, Rabat, 1983.

-Desfeuilles, P.; Les colonies Françaises: Le Maroc, Paris, 1932.

-Deverdun, Gaston; Marrakech des origines à 1912, Rabat, 1959.

-Drague, G.; Esquisse d'histoire religieuse du Maroc : Confréries et Zaouias, Peyronnet, S.D.

-Gaudefroy-de Membyns, R.; L'oeuvre Française en Matière d'enseignement au Maroc, Paris, 1928.

-Guenane, Djamel; Les relations Franco-Allemandes et les Affaires Marocaines de 1901 à 1911, S.N.E.D., Alger, 1975.

-Guillen, Pierre; L'Allemagne et le Maroc de 1870 à 1905, P.U.F., Paris, 1967.

-Hardy, G.; Aures, P.; Les grandes étapes de l'histoire du Maroc, Paris, 1925.

-Julien, Charles André ; Le Maroc face aux Impérialismes 1914-1956, Paris, 1978.

-Julien, Ch. A.; et Autres; Les Africains "Hassan Ier et la crise Marocaine au XIX Siècle", édit. Jeune Afrique, S.L., 1977-1978.

-Lahbabi, Mohamed; Le gouvernement Marocain à l'Aube du XX Siècle, Casablanca, 1975.

-Laroui, Abdellah; Les origines sociales et culturelles du nationalisme Marocain (1830-1912), Paris, 1977.

-Le Tourneau, Roger; La vie quotidiènne à Fez en 1900, S.L., 1965.

-Le Mémorial du Maroc-Collection dirigée par Larbi Essakabi, vol. 4, 1666-1906: de la grandeur aux intrigues, Rabat, 1983.

-Miege, Jean-Louis; Le Maroc, Paris, 1962.

-_____ , __________; Le Maroc et l'Europe 1830-1914, t. I,II,III; (1961), t. IV (1964), P.U.F., Paris, 1961-1964.

-_____ , __________; Une mission Française à Marrakech en 1882, S.L., 1968.

-Morin-Barde, Mireille; Le Maroc Etincellant, édition Marcus, Paris, 1969.

-Souriau-Hoebrechts, Ch.; La presse Maghrébine, Paris,1969.

-Terrasse, Henri; Histoire du Maroc des origines à l'établissement du protectorat Français, t. II, Casablanca, 1950.

-Tharaud, Jerome; Tharaud, Jean; Les milles et un jour de l'Islam, S.L., 1950.

-Vangen, Jean; Découverte du Maroc, Casablanca, S.D.

-Weisegerber, F.; Au seuil du Maroc moderne, Rabat, 1947.

- المقالات المتأخرة عن فترة البحث :

أ- العربية:

- الجابري، محمد عابد، " الاصالة والتحديث في المغرب ، تطور النخبة المفكرة في المغرب الاقصى خلال القرن 19 والنصف الاول من القرن 20" ، الثقافة (الجزائرية) ، العدد 77، السنة الثالثة عشر ، سبتمبر - اكتوبر 1983 .

- خلف التميمي، عبد المالك، " ملامح الوضع الاقتصادى في المغرب العربي قبيل الاستعمار الغربي " ، المجلة التاريخية المغربية، السنة العاشرة، العدد 29-30 ، جويلية 1983 .

- السراج ، محمد، " المركز الاجتماعي . . . " ، وزارة التربية ادارة الشؤون الثقافية، جامعة القرويين في ذكراها المائة بعد الالف (245-1379هـ/ 859-1960م) ، المحمدية ، بدون تاريخ .

- سعد الله، ابو القاسم، " مؤلفات المشرفي المعاصر للامير عبد القادر " ، الثقافة ، (الجزائرية) ، عدد خاص بالذكرى المئوية لوفاة الامير عبد القادر ، السنة 13 ، عدد 75، ماى-جوان، 1983 .

- كامل مسقاوى، عمر، " مالك بن نبي والدعوة للانتقال من التكديس الى البناء" ، العربي ، العدد 285، اوت ، 1982 .

- المنوني ، محمد، " ملاحظات . . . " ، مجلة كلية الاداب والعلوم الانسانية" ، جامعة محمد الخامس (المغرب) ، العدد 9 ، الرباط - المغرب .

ب ـ الاجنبيـة :

-Basset, Henri; "Un grand Sultan Marocain, Moulay el-Hassan ", Revue de l'Armée d'Afrique, n° 36, 4eme année, Juin 1927.

-Peretie, A.; " Les Madrasas de Fès ", Archives Marocaines, t. XVIII, 1912.

ـ مراجع عامـة :

أ ـ العربية :

ـ سعد الله، أبو القاسم ، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الشركة الوطنيـة للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1978 .

ـ ابن الامير عبد القادر الجزائري، محمد ، تحفة الزائر في مآثر الامير عبد القادر،

ـ غرايبة ، عبد الكريم محمود، دراسات في تاريخ افريقيا العربية(1918 ـ 1958)، ط 1 ، مطبعة جامعة دمشق، 1960 .

ـ قطب ، سيد ، معالم في الطريق ، ط 9 ، دار الشروق ، بيروت ، 1982 .

ـ ابن نبي ، مالك ، شروط النهضة ، ترجمة عمر كامل مسقاوي، وعبد الصابـور شاهين، ط 3 ، دار الفكر ، بيروت ، 1969 .

ـ ـــ ، ــ ، وجهة العالم الاسلامي ، ترجمة عبد الصابور شاهين، دار الفكر، بيروت ، بدون تاريخ .

ـ ـــ ، ــ ، تـأملات ، ط 3 ، دار الفكر ، دمشق، 1977 .

ـ ـــ ، ــ ، مشكلة الثقافـة ، دار الفكر ، دمشق، 1981 .

ب ـ الاجنبية :

-Girault, René; Diplomatie Européenne et Impérialisme, 1871-1914, Paris, 1979.

-Encyclopédie de l'Islam, t. III, Paris, 1966.

ـ المجلات :

أ ـ العربية :

ـ الثقافة (الجزائرية)، الاعداد 75 و 77، 1983 .

ـ العربي ، العدد 285، 1982 (الكويت) .

ـ المجلة التاريخية المغربية ، العدد 29ـ30، 1983(تونس) .

ـ مجلة كلية الاداب والعلوم الانسانية ، العدد 9 (المغرب) .

ب ـ الاجنبية:

-Archives Marocaines, 1912.

-Hesperis, t. H LXLI.

-La Nouvelle Revue, t. 40, 1886, 1887; t. 66, 1890.

-Revue de l'Armée d'Afrique, n° 36, 1927.

-Revue des Deux Mondes, 1894 et 1909.

-Revue Politique et Littéraire, t. I, 1894.

- الجـرائـد :

أ - العربية :

- الجوائب ، العدد 720 ، السنة الرابعة (الآستانة) .

ب - الأجنبية :

-Le Temps, 1873-1894.

فهرس الأعـــــلام

فهرس الأماكن والبلدان

- ش -

- ص -

- ط -

- ع -

- ف -

- و -

فهرس القبائل والجماعات

المحتوى

الفصل الرابع

الملحق :

البيبليوغرافية :

الفهارس :